جامعة أم درمان الإسلامية
الآداب ـ الدراسات العليا
التاريخ والحضارة الإسلامية

بحث بعنوان

الوزارة في العصر العباسي الأول

١٣٢- ٢٣٢هـ/ ٧٤٩- ٨٤٦م

أعد لنيل درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية

إعداد الطالبة
صفاء حسن أحمد عوض الله

اشراف الدكتور
عبدالرحمن حسب الله الحاج أحمد

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م


بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وأجعل لي وزيراً من أهلي . هارون أخي ﴾

صدق الله العظيم

سورة طه آية ٢٩-٣٠

الإهـــداء

إلى روح جدتي (مسرة) وجدي (المحيسي) رحمهما الله وستر غربتهما و آنس وحشتهما.

إلى أبي الغالي أطال الله عمره.

إلى أمي الحبيبة حفظها الله ورعاها.

إلى أخي (ناهي) ردّ الله غربته، وأختي (رحاب)وفقها الله.

إلى أولئك الكرام الشامخين شموخ الجبال أخوالي الطيب، خالد، علي حفظهم الله.

صفاء

فهرس المحتويات

المقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا بحث بعنوان : (الوزارة في العصر العباسي الأول ١٣٢ - ٢٣٢هـ /٧٤٩-٨٤٦م) والذي آمل أن يستفيد منه كل طالب علم وباحث في هذا المجال.

أهمية الموضوع :

ترجع أهمية الموضوع إلى أثر المنصب الإداري الذي يتحدث عنه البحث وهو الوزارة، والتي تعتبر من أخطر المناصب الإدارية التي تقوم عليها سياسة الدولة، ولا يتقدمها سوى منصب الخليفة أو الرئيس، كما يُقال في العصر الحالي.

سبب اختيار الموضوع :

يرجع السبب في اختيار الموضوع إلى الدولة العباسية نفسها والتي كانت من أعظم الدول الإسلامية وأخطرها فهي كما يقول ابن طباطبا [1] « دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم أسواق العلم فيها قائمة، وبضائع الآداب فيها نافقة، وشعائر الديـــن فيها معظمة، والخيرات فيها دارة، والدنيا عامرة والحرمات مرعية والثغور محصنة».

كما يرجع السبب إلى العصر الذي تناوله هذا البحث وهو العصر العباسي الأول الذي أعتبره المؤرخون العصر الذهبي في تاريخ الخلافة العباسية، فقد كان الخلفاء العباسيين يسيطرون سيطرة تامة على الدولة والجيش على عكس ما حدث بعد ذلك للخلفاء العباسيين من تلاشي نفوذهم، وضياع هيبتهم، فقد أصبحوا لعباً بأيدي المستبدين بهم من قادة الترك الأمراء وملوك الأسرة البويهية الفارسية ، ومن ثم سلاطين الأسرة السلجوقية التركية.

فضلاً عن أن منصب الوزير نما بشكله الرسمي وظهر بوضوح في هذه الدولة وفي هذا العصر، وكان قبل ذلك لا يُعرف إلا بصورة باهتة.

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية، بيروت، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م، ص١٤٩-١٥٠.

نطاق البحث :

يتناول هذا البحث فترة زمنية مقدارها قرن من الزمان، وهي المئة سنة الأولى من تاريخ الدولة العباسية، وبالتحديد من خلافة أبي العباس السفاح إلى خلافة الواثق أي في الفترة ١٣٢-٢٣٢هـ/ ٧٤٩-٨٤٦م.

أما النطاق المكاني فإنه يشمل الدولة الإسلامية التي أقامها العباسيون بالعراق ، وجعلوا بغداد عاصمتها وقبلتها ومحط أنظارها.

مشاكل البحث :

من أهم المشاكل التي واجهت الباحثة هي صعوبة الحصول على المصادر التي تكفي البحث، الأمر الذي يصعب مهمة الحصول على المعلومة.

أيضاً من المشاكل اختلاف وجهات النظر بين المؤرخين في نقلهم لبعض الروايات الأمر الذي يؤدي إلى صعوبة تمحيص هذه الروايات وتحقيقها واستخلاصها.

مكان الدراسة من الدراسات السابقة :

وضح للباحثة أن المصدر الوحيد الذي أفرد الحديث عن الوزارة في العصر العباسي الأول هو كتاب الوزراء، والكتاب للجهشياري، إلا أن هذا المؤرخ كان يسرد الأخبار مجردة كما وقع أمام من يروونها خالية من البحث والتحليل. أما المحدثون ، فبالرغم من أنهم تناولوا الدولة العباسية كثيراً وأفاضوا في ذكرها، فهناك من كتب في الجانب السياسي مثل عبدالمنعم ماجد، وهناك من كتب في الجانب الاجتماعي والسياسي معاً مثل حسن خليفة، إلا أنه لا يوجد من بين هؤلاء المؤرخين من أفرد حديثه عن الوزارة في الدولة العباسية، بل كانوا يتطرقون إلى ذلك الأمر في جملة موضوعات أخرى.

تقويم المصادر والمراجع :

استفادت الباحثة من عدد من المصادر التي أهمها كتاب «الوزراء والكتاب» للجهشياري ت(٣٣١هـ-٩٤٢م) والذي يعتبر أشهر مؤلف في تاريخ الوزراء في الإسلام. وهو من أقدم المصادر فصّل فيه صاحبه تاريخ الإنشاء منذ عهد النبي ﴿ﷺ﴾ وكتب عن تاريخ الوزارة والوزراء في الإسلام حتى نهاية القرن الثالث الهجري.

وقد كان لمؤلفات ابن خلدون ت(٨٠٨هـ-١٤٠٥م) أهمية كبيرة في هذا البحث والتي من أهمها كتابه المسمى «العبر وديوان المبتدأ والخبر» وهو كتاب ضخم يقع في سبع مجلدات. أما «المقدمة» فهي أعظم أجزاء كتابه السابق وأشهرها. كتب فيها عن قواعد فلسفة التاريخ والإجتماع، ثم وصف تطور الأمم من البداوة إلى الحضارة ، وترقي الشعوب في شتى المجالات، وتكوين الدول ونموها وأنهيارها. وقد جاءت كتاباته بطريقة متسلسلة وأسلوب منطقي فيه ربط بين الأسباب والمسببات ونقد للحوادث.

ومن الكتب التي اعتمدت عليها الباحثة كثيراً كتاب «تاريخ الرسل والملوك» للطبري ت(٢٢٤هـ-٣١٠م) والذي يعتبر أوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب. بدأ فيه بذكر الدلالة على حدوث الزمان . أما التاريخ الإسلامي فقد رتبه على الحوادث من عام الهجرة حتى سنة ثلاثمائة واثنتين، ومصادر الطبري في ذلك من كل ما سبقه من المواد التي عرفها العرب من قبله وأخذ من كل متخصص فنه.

كما كان لمؤلف ابن الأثير ت(٦٣٠هـ - ١٢٣٢م) المسمى «الكامل في التاريخ» عظيم الفائدة في هذا البحث ، وهو كتاب قيم جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما ، بدأه منذ أول الزمان إلى آخر سنة ٦٢٨هـ- ١٢٣٠م، فيه سرد للحوادث والأخبار حسب تواريخها.

كما استفادت الباحثة من كتاب (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) لابن العماد الحنبلي ت(١٠٨٩هـ - ١٦٧٨م) وهو كتاب قيم استخلص مادته من تواريخ الإسلام وطبقات الأعلام لحجة المؤرخين، ورتبه على السنين من هجرة النبي ﴿ﷺ﴾ إلى سنة ألف. هذا بالإضافة إلى العديد من المصادر التي وجدت فيها الباحثة معلومة طيبة سيرد ذكرها في قائمة المصادر .

أما المراجع فإن الباحثة لم تعتمد كثيراً عليها وإن كانت لها قيمة في الدلالة على مكان المعلومة من المصدر.

ومن أهم المراجع التي استفادت منها الباحثة كتاب «التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية» لأحمد شلبي، وكتاب «النظم الإسلامية» للدكتور حسن إبراهيم حسن، وكتاب «محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية» لمحمد الخضري ومراجع أخرى ذات فائدة.

منهج البحث :

المنهج الذي اتبعته الباحثة هو المنهج الوصفي والتحليلي، فكانت تصف الحدث وتحلله إذا احتاج الأمر إلى التحليل.أما المنهج الكتابي فإنه يتكون من مقدمة عامة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

تحدثت الباحثة في المقدمة عن أهمية البحث وسبب اختيار البحث، وحددت نطاق البحث الزماني والمكاني. بعد ذلك تحدثت عن المشاكل التي واجهت البحث، وبعدها تحدثت عن مكان الدراسة من الدراسات السابقة ، ثم أعطت بعد ذلك تقويم للمصادر والمراجع وبعدها تحدثت عن منهج البحث، ثم ختمت المقدمة بالشكر والتقدير.

أما التمهيد فقد جاء مشتملاً على الآتي : الوزارة في اللغة، الوزارة في كتاب الله، الحاجة إلى الوزارة، الوزارة قبل الإسلام، والوزارة في صدر الإسلام والدولة الأموية.

الفصل الأول بعنوان «الوزارة من خلافة السفاح إلى خلافة الهادي» وقد جاء مشتملاً على تمهيد وثلاثة مباحث. تحدثت الباحثة في التمهيد عن صفة الوزارة في العصر العباسي الأول، وأنواعها، وعن صفات الوزراء ومهامهم. وقد جاء المبحث الأول بعنوان « الوزارة في خلافة السفاح» ورد الحديث فيه عن وزارة حفص بن سليمان الخلال ، ووزارة خالد بن برمك. والمبحث الثاني جاء بعنوان «الوزارة في خلافة أبي جعفر المنصور» وقد ورد الحديث فيه عن وزارة سليمان بن مخلد ووزارة الربيع بن يونس. أما المبحث الثالث بعنوان « الوزارة في خلافة المهدي والهادي» وتطرق هذا المبحث لوزارة معاوية بن عبيد الله ووزارة يعقوب ابن داؤود ووزارة الفيض بن أبي صالح. وأخيراً تطرق لوزارة إبراهيم بن ذكوان الحراني «وزير الهادي».

كما جاء الفصل الثاني بعنوان «الوزارة في خلافة هارون الرشيد» وقد جاء الحديث فيه عن أصل البرامكة، ووزارة يحيى البرمكي وأولاده الفضل وجعفر لهارون الرشيد، كما جاء الحديث فيه عن كرم البرامكة ومدح الشعراء لهم . أما المبحث الثاني فقد جاء بعنوان «نكبة البرامكة» تطرق للحديث عن إرهاصات النكبة وأسبابها والنكبة وآثارها، كما تطرق للحديث عن رثاء الشعراء للبرامكة. وأخيراً تحدث عن وزير الخليفة بعد بني برمك «الفضل بن الربيع»

أما الفصل الثالث بعنوان « الوزارة من خلافة الأمين إلى خلافة الواثق» وقد احتوى على ثلاث مباحث. المبحث الأول بعنوان « دور الوزراء في الصراع بين الأمين والمأمون» وقد تطرق هذا المبحث للحديث

عن بيعة هارون بولاية العهد للأمين ثم المأمون ثم المؤتمن. وعن دور الفضل بن الربيع «وزير الأمين» في غرس بذور الفتنة بعد وفاة هارون الرشيد، كما تحدث عن دور الفضل بن سهل في تحريض المأمون على الأمين، وأخيراً تطرق لأثر تحريضات وزيري الأمين والمأمون في الصراع بينهما. أما المبحث الثاني بعنوان «الوزارة في خلافة المأمون» وورد الحديث فيه عن وزارة الفضل بن سهل، ونقل الخلافة من بيت العباس إلى بيت علي وأثر ذلك في مقتل الفضل بن سهل. كما ورد الحديث عن وزارة الحسن بن سهل ووزراء المأمون بعد بني سهل. أما المبحث الثالث جاء بعنوان « الوزارة في خلافة المعتصم والواثق» كان الحديث فيه عن وزارة الفضل بن مروان ووزارة أحمد بن عمار ووزارة محمد بن عبدالملك الزيات« وزير المعتصم والواثق ».

شكر وتقدير :

الشكر بعد الله تعالى أقدمه لأستاذي الجليل الدكتورعبدالرحمن حسب الله الحاج أحمد الذي وإن بالغت في مدحه فلن أوفه قليل من حقه. فقد كان لرحابة صدره وطول باله وطيب خلقه ولين قوله وجميل استقباله أثر عظيم في إنجاز هذا العمل.

وأخص بشكري وتقديري البروفسير عمر حاج الزاكي عميد كلية الآداب الذي كانت له اليد الطولى لالتحاقي بالعمل في هذه المؤسسة العملاقة ، فله مني الشكر وله عندي الوفاء والتقدير.

والشكر كله للدكتور العظيم والوالد الرؤوف د. محمد علي الطيب. فلقد كانت لنصائحه الجميلة وتشجيعاته المتواصلة أثر كبير لمواصلة مشوار العلم والبحث. وأشكر جميع أساتذة قسم التاريخ والحضارة الإسلامية وهم د. الريح السنهوري و د. بشير كوكو ود. عبد الباقي كبير وبقية الزملاء بالقسم.

والشكر لأسرة مكتبة جامعة أم درمان الإسلامية وأسرة مكتبة جامعة النيلين والقبة الخضراء. كما لا يفوتني أن أتقدم بشكري لاسرة «جي تاون» وعلى رأسهم الأخ «إبراهيم» الذي قام بطباعة هذا البحث.

تمهيد

١- الوزارة في اللغة
٢- الوزارة في كتاب الله
٣- الحاجة إلى الوزارة
٤- الوزارة قبل الإسلام
٥- الوزارة في صدر الإسلام والدولة الأموية

ا - الوزارة فـي اللغــة

كلمة الوزارة لها ثلاثة اشتقاقات في اللغة العربية :.

الأول : الوِزر من وزر يزِر وزراً.

الوزر : الثقل.

وزِرالرجل : حمل ما يثقل عليه.

وضعت الحرب أوزارها : انقضت لأن أهلها يضعون أسلحتهم.

وزِر للملك : صار وزيراً .[1]

والوِزر أيضاً : الذنب والأثم.

وزَر الرجل : رُمي بوزر.[2]

الثاني : الأزْر.

الأزْر : القوة.

شدّ أزره : عاونه وقواه.

أزر الزرع أزراً : إلتف وقوى بعضه بعضاً.[3]

توزر له : صار وزيراً له.

استوزره : اتخذه وزيراً.[4]

وفـي المثل «إن كنت بي تشـد أزرك فأرخـه» أي إن تتكـل عليّ فـي قضاء حوائجك فقد حُرمتها.[5]

الثالث : الـوزر.

الوزر : الملجأ.

وأصل الوزر هو الجبل المنيع وكل معقل.[6]

الوَزارة والوِزارة هي حال الوزير وولايته.

والوزير هو حبأ الملك الذي يحمل ثقله ويعينه برأيه.[7]

---

(١) كرم البستاني : المنجد في اللغة العربية، دار المشرق، بيروت، ط٢٢، ١٩٧٣م، ص٨٩٨.

(٢) ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم)، لسان العرب، ج٧، القاهرة، ١٩٥٩م، ص١٤٥.

(٣) إبراهيم أنيس وآخرون : المعجم الوسيط، ج١، دار المعارف مصر، ١٩٧٣م، ص١٥.

(٤) كرم البستاني : المصدر السابق، ص٨٩٨. (٥) إبراهيم أنيس : المصدر السابق، ج١، ص١٥.

(٦) ابن منظور : المصدر السابق، ص١٤٥.

(٧) بطرس المعلم : محيط المحيط، المجلد الثالث، بيروت، ١٨٧٠م، س٤٥٤.

٢- الوزارة في كتاب الله

وردت كلمة الوزارة واشتقاقاتها ومصادرها ومعانيها المختلفة في عدة مواضع من كتاب الله عزّ وجل.

فقد وردت بمعنى القوة في قول الله تعالى حكايةٍ على لسان سيدنا موسى عليه السلام ﴿ **واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري . وأشركه في أمري** ﴾ .[١] فقد سأل سيدنا موسى عليه السلام ربه بأن يجعل له وزيراً يشد أزره ويقويه.

وقد استجاب الله لدعائه في قول الله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا فيه أخاه هارون وزيراً** ﴾.[٢]

كما وردت بمعنى الملجأ في قول الله عز وجل ﴿ **كلا لا وزر** ﴾.[٣]

أما بمعنى الذنب فقد وردت في عدة مواضع منها قوله تعالى ﴿ **ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وزارة وزر أخرى** ﴾.[٤]

وفي قوله تعالى ﴿ **ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾.[٥]

وأيضاً في قول الله عز وجل ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾.[٦]

وفي قوله تعالى ﴿ **وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾.[٧]

كما جاءت في قوله تعالى ﴿ **ألاّ تزر وازرة وزر أخرى**﴾ .[٨]

أما بمعنى الثقل فقد وردت أيضاً في عدة مواضع، منها قول الله عزّ وجل ﴿ **ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك** ﴾.[٩]

---

(١) سورة طه، الآية ٢٩- ٣٢.
(٢) سورة الفرقان، الآية ٣٥.
(٣) سورة القيامة، الآية ١١.
(٤) سورة الأنعام، الآية ١٦٤.
(٥) سورة الإسراء، الآية ١٥.
(٦) سورة فاطر، الآية ١٨.
(٧) سورة الزمر، الآية ٧.
(٨) سورة النجم، الآية ٣٨.
(٩) سورة الشرح، الآية ٢.

وجاء في قوله ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم** ﴾ .[1]

كما جاءت في قول الله تعالى ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ .[2]

وجاءت في قوله تعالى ﴿ **ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها** ﴾ .[3]

وأيضاً جاءت في قول الله عز وجل ﴿ **وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم** ﴾ .[4]

وفي قول الله تعالى ﴿ **من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً** ﴾ .[5]

---

(١) سورة النحل، الآية ٢٥.

(٢) سورة محمد، الآية ٤.

(٣) سورة طه، الآية ٨٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية ٣.

(٥) سورة طه الآية، ١٠٠.

٣- الحاجة إلى الوزارة

إن الوزارة من أركان السلطة كما قال الله تعالى في قصة سيدنا موسى ﴿ **واجعل لـي وزيـرا مـن أهلي** ﴾ .[١] فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله تعالى موسى.[٢] وإذا جاز ذلك الأمر في النبوة كان في الإمامة أجوز.[٣]

أما في قوله تعالى ﴿ **اشدد به أزري وأشركه في أمري** ﴾.[٤] دليل على أن موضع الوزارة أن يسند قواعده وأن يفضي إليه السلطان وذلك لعجزه ويجري إذا استكملت فيه الخلال المحمودة.[٥]

ثم أعقب سبحانه وتعالى تلك الآيات بقوله ﴿ **كي نسبحك كثيراً** ﴾ .[٦] دلت الآية على أنه بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة فيها تنظيم أمور الدنيا والآخرة.[٧]

كما تظهر الحاجة إلى الوزير في أن السلطان نفسه ضعيفاً يحمل أمراً ثقيلاً فلابد له من الاستعانة بأبناء جنسه ، وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده.[٨]

والملوك لا يستغنون عن الوزراء إذا أرادوا الخير لأمتهم فأنه كما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح وأفره الخيل إلى السوط وأحد الشفار - إلى المسن - كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم إلى الوزير.[٩]

كما أن نيابة الوزير المشارك له في التدبير أصح في تنفيذ الأمور من تفرده بها يستظهر به على نفسه وبها يكون أبعد من الذلل.[١٠]

قال الحكماء : « لا ينفع الملك إلا بوزرائه».[١١] وقد طابق هذا القول قول ابن المقفع [١٢] إن الملك لا يستطاع ضبطه إلا مع ذوي الرأي وهم الوزراء والأعوان.

---

(١) سورة طه، الآية ٢٩.

(٢) طاش كبرى زادة (أحمد بن مصطفى) : مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق : كامل بكري، عبدالوهاب أبو النورج، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٤١٤.

(٣) الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد) : الأحكام السلطانية، القاهرة، ١٩٠٨م، ص ٣٠.

(٤) سورة طه، الآية ٣١-٣٢. (٥) الطرطوشي (أبوبكر بن محمد بن الوليد الفهري): سراج الملوك، القاهرة، ١٢٢٩هـ، ص٦٩.

(٦) سورة طه ،الآية ٣٣. (٧) طاش كبرى زادة : المصدر السابق، ص٣١، الطرطوشي، المصدر السابق، ص٦٩.

(٨) ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد) : المقدمة، تحقيق: علي عبدالوهاب، ج٢، القاهرة، ١٩٦٦م.

(٩) الإبشيهي (شهاب الدين أحمد) : المستطرف في كل مستظرف، ج١، القاهرة، ١٩٥٣، ص ١٠٠، كبرى زادة. المصدر السابق، ص٣٠، محمد أحمد برانق، الوزراء العباسيون، ج١، القاهرة، ١٩٤٨، ص٥.

(١٠) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص٣٠.

(١١) ابن عبده ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي) : العقد الفريد، ج١، القاهرة، ١٩٤٨م، ص٧٥.

(١٢) بيدبا : كليلة ودمنة، نقلها إلى العربية ابن المقفع، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٩١، الطرطوشي، سراج الملوك، ص٧٠.

٤- الـوزارة قبـل الإسـلام

إن أول من استخدم هذا المنصب هم المصريين القدماء، وتشهد على ذلك آثارهم، ففي أحد الصور للمصريين القدماء نرى وزيراً يخرج من بيته في الصباح الباكر يستمع إلى مظالم الفقراء ويصغي إليهم لا يميز بين عظيم وحقير.[١]

ومما يؤكد وجهة النظر في هذا القول القرآن الكريم في قوله الله تعالى ﴿ **واجعـــل لـــي وزيراً من أهلي** ﴾ .[٢] على لسان سيدنا موسى. وسيدنا موسى عليه السلام كان في مصر القديمة ولا يمكن أن يستخدم هذه الكلمة إلا ولها وجود في العصر الذي يعيش فيه.[٣]

وعندما انتقلت الحضارة المصرية من مبادئ واتجاهات إلى الفينيقيين والسومريين واليهود واليونان والروم وأضحت جزء من التـراث الثقافي، فكانـت الحضـارة الفارسية واليونانية هـي التي تأثرت بالفكر المصري القديم.[٤]

لذلك كانت الوزارة معروفة عند الفرس، ويقول الجهشياري [٥] : «وجدت في عهد لسابور بن أردشير فصلاً يخاطب فيه ابنه يقول : وزيرك يكون مقبول القول لديك قوي المنزلة يمنعه مكانه منك ما يثق به.

وقد كان ملوك الفرس يكثرون من الوصايا لوزرائهم. فلما ملك أبرويز هرمز جمع رعيته وخطب عليهم خطبته قال في فصل منها يخاطب وزيره : أكتم السر واصدق الحديث واجتهد في النصيحة واحترس بالحذر فعليه ألا أعجل عليك حتى استأني ولا أقبل عليك حتى استيقن ولا أطمع فيك فأغتالك.[٦]

وكانوا يقولون الوزير هو مدبر شئوننا وزينة مملكتنا وهو لساننا المعبر وسلاحنا الذي ندخره عندما نتأهب للهجوم على أعدائنا في أقصى الجهات.[٧]

---

(١) الماوردي : أدب الوزير، تحقيق: فؤاد عبدالمنعم، محمد سليمان، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٣٠.
(٢) سورة طه، الآية ٢٩.
(٣) الماوردي : المصدر السابق، ص٣٠.
(٤) نفس المصدر، ص٣٠.
(٥) الجهشياري (أبو عبدالله محمد بن عبدوس) : الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، القاهرة، ١٩٣٨م، ص٥.
(٦) نفس المصدر ، ص٥.
(٧) نفس المصدر، ص٩، خودابخش، الحضارة الإسلامية، ترجمة : علي الخربوطلي، الجيزة، ١٩٦٦م، ٩٣.

كما عرف الوزارة اليونان، وفي ذلك يقول الجهشياري [1] إن أرسطاطاليس أدب الإسكندر فلما نشأ الإسكندر وعلا عرف من الإسكندر ما عرف من الحكمة فكان له شبه الوزير ويعتمد عليه في الرأي والمشورة.

أيضاً من الشعوب التي عرفت الوزارة قبل الإسلام العرب فقد قيل إن أباذؤيب الهذلي خان في امرأة ابن عم له ثم خانه خالد بن زهير فيها فقال له خالد :

فلا تجزعنّ من سنة أنت سرتها	وأول راض سنة من يسيرها
وكنت إماماً للعشيرة تنتهي إليك	إذا ضاقت بأمر صدورها
ألم تنتقدها من ابن عويمر	وأنت صفي نفسه ووزيرها [2]

فقول الشاعر لهذه الكلمة دليل على وجود الوزارة عندهم ، فمن غير المعقول أن يتفوه الإنسان بكلمة لا وجود لها في المكان والزمان الذي يعيش فيه.

وكان ملوك العرب - قبل الإسلام - في اليمن والحيرة والشام - يسمون من يوازرهم أعباء الملك «الراهن» لأنه مرتهن بالتدبير « والزعيم» لأنه زعيم بصواب الرأي «والكافي» لأنه يكفي الملك مهمات الأمور «والكامل» لأن المفروض فيه أنه كامل الفضائل.[3]

إذن الوزارة كانت معروفة من قبل الإسلام وعند العرب والعجم حيث يقول المسعودي [4] إن العجم تسمي وزير الملك من ملوكها حامل الثقل وحمال الملك وبهاء السلطان وهم الألسن الناطقة عن الملوك وخزان أموالهم وأمناؤهم على رعيتهم وبلادهم ، وأعظم الناس غناء عن الملوك والرعية وأولاهم بالحياء والكرامة.

---

(١) الوزراء والكتاب، ص٩ ، خودابخش، الحضارة الإسلامية، : علي الخربوطلي، ص٩٣.

(٢) ابن قتيبة (عبدالله بن مسلم الدينوري) : الشعر والشعراء، صححه وعلق على حواشيه مصطفى السقا، القاهرة، ١٩٣٢م، ص٢٥٢.

(٣) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) : التنبيه والإشراف، مراجعة عبدالله إسماعيل الصاوي، القاهرة ١٩٣٨، ص٢٩٤.

(٤) نفس المصدر ، ص٢٩٤.

٥- الوزارة في صدر الإسلام والدولة الأموية

إذا كان الغرض من الوزارة هو المعاونة والموازرة فهي كانت موجودة في زمن النبي ﴿ﷺ﴾.[١]

فبعد ظهور الإسلام تولى الرسول الأعظم محمد﴿ﷺ﴾ الإشراف الكلي على أمور المسلمين، فكان هو الوزير والقاضي والقائد، ولكن مع ذلك كان يستشير بعض المقربين إليه من الصحابة ويأخذ بآرائهم في كثير من الأمور الخاصة والعامة مصداقاً لقول الله تعالى ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾.[٢]

وكان يخص أبابكر بخصوصيات أخرى حتى أن العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقيصر والنجاشي كانوا يسمون أبابكر وزيراً.[٣]

وهناك أحاديث كثيرة ذكر فيها النبي ﴿ﷺ﴾ لفظ الوزير والوزراء ومن ذلك قوله ﴿ﷺ﴾ «إنه لم يكن قبلي نبي إلا وقد أعطى سبعة رفقاء نجباء وزراء وأني أعطيت أربعة عشر حمزة، وجعفر، وعلي، وحسن، وحسين، وأبوبكر، وعمر، والمقداد، وعبدالله بن مسعود، وأبو ذر، وحذيفة، وسليمان، وعمار، وبلال».[٤]

وهذا يثبت أن النبي ﴿ﷺ﴾ استخدم هذا المنصب ونطق هذا اللفظ. وكان للنبي ﴿ﷺ﴾ سبعة وزراء من المهاجرين وسبعة من الأنصار يستشيرهم ويسند إليهم بعض الأعمال.[٥]

كما روي عن عائشة رضي الله عنها قال : «قال رسول الله﴿ﷺ﴾ : إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزيراً صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سؤ إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعنه».[٦]

وأيضاً مما يشير إلى أن الوزارة كانت موجودة في زمن النبي ﴿ﷺ﴾ ما قاله أبوبكر الصديق في مؤتمر السقيفة عندما ألقى أول خطبة له في الأنصار قائلاً فيها : «نحن الأمراء وأنتم الوزراء».[٧]

---

(١) ابن خلدون : المقدمة، ج٢، ص٦٠٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٢، ص٦٠٤.

(٤) ابن حنبل (أبو عبدالله أحمد بن محمد) المسند، تحقيق: أحمد محمد شاكر، المعارف، ١٩٥٤م، ص١٢٦٤.

(٥) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص٣٠.

(٦) الحسن بن عبدالله : آثار الأول في ترتيب الدول، بولاق ١٢٩٥هـ، ص٦٢.

(٧) ابن عبده ربه : العقد الفريد، ج٢، ص١٧٥، ابن قتنية، الإمامة والسياسية، ج١، القاهرة ١٩٠٩م، ص٨١.

أما في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة، فقد كان أبوبكر الصديق يستش
فجعل إلى عمر القضاء وتوزيع الصدقات، كما أسند إلى عليّ الإشراف على أسرى الحرب
عمر كان يستشير الصحابة ويخص علياً وعثمان ببعض الأمور، ويستعين بهما في كثير من
شأن عثمان وعلي كذلك.[١]

ومع ذلك فلم يكن للمسلمين وزير متعين المرتبة وذلك لذهاب رتبة الملك بسذاجة الإسلام.[٢]

وفي عهد بني أمية استفحل الملك فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستئلافهم وأطلق عليه اسم الوزير، وكان النظر للوزير عاماً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلة وغير ذلك.[٣]

ورغم ظهور الوزارة بصورة باهتة في الدولة الأموية إلا أن ملوك بني أمية تنكر أن تخاطب كاتباً لها بالوزارة وتقول الوزير مشتق من الوزارة ، والخليفة أجل من أن يحتاج إلى الموازرة.[٤]

---

(١) ابن خلدون : المقدمة، ج٢، ص٧٧٥، أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج٣، القاهرة ١٩٦٦م، ص٩٣، خودابخش. الحضارة الإسلامية، ص١٢١.

(٢) نفس المصدر، ج٢، ص٧٧٥.

(٣) نفس المصدر ، ج٢، ص٧٧٦.

(٤) المسعودي : التنبيه والإشراف، ص٢٩٤.

الفصل الأول

الوزارة من خلافة السفاح إلى خلافة الهادي

تمهيد الفصل الأول

المبحث الأول

الوزارة في خلافة أبي العباس عبدالله بن محمد بن علي (السفاح)

١ - وزارة حفص بن سليمان الخلال

٢- وزارة خالد بن برمك

المبحث الثاني

الوزارة في خلافة أبي جعفر المنصور

١ - وزارة سليمان بن مخلد

٢- وزارة الربيع بن يونس

المبحث الثالث

الوزارة في خلافة أبي عبدالله محمد المهدي وابنه موسى الهادي

١ - وزارة معاوية بن عبيد الله

٢- وزارة يعقوب بن داؤد

٣- وزارة الفيض بن أبي صالح

٤ - وزارة إبراهيم بن ذكوان الحراني (وزير الهادي)

تمهيد الفصل

أ - صفة الوزارة في العصر العباسي الأول وأنواعها

الثابت أن العباسيين اتخذوا نظم الحكم من الفرس منها الوزارة كما عمدوا إلى اختيار وزرائهم من الفرس أيضاً.[1]

وكان أول من وقع عليه اسم الوزير في دولة بني العباس هو حفص بن سليمان الخلال واشتهر بالوزارة في دولتهم ولم يكن قبله من يعرف بهذا اللقب لا في دولة بني أمية ولا في غيرها من الدول.[2]

إلا أن لفظ الوزير هذا لم يتسمى به أحد بعد نكبة حفص بن سليمان الخلال تطيراً لما جرى له، فخالد بن برمك رغم أنه كان يقوم بعمل الوزراء إلا أنه لم يسمى وزيراً.[3]

وفي خلافة المنصور ظهرت الوزارة دون رونق ولا أبهة وذلك لاستبداده واستغنائه برأيه. ومع أنه كان يشاور في الأمور إلا أن هيبته تصغر لها هيبة الوزراء.[4]

بعكس الخليفة المهدي الذي فوّض أمره لوزيره. والسبب في ذلك هو كفاءة وزيره معاوية بن عبيد الله بن يسار الذي رتب الدواوين وقرر القواعد وجمع له حاصل المملكة وبذلك ظهرت أبهة الوزارة وفخامتها وعظم منصبها.[5]

ظلت الوزارة على ذلك الحال إلى أن ظهر البرامكة وزراء هارون الرشيد الذي فوّض إليهم أمور الملك وصارت الدولة كلها تحت أيديهم يتصرفون كما يشاءون فاستبدوا عليه واحتجبوا المال حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه.[6]

ظلوا في استبدادهم عليه لفترة دامت سبعة عشر عاماً حيث نكبهم بعد أن ضاق بهم ذرعاً في عام ١٨٧هـ - ٨٠٢م.[7]

(١) ابن خلدون : المقدمة، ج٢، ص٦٠٧، أحمد شلبي، السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص١٣١.
(٢) ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبوبكر) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج١، القاهرة ١٣٤٦هـ، ص٢٩١.
(٣) ابن الطقطقي (علي بن محمد بن ا طباطبا) : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت ١٩٦٦، ص١٥٦.
(٤) نفس المصدر ، ص١٧٤.
(٥) نفس المصدر ، ص١٨١.
(٦) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٣٩٠.
(٧) الطبري (محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، تحقيق محمد أبو الفضل، المعارف مصر، ١٩٦٦م، ص٢٨٩ :ابن طباطبا، المصدر السابق، ص٢٠٤.

أما في عصر المامون فقد ارتفع منصب الوزير بظهور بني سهل الذين استبدوا بأمور الدولة خاصة الفضل بن سهل «الذي غلب المامون حتى ضايقه في جارية أراد شرائها».[١]

ولعل هذا التدرج في مراحل الوزارة في العصر العباسي الأول يوضح انقسام الوزارة في ذلك العصر إلى قسمين :

١- وزارة تنفيـذ : وهي حال ما يكون السلطان قائماً على نفسه أي أن مهمته قاصرة على تنفيذ أوامر الخليفة .[٢]

٢- وزارة تفويض : وهي حال ما يكون الوزير مستنداً عليه [٣] وفي هذه الحالة يعهد الخليفة بالوزارة إلى رجل يفوض إليه النظر في أمور الدولة دون الرجوع إليه بحيث لا يبقى للخليفة من السلطان إلا ولاية العهد والعزل.[٤]

ومن أشهر وزراء التفويض في العصر العباسي الأول يحيى بن خالد البرمكي الذي فوض إليه هارون الرشيد أموره قائلاً له : « قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فاحكم بما ترى واستعمل من شئت وأعزل من شئت وأفرض لمن رأيت وأسقط من رأي فإني غير ناظر معك في شيء.[٥]

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٥.

(٢) ابن خلدون : المقدمة، ج٢، ص٧٧٧.

(٣) نفس المصدر، ج٢، ص٧٧٧.

(٤) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص١٨.

(٥) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٧٧.

٢- صفـات الـوزراء

إن منصب الوزير في غاية الأهمية ولذلك لابد أن تتوفر فيه صفات جليلة وأن تتواجد فيه شروط دقيقة فهو كما يقول ابـن طباطبا [١] « وسيطاً بين الملك ورعيـته فيجب أن يكون في طبعه شطر يناسب الخواص وشطر يناسب العوام ليعامل كلاً من الفريقـين بما يوجب له القبول والمحبة والأمانة. الصدق رأس ماله قيل : إذا خان السفير بطل التدبير وقيل : ليس لمكذوب رأي . والكفـاءة والشهامـة من مهماته والفطنة والتيقظ والدهاء والحزم من ضرورياته، ولا يستغنى أن يكون مفضـالاً مطعامـاً ليستميـل بذلك الأعناق ويكون مشكوراً بكل لسـان ، والرفق والأنـاة والتثبت في الأمور والحلم والوقـار والتمكن ونفـاذ القول مما لابد منه».

ولم تكن الملوك تستوزر إلا الكامل من كتابها والأمين العفيف من خاصتها والناصح الصدوق من رجالها ومن تأمنه على أسرارها وأموالها وتثق بحزمه وفضل رأيه وصحة تدبيره في أمورها.[٢]

أما ملوك بني العباس فقد كانوا يختارون وزرائهم وفقاً لصفات رفيعة وشروط دقيقة، فهذا هو المامون يصف الشخص الذي أراده لوزارته قائلاً : «إني التمست لأموري رجلاً جامعاً لخصال الخير ذا عفة في خلائقه واستقامة في طرائقه قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب إن أوتمن على الأسرار قام بها وإن قلد مهمتا الأمور نهض. يسكته الحلم وينطقه العلم وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة له صولة الأمراء وأناة الحكماء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء إن أحسن إليه شكر وإن ابتلي بالاساءة صبر لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده يسترق قول الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه».[٣]

وقد جمع أحد الشعراء هذه الصفات وأوجزها ووصف بها وزراء الدولة العباسية قائلاً :

بديهتـه وفكرتـه سـواء	إذا اشتبهت على الناس الأمور
وأحزم ما يكون الدهر يومـاً	إذا أعيـا المشـاور والمشيـر
وصـدر فيه للهـم اتسـاع	إذا ضاقت مـن الهم الصـدور [٤]

---

(١) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٥٢ - ١٥٣.

(٢) المسعودي : التنبيه والإشراف، ص٢٩٤.

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص٣١.

(٤) الماوردي : أدب الوزير، ص١٨.

ولعل الملوك معذورون في دقتهم لاختيـــار وزرائهم ذلك لأن صلاح الملك يتوقف على صلاح الوزراء. وقد قال الحكماء : « إن السلطان إذا كان صالحاً ووزرائه وزراء ســوء امتنع خيــره مــن الناس ولم ينتفع منه بمنفعة، وشبهوا ذلك بالماء الصافي يكــون فيه التمســـاح فلا يستطيع أحــد أن يدخله وإن كـــان محتاجاً إليه».[1]

كما قالوا : أفضل عُدد الملوك صلاح الوزراء الكفاة لأن في صلاح الوزراء صلاح قلوب الرعية.[2]

وكما سيتضح أن جميع وزراء الدولة العباسية في العصر الأول تم اختيارهم لصفاتهم الرفيعة وشخصياتهم البارزة في الدولة. وهناك من تم اختياره - بالإضافة إلى الصفات الرفيعة - مكافأة له على جهد بذله في تكوين الدولة كالسبب في اختيار حفص بن سليمان وخالد البرمكي أو عون قدمه لشخص الخليفة كالحال مع المورياني ويحيى بن خالد البرمكي.[3]

---

(١) الطرطوشي : سراج الملوك، ص٧٠.

(٢) النويري : (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب) : نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م، ص٩٢.

(٣) سيرد الإشارة إلى ذلك في المكان المخصص له من هذا الفصل.

٣- مهام الوزراء

المهام التي يقوم بها الوزراء كثيرة وأعباؤهم ثقيلة ، ويكفينا دليلاً على ذلك أن أحد الأباطرة الفرس قال لوزيره : « أعلم أن الوزارة مرة وليست حلوة ».[١]

فالوزير هو ساعد الخليفة الأيمن. مهمته مساعدة الخليفة وتقديم النصح والإرشاد له، وقد قال الحكماء: « لا ينفع الوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة.[٢]

ومن مهام الوزير الإشراف الكامل على دواوين الدولة، والتي من أهمها ديوان الرسائل حيث كان الوزير يتولى النظر في الكتب التي تنفذ إلى الولاة في أقاليم الدولة، وهذه المهمة يؤكدها قول ابن خلدون [٣] « جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ».

أيضاً من الدواوين التي يتولى الإشراف عليها الوزير ديوان الجند، حيث كان له النظر في الشئون الحربية من تعيين القواد وتزويد الجيش بالسلاح والمؤن، وبذلك أصبح جامعاً للسلطتين الحربية والمدنية أي أنه جامع لخطتي السيف والقلم.[٤] وعلى هذا الجمع بين الخطتين لقب المامون وزيره الفضل بن سهل بذي الرياستين أي رياسة الحرب والتدبير.[٥]

ومن الدواوين أيضاً ديوان الخراج. فقد كان الوزراء يتحكمون في مصادر المال وأوجه إنفاقه. فهذا عمر بن مطرق كاتب الرشيد عمل تقديراً للخراج وعرضه على يحيى البرمكي وزير الرشيد وهو ما يحمل إلى بيت المال من الأمتعة والأموال.[٦] أيضاً مهمة الوزير النظر في أمور الناس ، وقد كان يحيى البرمكي وأولاده يجلسون جلوساً عاماً في كل يوم إلى انتصاف النهار ينظرون في أمور الناس وحوائجهم لا يُحجب أحد منهم .[٧]

وقد روى أن جعفر بن يحى البرمكي فصل في يوم واحد في أكثر من ألف قضية ووقع فيها توقيعات موجزة، وبعد النظر فيها تبين أن واحداً من تلك الأحكام لم تنتقص وأن واحداً منها لم يكن ضد الإسلام.[٨]

أيضاً من مهام الوزراء تعيين الولاة ، إلا أن تعيينهم عن طريق الخليفة أكثر ثباتاً من تعيين الوزير نظراً لتعرض الوزير نفسه للعزل مما يترتب عليه عزل من يعينه.

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص٢٤.
(٢) ابن عبده ربه : العقد الفريد، ج١، ص٣٢.
(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ج٢، ص٦٠٦.
(٤) نفس المصدر، ج٢، ٦٠٦ - ٦٠٧.
(٥) الجهشباري : الوزراء والكتاب، ص٣٠٥.
(٦) نفس المصدر : ص٢١٨.
(٧) نفس المصدر : ص١٧٧.
(٨) أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبدالله الظاهري)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٢، القاهرة، ١٩٣٠م، ص١٢٣.
(٩) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص٢٥.

المبحث الأول

الوزارة في خلافة أبي العباس عبدالله بن محمد السفاح

ا - وزارة حفص بن سليمان الخلال

أول وزير وزر لأول خليفة عباسي هو حفص بن سليمان الخلال [١] وقيل في تلقيبه الخلال ثلاثة أوجه . أحدها أن منزله بالكوفة قريباً من محلة الخلالين ، وكان يجالسهم [٢] فنسب إليهم كما نُسب الغزالي إلى الغزاليين كما نسب الخلال إلى الخل. أما الوجه الثالث في نسبته فيرجع إلى خلل السيوف هي جفونها وكانت العرب تسمي من يعملها الخلال واستشهد في ذلك بقول الشاعر :

أخلـــق الدهـــر بجـــوطلاً ** مثـل مـا أخلق سيـــف خِللا [٣]

كان الخلال مولى لبني الحارث بن كعب - فهو ليس عربياً إنما هو أعجمي - كان من مياسر أهل الكوفة وينفق ماله على رجال الدعوة. [٤]

وسبب صلته ببني العباس ترجع إلى أنه كان صهر بكر بن ماهان وكان بلد بني ماهان هذا كاتباً خصيصاً لإبراهيم الإمام ، فلما أدركته الوفاة قال لإبراهيم الإمام : إن لي صهراً بالكوفة يقال له أبي سلمة جعلته عوضاً عني في دعوتكم. [٥]

فكتب إبراهيم الإمام لأبي سلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه، وكتب إلى أهل خراسان إنه قد أسند أمرهم إليه. فمضى أبو سلمة إلى خراسان وقبلوا أمره ودفعوا إليه خمس أموالهم ونفقات الشيعة. [٦]

ظلّ الخلال كاتباً لإبراهيم الإمام حتى ظفر مروان بإبراهيم الإمام ، وحبسه، عندها علم إبراهيم أنه لا نجاة له من مروان لذلك خاف على أهل بيته فولى أبا العباس عهده وعقد له بالخلافة من بعده، وأمره بالمسير

---

(١) المسعودي : مروج الذهب، ج٣، ص ٢٨٤، ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٥ ، ص ١١٣. ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص١٥٣.

(٢) ابن كثير (عماد الدين بن كثير الدمشقي) : البداية والنهاية، ج١٠، بيروت ١٩٦٦م. ص٥٦، ابن خلكان، المصدر السابق ، ج٥، ص١١٦،
ابن طباطبا ، المصدر السابق، ص١٥٣.

(٣) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص١٤.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٥، ص١١٣.

(٥) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص١٤

(٦) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٨٤

إلى الكوفة إلى أبي سلمة، وأمر أهل بيته أن يسيروا مع أبي العباس إلى الكوفة وأن يسمعوا له ويطيعوا ونعى إليه نفسه.[1]

سار أبو العباس متجهاً إلى الكوفة ومعه أبو جعفر أخوه، وداؤد وعبدالله عماه وعيسى بن موسى، وموسى بن داؤد بن علي، ويحيى بن جعفر بن العباس ومعهم جماعة من مواليهم، فلما شارفوا الكوفة وجه أبو العباس بإبراهيم بن سلمة إلى أبي سلمة فأنكر أبو سلمة مقدمهم وقال : «خاطروا بأنفسهم وعجلوا فليقيموا بقصر مقاتل حتى ننظر في أمرنا».[2]

رجع إليهم إبراهيم بذلك. فكتبوا إليه يخبرونه بأنهم في برية ولا يأمنون قصد جيوش الشام لأنهم على ثلاث مراحل منهم . كما سألوه أن يأذن لهم بالدخول إلى الكوفة حذراً منهم فأذن لهم أبو سلمة على كره منه وأنزلهم في دار الوليد بن سعد الجمال مولى بني هاشم ، وكتم أمرهم حوالي شهرين من جميع الشيعة والقواد.[3]

كان أبو سلمة قد عزم على العدول عن بني العباس إلى بني عليّ عليه السلام ، فأقام بحمام أعين وفرق عماله على السهل والجبل ، وصارت الدواوين بحضرته والكتب تنفذ منه وترد عليه.[4]

وما أن صحّ عنده موت إبراهيم الإمام حتى لقي رجالاً من الشيعة وناظرهم على نقل الأمر إلى ولد عليّ رضي الله عنه ، وكتب إلى ثلاثة نفر ليعقد الأمر لأحدهم. وهؤلاء الثلاثة هم جعفر بن محمد وعبَدالله بن الحسن وعمر بن علي الحسن.[5]

أرسل أبو سلمة الكتب مع رجل من مواليهم وقال له : أقصد أولاً جعفر بن محمد الصادق فإن أجاب فأبطل كتاب الآخرين وإن لم يجب فألق عبدالله فإن أجاب فأبطل كتاب عمر وإن لم يجب فألق عمر.[6]

ذهب الرسول إلى جعفر بن محمد ودفع إليه كتاب أبي سلمة فقال : مالي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري فقال له الرسول : اقرأ الكتاب فقال جعفر الصادق لخادمه أدني السراج مني فأدناه فوضع جعفر الكتاب على النار حتى احترق فقال الرسول : ألا تجيبه؟ قال : قد رأيت الجواب.[7]

---

(١) ابن الأثير (أبو الحسن بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم) : الكامل في التاريخ، ج٥، بيروت، ١٩٦٥م، ص٤٠٩.
(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٣، ٤، ابن الأثير، المصدر السابق، ج٥، ص٤٠٦.
(٣) الطبري : المصدر السابق، ج٧، ص٤٢٣، الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٨٥.
(٤) ابن الأثير : المصدر السابق، ج٥، ص٤٠٩، الجهشياري، المصدر السابق، ص٨٥-٨٦.
(٥) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٥٤، الجهشياري، المصدر السابق، ص٨٦.
(٦) الجهشياري : المصدر السابق، ص٨٦، ابن طباطبا، المصدر السابق، ص١٥٤- ١٥٥.
(٧) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٥٦٨ - ٥٦٩.

ذهب الرسول بعد ذلك إلى عبدالله بن الحسن الذي قبل الكتاب فحذره ابن محمد الصادق من عاقبة القبول وأخبره أن أهل خراسان ليس بشيعة، وأن أبا سلمة مخدوع فيهم ومقتول لا محالة، وأشار عليه بأن لا يقبل ذلك الأمر فنازعه عبدالله حتى اجترأ على جعفر وهو أكبر منه وقال له : والله ما يمنعك من ذلك إلا الحسد. فرد عليه جعفر : والله ما هو إلا نصح مني لك وقد كتب إلي أبو سلمة بمثل ما كتب به إليك فلم يجد رسوله عندي ما وجد عندك ولقد أحرقت كتابه من قبل أن اقرأه.[1]

أما عمر بن زين العابدين فإنه رد الكتاب وقال : أنا لا أعرف صاحبه حتى أجيبه.[2]

وبينما كان أبو سلمة في تلك المحاولات لنقل الدولة إلى العلوية ارتاب أهل خراسان بأبي سلمة وتكلموا وقالوا : يا أبا سلمة مالك خرجنا من قعر خراسان ولا إليك دعونا وما أنت لنا بإمام.[3]

وإذا هم في ذلك الأمر خرج محمد بن إبراهيم الحميري - ويُكنى أبا حميد السمرقندي - يريد الكناسة فلقى سابقاً الخوارزمي وهو غلام أهدوه لإبراهيم الإمام، فسأله أبو حميد عن الخبر فأخبره وصار إلى أبي العباس وأهل بيته ، فلما دخل أبو حميد عليهم سأل عن إبراهيم الإمام فأخبروه بوفاته ، فعزاهم عنه وسألهم عن ابن الحارثة فأشاروا إلى العباس فسلم عليه بالخلافة وقبّل يده ورجله وبايعه. وسألهم عن سبب مقامهم هنا فأعلموه أن أبا سلمة أنزلهم تلك الدار نحواً من شهرين - وأخيراً بايع القوم جميعاً أبا العباس.[4]

كان أبا سلمة في ذلك الوقت مشغولاً بأمره وبأمر العسكر في خراسان ومنتظراً أوبة رسوله من حضرة العلويين فخرج أبو العباس وأهل بيته من الدار التي حبسوا فيها نحواً من شهرين ونزلوا قصر الإمارة، فلما علم أبو سلمة بذلك وجد نفسه أمام الأمر الواقع وأنه لابد له من حسن السياسة حتى يسلم من ذلك، وحتى لا ينجلي الأمر عن غضب العباسيين عليه، فسار إلى دار الإمارة في جماعة من أصحابه فأغلق الباب دونه فاستفتح أصحاب أبي سلمة الباب وقالوا وزير آل محمد فأسمعوه بعض ما يكره فقال أبو حميد : افتحوا له حتى يريه الله ما يرغم أنفه. فدخل أبو سلمة فاستقبل القبلة ثم سلم وقبّل يد أبي العباس وقدميه، وبدأ في

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٢٦٩.

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٥٥.

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٤٢٤، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٨٦.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٥، ص٤١٠، المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٢٧٠، الطبري، المصدر السابق، ج٧، ص٤٢٤، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٨٧.

الاعتذار فقال له أبو العباس : عذرناك يا أبا سلمة غير مفند وحقك لدينا معظم وسابقتك في دولتنا مشكورة وذلتك مغفورة، انصرف إلى معسكرك لا يدخله خلل.[1]

كانت مدة تقليد أبي سلمة الأمور منفرداً بها إلى أن ظهر أمر الشعية حوالي شهرين ونصف.[2]

وبالرغم من أن السفاح قد دخل في نفسه شيء من أبي سلمة لأنه كان يحاول رد الأمر عنهم إلى غيرهم، إلا أن حسن السياسة وحزم التدبير جعلته يتقاضى عن سيئات أبي سلمة، لذلك نجده ما إن تولى الخلافة في رجب سنة ١٣٢هـ - ٧٤٩م حتى استوزره وفوّض إليه الأمور وسلم إليه الدواوين ولقب وزير آل محمد. وفي النفس أشياء.[3]

إذن محاولة أبو سلمة في رد الأمر عن العباسيين أوغرت في صدر السفاح وجعلته يهم بقتل أبي سلمة إلا أن عمه داؤد بن علي قال له : « لا آمن عليك أبا مسلم إذا فعلت أن يستوحش ولكن أكتب إليه فعرفه ما كان من أبي سلمة في ذلك.[4]

فما كان من أبي العباس إلا أن كتب إلى أبي مسلم كتاباً يعلمه فيه بما عزم عليه أبو سلمة من نقل الدولة عنهم ويقول له : « إني وهبت جرمك لك» وباطن الكتاب يقضي بقتل أبي سلمة، وأرسل الكتاب مع أخيه المنصور.[5]

خرج أبو جعفر عن أمر أخيه السفاح إلى أبي مسلم الخراساني . قال أبو جعفر : فلما وصلت مرو نزلت في داره ثلاثاً فلم يسألني في أي شيء جئت، فلما كان من اليوم الرابع سألني : ما أقدمك؟ فأخبرته الخبر فقال لي : أفعلها أبو سلمة؟ أنا أكفيكموه.[6]

كما واضح فقد فطن أبو مسلم لأمر السفاح فما كان منه إلا أن دعا بمرار بن أنس الضبي قائلاً له: «اذهب إلى الكوفة وحيث لقيت أبي سلمة فاقتله.[7]

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٥، ص٤١١، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٨٧.
(٢) الجهشياري : المصدر السابق، ص٨٧.
(٣) الدينوري : (أبو حنيفة أحمد بن داؤد) : الأخبار الطوال ، تحقيق: عبدالمنعم عامر، بغداد، ١٩٦٠، ص٣٧٠.
(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٣٧٦، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٤٤٩، الجهشياري، المصدر السابق، ص٩٠.
(٥) ابن الأثير : المصدر السابق، ج٥، ص٤٣٦.
(٦) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٥٤.
(٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٤٤٩.

وقبل قتله بثلاثة أيام أرسل أبو مسلم منادياً في الكوفة أن أمير المؤمنين قد رضي عن أبي سلمة. ثم دعاه قبل قتله بيوم فخلع عليه وكان يسمر عنده فخرج ليلته تلك يريد الانصراف إلى منزله ، وقد كمن إليه المرار بن أنس الضبي وأسيد بن عبدالله فقتلاه.[1]

ولما اتصل خبره بالسفاح أنشد يقول :

إلى النار فليذهب ومن كان مثله ** على أي شيء فأتنا منه نأسف[2]

ويعتبر أبو سلمة أول وزير يقتل في الإسلام، كما كان أول من وقع عليه اسم الوزير.[3]

وقد قال فيه الشعراء بعد حادثة قتله :

إن الوزير وزير آل محمد ** أودى فمن يشناك كان وزيرا

إن السلامة قد تبين وربما ** كان السرور بما كرهت جديراً[4]

وهناك رواية أخرى وردت في قتل أبي سلمة ويقول المسعودي[5] : إن أبو مسلم كتب إلى السفاح يشير عليه بقتل أبي سلمة ويقول له : قد أحل الله لك دمه لأنه نكث وغيّر وبدّل فقال له السفاح : ما كنت لأفتتح دولتي بقتل رجل من شيعتي لا سيما مثل أبي سلمة وهو صاحب هذه الدعوة وقد عرض نفسه وبذل مهجته وأنفق ماله وناصح أمامه وجاهد عدوه.

فكتب أبو مسلم إلى جعفر أخوه وداؤد بن علي عمه يسألهما أن يشيرا على السفاح بقتل أبي سلمة فقال لهما السفاح : ما كنت لأفسد عظيم بلائه وكثير سلطانه وصالح أيامه بذلة كانت منه هي خطرة من خطرات الشياطين وغفلة من غفلات الإنسان فقال له : يا أمير المؤمنين يجب أن تحترس منه فإنا لا نأمنه عليك فقال : « كلا إني لآمنه في ليلي ونهاري وسري وجهري ووحدتي وجماعتي ».[6]

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٣ج، ص٣٧٦. المسعودي : مروج الذهب، ج٣، ص٢٨٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٥٤، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص٤٣٦.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٥، ص١١٦، المسعودي، المصدر السابق، ج٣، ص٢٨٥، ابن كثير، المصدر السابق، ج١٠، ص٥٦.

(٣) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص٥٦.

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٤٥٠، ابن خلكان، المصدر السابق، ج٥، ١١٦، الدينوري : الأخبار الطوال، ص٣٧٠، المسعودي، المصدر السابق، ج٣، ص٢٨٥، ابن كثير، المصدر السابق، ج١٠، ص٥٤، ابن الأثير، المصدر السابق، ج٥، ص٤٣٦.

(٥) المصدر السابق، ج٣، ص٨٤.

(٦) ابن خلكان : المصدر السابق، ج٥، ص١١٥، المسعودي، المصدر السابق، ج٣، ص٢٨٤.

لما اتصل هذا القول من أبي العبـــاس بأبي مسلم خاف من ناحية أبي سلمة فوجه إليه بمرار بن أنس الضبي، وكان أحـــد قواده قائلاً له : انطلق إلى الكوفـــة وأخرج أبا سلمة من عند الإمام أبي العباس وأضرب عنقه.[1]

مهما اختلفت الروايات فإن أبا سلمة قد قُتل وكان مقتله عند منصرفه من مجلس السفاح، وأن السفاح سره أن يتخلص منه ، وكان ذلك في رجب سنة ١٣٢هـ - ٧٤٩هـ.[2]

وكان مقتله بالأنبار بعد ولايته بأربعة أشهر [3] وصلى عليه يحيى بن محمد بن علي أخ أمير المؤمنين ودفن بالهاشمية.[4]

ويظهر أن الأمر الذي جعل السفاح يقرب أبا سلمة إليه هو ما اتصف به أبو سلمة من صفات جميلة. فقد كان أبو سلمة سمحاً كريماً فصيحاً عالماً بالأخبار والأشعار والسير والتفسير.[5]

كما كان أبو سلمة ذا هيبة فاضلاً حسن المفاكهة يأنس به السفاح ويحب مسامرته لطيب محاضرته.[6]

كما يذكر الجهشياري [7] أن أبا سلمة كان مطعاماً يطعم أصحابه غداء وعشاء، وكان يتأنف في السلاح والدواب ولا يتأنق في ثوبه.

---

(١) الدينوري : الأخبار الطوال، ص٣٧٠، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١١٥، المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٢٨٥.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٤٤٩، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٩٠، ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، بيروت ١٣٥٠هـ، ص١٩١.

(٣) الطبري : المصدر السابق، ج٧، ص٤٥٠، ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٥٦.

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٣٣٧.

(٥) ابن خلكان : المصدر السابق، ج٥، ص١١٤.

(٦) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص٥٦، ابن خلكان، المصدر السابق، ج٥، ص١١٤.

(٧) المصدر السابق، ص٨٦.

٣- وزارة خالد بن برمك

هو خالد بن برمك جد البرامكة [١] ففي تلك الأيام نبعت الدولة البرمكية التي تقلد أفرادها منصب الوزارة في زمن هارون الرشيد وإمتدت وزارتهم إلى أن نكبهم الرشيد في سنة ١٨٧هـ- ٨٠٢م. [٢]

بدأ اتصال خالد بن برمك بالإسلام والمسلمين في أواخر الدولة الأموية حيث كان يعمل في جيش قحطبة بن شبيب يتقلد خراج كل ما افتتحه من الكور وتقلد الغنائم وقسمها بين الجند فكان يقال : إنه ما من أحد من أهل خراسان إلا وخالد عليه يد ومِنة لأنه قسط الخراج فأحسن فيه إلى أهله. [٣]

لم يكن خالد بن برمك مع قحطبة يتولى الخراج فحسب، ولكنه كان ذا رأي مطاع لخبرته وفطنته وذكائه، فقد حدثوا أنه كان يوماً مع قحطبة بن شبيب على سطح قرية من القرى التي استولى عليها، وكانوا يتغدون فنظر خالد فرأى أقاطيع الوحش من الظباء والبقر أقبلت نافرة وخالطت العسكر ، فلما رآها فعلت ذلك - وطبعها إن تنفذ من العسكر - علم أنها لم تخالطه إلا لشيء وراءها أعظم مما دخلت فيه، فبادر خالد إلى قحطبة أمير الجيش وقال : أيها الأمير قد أتينا وجيوش العدو قريبة منا ، فمر من ينادي بالسلاح ففعل قحطبة ذلك ولم يمض من الزمن إلا قليل فكان ابن ضبارة وجيشه وفدوا عليهم. [٤]

ولما أتاهم جيش ابن ضبارة لم يكن بينهم قتال كثير حتى انهزم ابن ضبارة ودخل عسكره وتبعه قحطبة في المعسكر فنزل ابن ضبارة ونادى إليّ، إلا أنه انهزم وقُتل. [٥]

لم تقف فطنة خالد بن برمك وذكاؤه في هذا الحد بل يذهب إلى أبعد من ذلك بصحة رأيه وتفكيره، ويبدو ذلك واضحاً بعد مقتل ابن ضبارة حين أراد قحطبة أن يرسل رأس ابن ضبارة إلى أبي مسلم فأرسل إليه برأس غير رأس ابن ضبارة ظناً منه إنها رأسه، ولكنه لم يلبث أن تعرف على رأس ابن ضبارة بنقش خاتمه،وهمّ أن يرسله إلى أبي مسلم بدل الرأس الأول، إلاّ أن خالداً منعه بصحة رأيه لأنه إن فعل ذلك أبطل الأول والثاني. [٦]

---

(١) ابن طباطبا : الفخر في الآداب السلطانية، ص١٥٦.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٧٥، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٨٧.

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٣٧٨.

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٨٨.

(٥) الطبري : المصدر السابق، ج٧، ص٤٠٦.

(٦) الجهشياري : المصدر السابق، ص٨٨.

إذن فقد كان لخالد بن برمك شأن في الحروب التي انتهت بالقضاء على بني أمية بفضل بصيرته النافذة وذكائه النادر.

ولما عقدت البيعة للسفاح حضر خالد بن برمك لمبايعة السفاح ، وعندما رأى فصاحته وبلاغته توهمه من العرب، وقال له : ممن الرجل؟ فقال له خالد : مولاك خالد بن برمك وقصّ عليه قصته وقال : أنا كما قال الكميت بن زيد :

فمالــي إلا آل أحمد شيعـــة ** ومالي إلا مشعــب الحق مشعـب

فأعجــب به السفاح وخف على قلبه واستوزره، وكان لا يسمى وزيراً لأن كل من استوزر بعد أبي سلمة لا يسمــى وزيــراً تطيراً لما جــرى لأبي سلمة، فخالد هــذا كان يعمل عمل الوزراء إلا أنه لا يسمى وزيراً.[1]

كان خالد بن برمك موضع إعجاب الخليفة العباسي لدرجة أن العلاقة بينهما امتدت حتى دفع أبوالعباس ابنته ريطة إلى خالد بن برمك فأرضعتها زوجة خالد وتُدعى أم خالد بنت يزيد بلبان بنت لخالد بن برمك تُدعى أم يحيى وأرضعت أم سلمة زوجة العباس «أم يحى» بنت خالد بلبان ابنتها «ريطة» فصارت بينهما ارتباطات عائلية.[2]

ويقول ابن طباطبا [3] إن السفاح قال يوماً لخالد بن برمك: يا خالد مارضيت حتى استخدمتني ففزع خالد من ذلك القول وقال : كيف يا أمير المؤمنين وأنا عبدك وخادمك ! فضحك وقال : إن ريطة ابنتي تنام مع ابنتك في مكان واحد فأقوم بالليل فأجدها قد سرح الغطاء عنها فأرده عليها. فقبّل خالد يده وقال : مولى يكسب الأجر في عبده وأمته.

ظلّ خالد بن برمك على منزلته عند أبي العباس حتى كان يستشيره فيما جلّ من الأمور ويشكو إليه همه ويعمل برأيه وتدبيره، وفي يوم شكا الخليفة إليه هيبة الجند لأبي مسلم الخراساني، وأنه يخشى من نفوذه فإن له في نفوس الجند منزلة عظيمة يهابونه ويخشونه ويأتمرون بأمره، وينتهون عند نهيه، فأشار عليه خالد بن برمك – وهو صاحب البصيرة النافذة والرأي الحازم – بأن يأمر أبا مسلم بعرض الجند وإسقاط من لم

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٨٩.

(٢) نفس المصدر، ص٨٩.

(٣) الفخري في الآداب السلطانية، ص١٥٦.

كما استعمل المهدي خالد بن برمك في سنة ١٦٣هـ - ٧٧٩م حيث أنفده مع ابنه هرون حيث أغزاه المهدي الصائفة في ذلك العام، فقد قلده كتابته وتدبير أمر عسكره، ففتح خالد عليهم وحسن أثره فيما قام به وأحمد فعله.(١)

كان خالد بن برمك سخياً جليلاً كثير العطاء ، وفي عهده كثر الوافدون على بابه، ومدحه الشعراء، وانتجعه الناس، وكان الوافدون قبل ذلك يسمون سؤالاً، فقال خالد : إني استقبح هذا الاسم لهؤلاء، وفيهم الاشراف والأكابر، فسماهم الزوار، وكان بذلك هو أول من أطلق هذا الاسم عليهم حتى أن بعضهم قال: «أي أيادينا عندك أجَل أصلتنا أم تسميتنا؟.(٢)

وفي ذلك يقول زواره :

حـذا خالد فـي جـوده حـذو برمـك ** فجـود له مستطـرف وأثـيل

وكانوا بنـو الإعدام يـدعون قبلـه ** باسـم فيه علـى الإعـدام دليل

يسمـون بالسـؤال فـي كـل موطن ** وإن كـان فيهـم تافـه وجليـل

فسماهـم الـزوار سترًا عليهـم ** فأستـاره في المجتهدين دليـل (٣)

وسار خالد بن برمك في الكرم إلى أبعد من ذلك حتى أنه كان يقال : لم يكن يرى لجليس خالد دار إلا وخالد بناها له، ولا ضيعة إلا وخالد إبتاعها له، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمة أو أدى مهرها إن كانت حرة ولا دابة إلا وخالد حمله عليها من نتاجه أو من غير نتاجه.(٤)

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٥١.

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٥٧.

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٥٠.

(٤) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص١٥٧، الجهشياري، المصدر السابق، ص١٥٠.

المبحث الثاني

الوزارة في خلافة أبي جعفر المنصور

١- وزارة سليمان بن مخلد

اسمه سليمان بن مخلد وكنيته أبو أيوب، فارسي الأصل ، وهو من قرية من قرى الأهواز يُقال لها الموريان.[١]

كان المنصور قد اشتراه صبياً قبل الخلافة وثقفه ، وقيل إنه أرسله مرة إلى أخيه السفاح وهو خليفة وأرسل معه هدية، فلما رآه السفاح أعجبته هيئته وفصاحته فقال له : يا غلام لمن أنت؟ فقال له سليمان: لأخي أمير المؤمنين. قال السفاح : لا بل أنت لي. واحتبسه عنده وكتب إلى المنصور يعلمه أنه قد أخذه وأعتقه واختص به السفاح مدة خلافته.[٢]

تعلم المورياني العلوم كلها، الطب، والنجوم، والحساب، والكيمياء ، وحتى السحر، وكان له في كل علم نظر إلا الفقه فهو يقول : ليس من شيء إلا وقد نظرت فيه إلا الفقه فلم أنظر فيه قط، وقد نظرت في الكيمياء والطب والنجوم والحساب والسحر.[٣]

زيادة على ذلك فقد كان المورياني كريماً يحدث بكرمه، فقد حدث يوماً أن أحد الرجال ويُدعى إبن شبرمة قد استعصى عليه صداق ابنه الذي كان مقداره ألفي درهم، فذهب ذلك الرجل إلى المورياني وأخبره بما يحتاج إليه من المال لزواج ابنه. فأمر له المورياني بألفي درهم للصداق، وألفي درهم أخرى للنفقة، وألفي درهم أخرى للخادم، وألفي درهم للبيت، فما زال يأمر له في كل مرة بألفين حتى صار ما أمر له به خمسين ألف درهم.[٤]

وقد كان أبو أيوب المورياني بصيراً بالأمور جميعها خاصتها وعامتها، غزير المرؤة ظريفاً خفيفاً على القلب متأتياً لما يريده المنصور لذلك أحبه كثيراً وغلب عليه حتى قلده الدواوين مع الوزارة، فما كاد

---

(١) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، ص٢٣٦.

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٧٥.

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٩٧.

(٤) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص١٧٥.

المورياني يتولى الوزارة والدواوين حتى جاء بأهله وصرفهم في الأعمال فعزل من عزل من غير أهله، ثم ولى من ولي من أهله، ونال أكثرهم من الدنيا ونعيمها حظاً وافراً حتى أن العامة كانت تقول : إن المورياني قد سحره واتخذ دهناً يمسحه على وجهه إذا أراد الدخول عليه، وضرب المثل بدهن أبي أيوب.[١]

وبلغت محبة المنصور للمورياني واختصاصه به أن أم سليمان الطليحة اتخذت لأبي جعفر المنصور مجلساً في المصيف جعلت فيه الرياحين وجلبت له سائر الطيب والثلج. ولما جاء المنصور إلى ذلك المجلس أعجبه برده ولذة حسنه إلا أن ذلك الإعجاب وتلك اللذة لم يبلغا من نفسه المبلغ الذي يرجوه، لأن أبا أيوب غائب عن مجلسه فأخبر أم سليمان بأنـه لم ينتفع بما في هذا المجلس من جمال وحسن، لأن أبا أيوب ليس معه يحدثه ويؤنسه. فبعث أم سليمان إليه من يحضره إلى المنصور فلما حضر إليه فما كاد يراه الخليفة حتى تهلل وصاح بـه « يا أبا أيوب كما رأيت طيـب هذا المكان ولذته لم أنتفع به حتى تكون معي فيه » فدعا له وقام معه .[٢]

وهناك سبب وجيه وواضح جعل المنصور يحب المورياني كل هذا الحب ويقدره كل هذا التقدير وهو ما رُوي أن عبدالله بن معاوية كان قد غلب على أصبهان وبعض فارس وبعض الأهواز أيام مروان ، فوفد إليه الهاشميون أجمعون من بني علي وبني العباس وغيرهم واستعان بهم عبدالله في أعماله وكان من الوافدين إليه أبو جعفر المنصور فقلده بعض الأعمال فأخذ المنصور المال وحمله إلى البصرة وسار إليها ، وكان عامل على مروان على البصرة قد وضع الأرصاد على كل من يمر من عمال ابن معاوية فقُبض على المنصور وحمل إلى عامل مروان فقال له : « هات المال الذي اختنته» فقال له المنصور : لا مال عندي. فدعا له بالسياط وضرب فقال المورياني - وكان في ذلك الوقت كاتباً لعامل مروان - : أيها الأمير توقف عن ضربه فإن الخلافة إن بقيت من بني أمية فلن يسوغ لك ضرب رجل من بني عبد مناف، وإن صار الملك إلى بني هاشم لم تكن لك بلاد الإسلام بلاداً. فلم يقبل منه ذلك القول وأخذ يضرب المنصور حتى بلغ ما ضربه اثنين وأربعين سوطاً. فلما اتصل ضربه إيـاه قام إليه أبو أيوب فألقى نفسه علـيه ولم يزل يسألـه حتى أمسك عـن ضربه وأمر بحبسه .[٣]

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٦، ص١٩٧، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج١، ص٢٣٦، المسعودي ، مروج الذهب، ج٣، ص٢٩٨، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٩٨.

(٢) الجهشياري : المصدر السابق، ص٩٨.

(٣) اليعقوبي : « أحمد بن يعقوب بن وهب بن واضح» : تاريخ اليعقوبي، ج٣، النجف، ١٣٥٨هـ ، ص١٢٢.

ولهذا الجميل الذي قام به المورياني من حماية ظهر المنصور من ضرب السياط أثر كبير في محبة المنصور له وتقديره إياه وربما قلده وزارته عرفاناً على ذلك الجميل ومكافأة له.

استقام الأمر لأبي أيوب المورياني وبعد توليه الوزارة والديوان قام على تدبير الشئون وعلت منزلته في نفس المنصور وعرف الناس ذلك فأصبحوا له يرجون رضاه ويخشون غضبه ، وأصبح يحترمه الخاصة والعامة حتى أن سفيان بن معاوية قاتل المقفع - وهو ذو مكانة ورياسة وتقدم في قومه - استعان به ليكون نظيره عند المنصور على عيسى بن عليّ. وقد نجح المورياني في حمل الخليفة على العفو عن سفيان بن معاوية، وذلك لمكانته عنده.[1]

بل صار المورياني مقصداً للخاصة والعامة من أهل بيت الخلافة ومن غيرهم. فهذا هو عبدالله بن مروان الذي كان والده مروان بن محمد من خلفاء بني أمية يطلب من المورياني حاجة فيقضيها له ، ويكون شكر المورياني على ذلك تقبيل رأسه. وعندما بلغ المنصور خبر تقبيل عبدالله بن مروان بن محمد لرأس وزيره المورياني قال : الحمد لله. وخرّ ساجداً سجوداً طويلاً. وعندما سأله الربيع حاجبه عن سبب سجوده كشف له ساقه وقال له : إني بدمشق أيام مروان بن محمد إذ رأيت الناس في حركة فقلت : ما هذا؟ قيل لي: إن عبدالله بن أمير المؤمنين يركب وما ركب من قبل. وقد أمر الجند بالزينة وانجفل الناس للنظر فخرجت فيمن خرج، وعندما ازدحم الناس سقطت من دابتي وانكسرت ساقي ومكثت دهراً عليلاً ، وهاهو اليوم يقبل رأس كاتبي. الحمد لله على نعمه وحسن إدالته.[2]

ورغم مكانة المورياني عند المنصور وحبه له إلا أن المورياني كان يهابه هيبة الملوك. ويُحكى أن المورياني كان يجلس مع أصحابه يأمر وينهي وهو في سلطانه، وبينما هو في مجلسه يأتيه رسول أبي جعفر المنصور وهو في مجلسه، فتغير لونه ومضى إليه فعجب أصحابه من ذلك. فلماد عاد إليهم عرف أنهم همسوا بما لحقه من تغير واضطراب حينما أتاه رسول الخليفة فحدثهم في ذلك وضرب لهم مثلاً يجري على ألسنة العامة قائلاً لهم : زعموا أن البازي قال يوماً للديك : ما في الأرض حيوان أقل وفاء منك . قال الديك : وكيف ذلك. قال أخذوك أهلك بيضة فحضنوك ثم خرجت على أيديهم وأطعموك على أكفهم حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت هاهنا وهاهنا وصوّت وأنا أخذت من الجبال كبيراً فعلموني

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٠٧ - ١٠٨.

(٢) نفس المصدر، ص١١٣.

وألفوني ثم يخلى عني فآخذ صيدي في الهواء وأجي به إلى صاحبي. فقال الديك : إنك لو رأيت من البزاة في سفافيدهم [1] المعدة للشيء مثل الذي رأيت من الديوك لكنت أكثر مني نفوراً . وأنتم لو تعلمون ما أعلم مع ما تعلمون من تمكن حالي لم تعجبوا.[2]

كان المورياني موضع استشارة المنصور في كل صغيرة وكبيرة. كما كان هو للمنصور نعم الناصح والمشير، فعندما فكر المنصور في قتل أبا مسلم لم يجد من يستشيره ويستشير له سوى أبي أيوب المورياني فدفعه المنصور يشاور مسلم بن قتيبة قد أمر أبي مسلم. فأشار عليه مسلم بالتجاوز والصفح عن دينه. لكن المنصور أرسل إليه المورياني مرة أخرى فقال له مسلم في المرة الثانية : « لا يصلح سيفان في غمد واحد» ولا يزيد على ذلك . ثم يدخل المورياني على أبي جعفر المنصور وبين يديه كتاب من أبي مسلم فيدفعه إلى المنصور الذي قرأه وقال بعد ذلك : والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنّه . فقد كان المنصور مصمماً على قتل أبي مسلم إلا أنه كان خائفاً من أصحابه. عندما علم أبو أيوب إصرار المنصور على قتله رأى أنه لابد من أن يحتال في قتله حتى لا يحدث ذلك فتنة لأنه يعلم منزلة أبي مسلم في نفوس الناس عامة وأتباعه خاصة، ويعلم أنه لو قتل الخراساني على الوجه الذي يريده المنصور وقع بين الناس تخليط كثير لا يسلم منه هو ولا المنصور. أخذ المورياني يفكر في أمره فرأى أن خير طريقة لقتل الخراساني هي أن يقدم آمناً على نفسه فيكون ذلك أسهل لما يراد منه. أما إذا استقدم نافراً مستوحشاً فقد يكون وراءه شراً مستطيراً، لذلك أرسل المورياني إليه من يأتي به ويعلمه « أن أمير المؤمنين قد عزم أن يوليه ما وراء بابه ويريح نفسه ويتودع» فصدق أبو مسلم ذلك القول وقصر في التحرز والتأهب، فجاء إلى المنصور منخدعاً بما ألقى عليه، ولقى حتفه، ولم يحدث قتله كثيراً مما كان يتوقع.[3]

فقد استطاع المورياني بحسن حيلته وجميل تصرفه ومكره وخبثه أن يريح المنصور من الخراساني الذي أصبح يشكل خطورة على دولته فقتله دون أن يثير قتله أي نوع من الفتنة.

سارت الأمور في الدولة على ما يريد المورياني ونال موقعه فيها وأصبح صاحب القدر الجليل والرأي النافذ إلا أنه بعد ذلك ظهرت أخطاؤه وتتابعت ذلاته وبان خبثه، ويكفينا دليلاً على ذلك موعظة عمرو بن

---

(١) سفافيدهم : جمع سفود وهو ما يشوى به اللحم (الجهشياري ، الوزراء والكتاب، ص١٠٣).

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٦، ص١٩٨، الجهشياري، المصدر السابق، ص١٠٣.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٤٧٤-٤٧٥، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٤٨٦-٤٨٧.

عبيد الذي وعظ المنصور بموعظة طويلة بكى منها المنصور وتوجع لها وخرج من حضرته فلقيه المورياني وقال له: يا أبا عثمان أظنك قد ردعت هذا الرجل ، فقال له عمرو : نعم وقد أعنته على أهل الكوفة وأهل البصرة، وإن استطعت أن تعينه بخير فافعل وكفى بأمه شراً أن تكون أنت المدبر لأمرها.[١]

ولعل من سوء تصرفه في أمور الدولة أنه كان يخلع على المختصين به والمقربين له ثوب النعيم ثم يوليهم الأعمال التي تدر عليهم رزقاً واسعاً من أهله وذوي قرابته، فهذا صديق نصراني كان جاراً للمورياني رقيق الحال يوليه المورياني بعض الأعمال التي يصيب منها مالاً كثيراً يجعله يبتاع لنفسه سمكة واحدة بثلاثين درهماً لتكون طعاماً له ، وكان هذا الرجل فرداً ليس له أهل ولا أولاد. وعندما علم المنصور بقصة هذا الرجل أحضره وسأله عن ماله وعن الطريقة التي حصل بها على المال ، فعرف منه المنصور أنه كان جاراً للمورياني وأنه رقيق الحال فولاه المورياني ذلك العمل فأصاب منه عشرات الألوف من الدراهم ، فلم يرض المنصور بأن يترك له ذلك المال، ولكن أخذه منه ورده إلى بيت المال، لأنه اختانه من مال المسلمين.[٢]

هذا التصرف السيء في أموال الدولة يتعارض مع ما عرف عن المنصور من أنه كان مبخلاً شديد البخل يضرب بشحه الأمثال، وقد كان يبخل حتى يُقال أنه أبخل الناس.[٣]

بل بلغ المورياني في التصرف بأموال الدولة إلى أبعد من ذلك، فقد حُكي أن أهوازي طلب منه أن يعيره اسمه ليجعله على ضيعته خوفاً من العمال في مقابل أن يحمل إليه كل سنة مائة ألف درهم، فقال له المورياني : قد وهبتك اسمي فافعل ما بدأ لك. وخرج الرجل من عند المورياني، ولما حال الحول حضر إليه الرجل وأحضر معه المال ودخل على المورياني وهو لا يعرفه، وجلس الرجل إلى أن خف الناس ثم دنا منه وقصّ عليه القصة وأعطاه المال .وخرج الرجل شاكراً وداعياً له. وأخذ أبو أيوب المال وأخذ يبكي فقال له أهله والحاضرون : ما رأينا موضع سرور وفرح يعقب بكاء وحزن غير هذا. فقال لهم : ويحكم إن شيئاً بلغ هذا من إقباله كيف يكون إدباره.[٤]

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١١٦.

(٢) نفس المصدر، ص١١٤.

(٣) المسعودي : التنبيه والإشراف، ص٢٩٦.

(٤) الجهشياري : المصدر السابق، ص١١٨.

كثرت زلات المورياني ولم تقف عند حد. واستمر في مكره وخداعه للمنصور ، فكان يجمع المال ويتقرب به إلى المنصور إذا خاف منه فقال له المنصور يوماً : ما ترى حال صالح ابني ليست له ضيعة؟ فقال له أبو أيوب : يا أمير المؤمنين بالأهواز مزارع كثيرة عاطلة تحتاج إلى ثلاثمائة ألف درهم لإصلاحها. فأمره المنصور بعمارتها لابنه صالح. وأخذ المورياني ذلك المال ولم يعمل فيها شيء وصار في رأس كل سنة يحمل إليه عشرون ألف درهم ويقول له هذا حاصل الضيعة.(١)

ويرجع ابن طباطبا (٢) السبب في هذا التصرف من جانب المورياني هو أن الرخاء قد عمّ البلاد ورخصت الأسعار فطمع المورياني في أن يستغل هذه الحالة ليكسب من ورائها ربحاً وفيراً، فسولت له نفسه بأن يشتري طعام سواد الكوفة وسواد البصرة طمعاً في الربح فاشتراه وحدد المنصور عليه بتلك الوائيق إلا أن الأسعار ظلت ترخص والمنصور يطالبه بالمال الذي تعهد به فكان يدفع من ماله الخاص حتى تحمل شيئاً كثيراً من الخسارة، فلما أراد أن يعوض بعض ما خسره فلجأ إلى تلك الحيلة.

ولم يتمكن المورياني من كتمان سر الأموال التي دفعها إليه المنصور، فقد أفضى بهذا السر إلى الربيع بن يونس الذي بادر في الحال بإبلاغ المنصور، كما حثه على زيارة الضيعة بنفسه فقال لأبي أيوب: إني أحب أن أزور الأهواز وأن أرى ضيعة صالح ، فانحدر المنصور بنفسه إلى هناك، وكان أبو أيوب قد أمر بأن تبنى البيوت على جانبي الشط ويغرس فيها كرم ويخضر حواليها، فلما فعل ذلك واجتاز المنصور بالضيغة قال له المورياني : هذه هي الضيعة، وكاد أن يشتبه الأمر على المنصور، إلا أن أعداء المورياني قد أعلموه صورة الحال وأطلعوه على حقيقة الأمر وطلبوا منه البقاء إلى أن ينحسر الماء وتجف الأرض ليرى الضيعة، فوافق المنصور على ذلك.(٣)

وفي أثناء مقامه بالأهواز منتظراً جفاف الضيعة والتأكد من صحة الأمر، اشتهى المنصور سمكاً طرياً فقال له المورياني : يا أمير المؤمنين أنت تعلم إني أهوازي سمكي ولنا عجائز يحسن صنع السمك، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فأهيئه له. فأظهر المنصور القبول لذلك الأمر وأمر له في إتخاذه، فمضى المورياني لذلك. وبعد قليل نهض المنصور من مجلسه ودعا الربيع بن يونس ليصب له الماء ويغسل به وجهه. قال

---

(١) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٧٦.

(٢) نفس المصدر، ص١٧٦.

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب،ص١١٩

الربيع : فبينما أنا أصبه له إذا رُسل المورياني قد دخلوا عليه بشيء كثير من السلال فيها ضروب من الأكل وصنوف من السمك البارد والحار ، وقد اتخذ ضروباً من الصنعة فقلت له : أنت تعلم يا أمير المؤمنين إني غير مستبطيء على سليمان وإنه مني لعلي صداقة ومودة، ولكن أمير المؤمنين آثر عندي من نفسي، وقد فطن المورياني ما يريده أمير المؤمنين به فهل يأمن أمير المؤمنين أن يكون قد دسّ له في هذا الطعام شيئاً؟ فصدق المنصور كلامه ودعا بطعام آخر.[1]

كل هذه التصرفات من المورياني حطت من منزلته عند المنصور، ولم يشفع له ما كان متصفاً به من ظرف ولباقة وحسن تأتٍ للأمور، فإنه حين أراد قتل المورياني قال له «يا خوزي [2] أكنت آمناً من أن يطلع أمير المؤمنين على خيانتك فيكون جزاؤك في العاجل إراقة دمك واستباحة نعمتك وفي الآجل حلول دار الفاسقين ومأوى الظالمين؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن للتهم فلتات ترجع بالندم، ولك من رسول الله ﴿ﷺ﴾ عدل السياسة وشرف القرابة فأقلني. فقال له : « لا يسعني من عظيم جرمك وجليل ذنبك إقالتك ولا العفو عنك» فحبسه المنصور وحبس أخاه وبني أخاه مخلد ومسعود وطولبوا بالأموال وعذبوا وضيق عليهم فمات هو وأخوه سنة ١٤٥هـ - ٧٦٢م ثم أمر المنصور بعد ذلك بقتل بني أخيه فقتلوا.[3]

وقد قال الشعراء في نكبتهم :

قـد وجـــدنا الملـوك تحســـد	من أعطتــه طوعـــاً أزمة التدبيـر
فإذا ما رأوا له النهـي والأمـر	أتـــوه مـــن بأسهـــم بنكيــــــر
شرب الكأس بعــد حفص ابـن	سليمان إذا دعوه من بعدها بالأمير
ونجـا خالــد بن برمــك منهــا	إذ دعـــوه من بعــدها بالوزيــــر
أسوأ العالمــين حـــالاً لديهـم	من تسمـى بكاتـــب أو وزيــــر [4]

وقال شاعر آخر :

فاتق الله وأرض بالقصد حظـاً	وتباعـــد عن موبقـــات الذنـوب
قـــد رأيت الذي أزالـت ونالـت	وقعـــة الدهر مـن أبـي أيـــوب [5]

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب،ص١٢٠

(٢) يا خوزي : نسبه إلى خوزستان. بضم الخاء المعجمة وسكون الواو وكسر الزاي وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناه وبعد الألف نون ابن خلكان، وفيا الأعيان، ج٣، ص٥.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٠، ص١٠٩.

(٤) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٧٦.

(٥) الجهشياري :المصدر السابق، ص١٢١.

١- وزارة الربيع بن يونس

هـو أبـو الفضل الربيع بن يونـس بن محمد بـن كيسان بن أبي فروة ، وجده أبو فروة مولى عثمان بن عفان.[١]

يُقال إن الربيع بن يونس «لقيط» لذلك قال يوماً لرجل كرر الترحم على والده في حضرة المنصور : كم تكرر ذكر أبيك والترحم عليه : فقال له الرجل : إنك معذور في ذلك لأنك لم تذق حلاوة الآباء. قالوا الصحيح إنه ابن يونس بن محمد بن أبي فروة.[٢]

كان والده يونس من الخوارج ، وكان شاطراً بالمدينة، فعلق أمة لقوم بالمدينة ، فوقع عليها وجاءت بالربيع واستُبعد ولم يكن ليونس مالاً يبتاعه به فأبتاعه زياد بن عبدالله الحارث خال العباس، وأهداه إليه فخدمه وخفّ على قلبه ثم حزم المنصور بعده فخص به.[٣]

فالربيع إذن ابـن أمة ولد عبداً ولم يستطع والده أن يشتريه من مولى الأمة، لذلك يقال إن الربيع معلول النسب.[٤]

لذلك نجد أن ابن طباطبا [٥] يتعجب من انتساب علاء الدين ملك بن الجويني – صاحب الديوان- إلى الفضل بن الربيع ، ويقول : أولاً فلأن يونس لم يكن حراً في نفسه وكان مرمياً بالفاحشة. أما ثانياً فلأن الربيع وإن كان جليـلاً كافياً إلا أنه كان مدخول النسب، فتارة يقال إنه لقيط، وتارة يقال إنه ابن زنا، وأحسن أحوالـه أن يكون صحيـح إلى أبـي فروة مولى عثمـان بن عفـان، وفي ذلك أتم العار فإن أبا فروة عبد عبد عثمان.

كان الربيع حاجباً للمنصور في فترة تولي المورياني وزارته، وقد أحسن الربيع القيام بحجابته وأخلص للمنصور، وظهر إخلاصه له ومناصحته له عندما أشار عليه بأن لا يأكل من السمك الذي أعده له المورياني محذراً له بما يكون فيه من سُم له وضعه المورياني للتخلص منه، لذلك أعجب المنصور بنصيحته وصار يستشيره في كل صغيرة وكبيرة، وعندما نكب المورياني لم يجد غير الربيع يوليه وزارته.[٦]

---

(١) ابن خلكان : وفيا الأعيان، ج٥، ص٣٠.

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٧٧، ابن خلكان ، المصدر السابق، ج٥، ص٣١.

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٢٥.

(٤) البغدادي (أحمد بن علي) : تاريخ بغداد، ج٨، القاهرة، ١٩٣١م، ص٤١٤.

(٥) المصدر السابق، ص٧٧.

(٦) الجهشياري : المصدر السابق، ص١٢٠.

ولما عزم المنصور على تولية الربيع قال له : اجلس في بيتك حتى يأتيك الرسول. فهم الربيع لذلك هماً شديداً. وعندما جلس في بيته صار إليه رسول الخليفة ومعه دراعة وطيلسان وشاشية [1] فقال له : البس هذا واركب بهذا الزي، فركب الربيع فأمر الفرش أن يطرح له مرفقين ظاهرين. فلما وصل إليه الربيع قال له: وليتك الوزارة ووليت ابنك الفضل الحجابة.[2]

أحب المنصور الربيع وصار يقربه إليه في كل يوم أكثر، ويقال إن من شدة حب المنصور للربيع سأله يوماً أن يطلب منه حاجة فيقضيها له. فقال له : حاجتي يا أمير المؤمنين أن تحب الفضل ابني، فقال له المنصور : ويحك إن المحبة لا تقع ابتداء ، وإنما تقع بالأسباب، فقال له الربيع : قد أوجدك الله السبيل إلى ذلك. قال المنصور : وماذاك؟ قال : تنعم عليه، فإذا انعم عليه أحبك، فإذا أحبك أحببته. قال: والله أحببته قبل أن يقع من هذا الشيء.[3]

لعل المنصور محقاً في حبه له، فقد كان الربيع جليلاً نبيلاً منفذاً للأمور مهيباً فصيحاً كافياً حازماً عاقلاً فطناً حاذقاً بأمور الملك بصيراً لما يأتي ويذر محباً لفعل الخير.[4]

فالربيع منذ أن تولى الوزارة حسن طبعه، ودمث خلقه، ولان ملمسه وعرف المنصور فيه ذلك فكان إذار أراد أن يعطف على إنسان ويوليه جميلاً ويقدم عليه يداً أحاله للربيع لميله إلى ذلك في تصـرفه، ولذلك كـــان الناس يعتقدون أن المنصور إذا أراد لإنسان خيراً قال : خـــذه يا ربيع، وإذا أراد إنسان شراً قال : خذه يا مسيب.[5]

ولعل موقفه من شيخ فلسطين يفصح عن حبه للخير ومساعدته للإنسانية، فقد حُكي أن بعض أهل فلسطين وثب على عاملها ، ونجح في اجتذاب بعض الناس إليه فنادوا يشعلون الفتنة، وعاثوا في البلاد فساداً، فلما علم المنصور بذلك كتب إلى عاملها « دمك مرتهن إن لم توجه رأس تلك العصبة إلينا » فجد عامل فلسطين في طلبه إلى أن قبض عليه فوجهه المنصور، فلما مثل بين يديه قال له المنصور : أأنت

(١) الدراعة : ثوب من الصوف، الطيلسان ، ضرب من الأكسية، الشاشية : ضرب من العمائم تتخذ من الحرير والجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٢ ، نقلاً عن كتاب الملابس لروزي).

(٢) الجهشياري : المصدر السابق، ص١٢٥.

(٣) المسعودي : مروج الذهب، ج٣، ص٣١٣، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٣٠٥-٣٠٦.

(٤) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص١٧٨

(٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٩١، الجهشياري، المصدر السابق، ص١٣٤.

المتوثب على عامل أمير المؤمنين؟ «لأنثرن من لحمك أكثر مما يبقى منه على عظمك» فقال له الرجل وكان شيخاً كبيراً في سنه بصوت ضئيل :

أتروض عُرسك بعدمـــا هرمت ومـــن العنـــاء رياضة الهـرم

لم يتبين المنصور ما قاله الرجل وسأل الربيع الذي غلبت عليه خيرته، فقال للمنصور: إنه يقول :

العبد عبدكم والمــال مالكـــم فهل عذابـك عني اليوم مصروف

فقال المنصور : يا ربيع قد عفوت عنه فخل سبيله واحتفظ به وأحسن إليه.(١)

كما كان الربيع بن يونس حاضر البديهة متأدباً أمام خليفته، فقد رأى المنصور يوماً في بستانه شجيرة من شجر الخلاف (٢) فلم يدر ما هي فقال : يا ربيع ما هذه الشجرة، فقال له الربيع : «إجماع ووفاق» وكره أن يقول له خلاف فاستعقله المنصور واستحسن قوله.(٣)

ظـــل الربيع وزيراً للمنصور وحائـــزاً على ثقته ونائلاً لمحبـــته إلى أن توفى المنصور في سنة ١٥٨هـ- ٧٧٤م.(٤)

وقبل وفاة المنصور قيل إن المنصور رأى في حجه التي مات فيها وهو - في طريق مكة- رؤيا وفزع منها وقال : يا ربيع ما أحسبني إلا ميتاً في وجهي هذا ، وإنك تؤكد البيعة لابني عبدالله المهدي. قال له الربيع : بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين ويبلغ أبو عبيد الله محبتك في حياتك إن شاء الله.(٥)

بعد هذه الوصية من المنصور سعى جاداً لأخذ البيعة لعبد الله المهدي بن المنصور، لذلك نجده بعد وفاة المنصور لجأ إلى عمل الحيلة في أخذ البيعة فأمر بالخيم فضربت والفساطيط فهيئت ثم عمد إلى المنصور فألبسه ملابسه وأجلسه وعلى وجهه كِلة بحيث يراه الناس ولا يعرفون أنه ميت وحضر أهله ووجوه بني هاشم ووقف الربيع بينه وبينهم يوهمهم أنه يخاطبه كأنه يتلقى منه الكلام ثم يلقيه عليهم، فقال لهم : إن أمير المؤمنين مفيق بمن الله وهو يقرأ عليكم السلام ويقول : إني أحب أن يؤكد الله أمركم ويكب عدوكم ويسر

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٩٧، ابن طباطبا، الفخري، ص١٧٨.
(٢) الخلاف: صنف من الصفصاف وليس به وهو كثير بأرض العرب وأصنافه كثيرة ، كلها خوار ضعيف (الزبيدي، تاج العروس، ج٦، ص١٠١).
(٣) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص١٧٨.
(٤) الطبري : المصدر السابق، ج٨، ص٥٩، ابن طباطبا، المصدر السابق، ص١٧٨.
(٥) المسعودي : مروج الذهب، ج٣، ص١١٤، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص١١٣.

وليكم وقد أحببت أن تجددوا بيعة عبدالله المهدي لئلا يطمع فيكم عدو أو باغ ، فقال الناس كلهم : وفق الله أمير المؤمنين نحن إلى ذلك أسرع. ثم دخل الربيع إلى المنصور ووقف كأنه يتلقى منه كلاماً ثم عاد إليهم وقال : هلموا للبيعة ، فبايع القوم كلهم.(١)

وقبل أن يأخذ الربيع البيعة من الناس رأى أن يحتاط من ناحية عيسى بن موسى ولي العهد بعد المنصور وقبل المهدي والمتنازل عن البيعة للمهدي فيجدد مبايعة عيسى للمهدي، فأبى عيسى أن يبايع للمهدي، فأقبل القواد وعلى رأسهم علي بن عيسى بن هامان الذي قال لعيسى بن موسى بعد أن استل سيفه: والله لتبايعـن أو لأضربـن عنقك، فبايـع. وأصبح الناس على بيعة عيسى، فلم يتخلف عن البيعة أحد.(٢)

ولما أصبح الصباح وأعلن خبر وفاته خرج الناس وخرج الربيع بن يونس وفي يده قرطاس نشره أمامهم ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف بعده من بني هاشم وشيعته من أهل خراسان ومن عامة المسلمين ، ثم ألقى القرطاس من يده وبكى وبكى الناس ثم أخذ القرطاس وقال: قد أمكنكم البكاء ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين لابد أن نقرأه عليكم فأنصتوا رحمكم الله، فسكت الناس ثم قرأ : أما بعد فإني كتبت كتابي هذا وأنا حيٌ في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة وأنا أقرأ عليكم السلام وأسال الله ألا يفتنكم بعدي، ولا يلبسكم شيعاً ولا يزيق بعضكم بأس بعض يا بني هاشم ويا أهل خراسان ... وأخذ يتلو خطاب المنصور الذي يوصي فيه المسلمين بالمهدي ويذكرهم البيعة له ويحضهم على القيام بدولته والوفاء بعهده. ولما انتهى الربيع من قراءة هذا الكتاب نظر في وجوه الناس وجاء إلى رؤوسهم وأخذ بيدهم واحداً واحداً وجاء بهم إلى المهدي فوضعوا أيديهم في يده وبايعوا راضين مطمئنين.(٣)

وفي عهد المهدي لعب الربيع بن يونس دوراً كبيراً في ولاية العهد لابنه الهادي ، فبعد أن استقر الأمر للمهدي بفضل الربيع رأى المهدي أن يخرج عيسى بن موسى من ولاية العهد، وأن يجعلها لابنه موسى الهادي، فامتنع عيسى عليه فحاول الإضرار به وإيذاءه وأمر بعض رجاله أن يحملوا عليه بعض الحمل بحيث لا تقوم لهم بعلمهم حجة، فلم يؤثر فيه ذلك، فأرسل إليه المهدي قائلاً : إنك إن لم تجبني إلى أن تنخلع منها

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص١١٤، ابن طباطبا، الفخري، ص١٧٤.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٣٦، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص١١٣.

(٣) الطبري : المصدر السابق، ج٨، ١١١- ١١٢، ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣، ص٤٣٧.

حتى أبايع موسى وهرون استحللت منك ما يستحل من العاصي وإن اجبتني عضوتك ما هو أجدى عليك وأعجل نفعاً. فلم يقبل عيسى منه ذلك. فأحتال عليه المهدي حتى حمله من الكوفة إلى بغداد. ونزل في عسكر المهدي، وكان يدخل إليه كل يوم ويجلس في مجلسه من غير أن يُفاتح في أمر البيعة، ومن غير أن يرى جفوة ولا مكروه حتى أنس بعض الأنس. حتى إذا حضر الدار يوماً قبل جلوس المهدي ودخل إلى الربيع بن يونس الذي جمع عليه رؤساء الشيعة وغيرهم وأصروا على الوثوب عليه وخلعه. فلما أحس ذلك أغلق الباب دونهم فضربوا الباب بعصيهم وعمدهم حتى هشموه وكادوا يكسرونه، واقتحموا عليه مجلسه وشتموه أقبح الشتم وحصروه ، وتظاهر المهدي بعدم الرضا عن فعلهم فلم يبالوا غضبه واستمروا في حصارهم له والد فيه فنصح لهم المهدي وذوو الأسنان من قومه بإجابتهم إلى الخروج مما له من العهد في أعناقهم وتحليلهم منه، وأفتى الفقهاء والقضاء أن للمهدي أن يبتاع ماله من البيعة في أعناق الناس بما يكون له فيه رضى وعوض فلا وزر عليه من الإيمان المحرجة في ماله وأهله. فأرغم عيسى بن موسى على التنازل في مقابل أن يعطي عشرة آلاف درهم.[1]

وبعد وفاة المهدي أخذ الربيع البيعة للهادي ، ثم تـوزر له لكن سرعان ما صرفه الهادي عن الوزارة وقلده ديوان الزمام الذي ظل فيه إلى أن قتل [2]. ويقال إن قاتله هو الهادي، والسبب في ذلك هو أن الربيع كان قد أهدى جارية حسناء للمهدي ووهبها المهدي لابنه الهادي فغلب عليه حبها وتزوجها وأولدها أولاده، ولما صار خليفة سعى به أعداء الربيع وقالوا له : إنه إذا رأى بنيك قال : والله ما وضعت بيني وبين الأرض أطيب من أم هؤلاء ، فعظم ذلك القول على الهادي فسقاه سماً فمات، وكان ذلك سنة ١٧٠هـ -٧٨٦م .[3]

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص١٢٥- ١٢٦.

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٦٧.

(٣) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٣٦، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص٢٢٨، ابن طباطبا، الفخري، ص١٧٨.

المبحث الثالث

الوزارة في خلافة أبي عبدالله محمد المهدي وابنه موسى الهادي

١- وزارة معاوية بن عبيد الله

هو أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار مولى عبدالله بن عضاه الأشعري من أهل فلسطين .[١]

كانت والده عبيد الله بن يسار يكتب لصاحب المعونة بالأردن. أي أن والده كان كاتب كما كان هو معلماً حاذقاً يتأثر به تلاميذه.[٢]

ويُقال إنه كان جالساً مع المهدي وجاء رجل تكلم مع المهدي بلحن، وكان أبو عبيد الله يتثقله ويحب أن ينال منه ، فقال له معاوية : أتجالس أمير المؤمنين بالملحون من الكلام ! أما كان عليك أن تقوم من لسانك؟ فقال له الرجل : إنما يحتاج إلى استعمال الإعراب في جميع الكلام المعلمون لينفقوا عند من التمسهم لتعليم ولده. فضحك المهدي حتى غطى وجهه.[٣]

عرف المنصور عن معاوية جميل الأخلاق وحسن الكلام وعرف عنه كل ما يحمد عليه ويحب من أجله وأراد أن يستوزره إلا أنه آثر به ابنه المهدي فاستدعاه وضمه إليه ووكل إليه القيام بأمره وتدبير شأنه حتى إذا أنفذه أبوه إلى الرى ضمَّ إليه أبا عبيد الله. وكان غالباً على أمور المهدي لا يعصي له قولاً، وكان المنصور كثيراً ما يوصيه فيه ويأمره بامتثال ما يشير به.[٤] كما كان لأبي عبيد الله مكانة عرفها له المنصور فأحله من نفسه محله واستعان به في المهم من الأمور.[٥]

فمن الأعمال العظيمة التي قام بها للمنصور هي مناظرته لعيسى بن موسى، فعندما أراد عيسى بن موسى أن يخلع نفسه من التقدم في ولاية العهد ، وأن يقدم المهدي على نفسه أمره المنصور أن يخرج إلى

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٢٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٠، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٤٤.

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٤١.

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٤١.

(٤) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص١٨٢.

(٥) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٣، ص٤٤.

الناس فيخاطبهم بذلك. فخرج عيسى بن موسى وخرج معه معاوية بن عبيد الله - كان كاتب المهدي في ذلك الوقت - ودخلا المسجد الجامع فوقف عيسى وقال : «إني قد سلمت ولاية العهد إلى المهدي محمد بن أمير المؤمنين وقدمته على نفسي» إلا أن هذالكلام كان مبتوراً، ولم يعجب معاوية بن عبيد الله فقال لـه أبو عبيد الله : ليس هكذا أيها الأمير، ولكن قل لحقه وصدقه وأخبر عما رغبت فيه وأعطيت فقال عيسى بن موسى : نعم بعت نصيبي من تقدمي في ولاية العهد من عبدالله أمير المؤمنين لابنه محمد المهدي أمير المؤمنين بعده بعشرة آلاف درهم وألف ألف درهم لابن فلان وابني فلان وابن فلان وابني فلان وفلانة بطيب نفس مني ورغبت في تصييرها إليه لأنه أولى بالتقدم فيها مني وأحق وأقوّم عليها، وأقوى على القيام بها مني» فكان المجان من أهل الكوفة إذا مرّ بهم عيسى بن موسى قالوا : هذا الذي كان غداً فصار بعد غداً، وكان هذا التنازل في سنة ١٤٧هـ - ٧٦٤م.[١]

وفي فترة اختصاص أبي عبيد الله بالمهدي كان ناصحه ومشيره في كل صغيرة وكبيرة جليلة وحقيرة. ففي يوم قال المنصور للمهدي : « قد عزمت على أن أوليك الأمر وأرده إليك، فقد كبرت وعجزت عن مباشرة الأعمال والنظر فيها ، وأحببت الراحة والدعة». فاستبشر المهدي لذلك وفرح وقص القصة على معاوية الذي ناصحه في هذا الأمر قائلاً : « اتق الله ولا تظهر لأمير المؤمنين قبولاً لما ذاكرك به، وإذا عاودك فقل له لا والله لا أتعرض لهذا الأمر ما أبقى الله أمير المؤمنين ولا أنهض به ولا أعزه من نفسي فإنه سرك بما عرض عليك». وبذلك أفطن معاوية المهدي لما يريده والده من الاختبار لـه، وعندما سأله والده ثانية ردّ المهدي على ذلك قائلاً : « ما بي قوة على ذلك ويبقى أمير المؤمنين ويمتعنا بحياته، وحياته أعز من نفسي». عرف المنصور أن هذا ليس برأيه هو فقال له : سبحان الله من صدك عنه؟ ومن ناظرت فيه؟ وبعد ذلك عرف المنصور أن معاوية هو الذي أشار عليه بذلك القول فاستدعى المنصور معاوية وسأله عن سبب إشارته للمهدي بهذا . قال له معاوية بعد أن أمنه : إنك والله ماعرضت عليه ما عرضته وأنت تريد أن توليه وإنما أردت أن تختبر عقله وما كنت لتطيب نفساً بترك ما أنت فيه. فسأله المنصور : وكيف توهمت ذلك؟ قال له معاوية : لأني سمعتك تقول : إني لأستيقظ بالليل فأدعو بالكتب فأضعها بين يدي وأدعو بالجارية فآمرها أن تدهن ظهري بالدهن فتفعل ذلك وأنا مقبل على كتبي وتدبيري والنظر في أموري، فعلمت إنك لا تدع أمراً يكون موقعه مثل هذا الموقع وتؤثر به غيرك. فأعجب المنصور بكلامه وحسن توفيقه

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٢٧.

في الرأي وقال له : ما كنت أرى أن أحداً يتفقد ما تفقدته وقد أصبت الرأي وأحسنت بارك الله عليك[1].

ورغم أن معاوية بن عبيد الله كان في تلك الفترة مختصاً بولي العهد في خراسان إلا أنه كان يحاول أن يجعل أمره فوق كل أمر ويدس أنفه في الصغيرة والكبيرة حتى في ما ليس من شأنه أن يتدخل فيه من الأمور التي تتصل بالحرب والهجوم والدفاع بل كان ينظر في تلك الأمور نظراً آلم القواد وأذاهم في أنفسهم وفي سلطانهم وفي علمهم الذي تراخوا فيه حتى منوا بالهزيمة تلو الهزيمة حتى كاد يلحق الدولة خطراً كبيراً لولا أن أحد هؤلاء القواد رأى ألا يدع الأمور تجري على هوى أبي عبيد الله فتخسر الدولة بسببه خسراناً عظيماً ، فخرج إلى المهدي وهو بنيسابور فسلم عليه وإستخلاه وكان بحضرته أبو عبيد الله فقال له المهدي: لا عليك من أبي عبيد الله فقل ما بدأ لك فأبي القائد «خازم بن خزيمة» أن يخبره أو يكلمه حتى قام أبو عبيد الله فلما خلأ به شكا إليه أمره وتحامله ، وما كان يرد من كتبه عليه وعلى من قبله من القواد وما صاروا إليه بذلك من الفساد والتذمر في أنفسهم والاستبــداد بآرائهم وقلة السمع والطاعة وأن أمر الحرب لا يستقيم إلا برأس وألا يكون في عسكره لواء يخفق على رأس أحد إلا لواؤه أو لواء هو عقده. وأعلم المهدي أنه لن يعود إلى القتال إلا إذا فوّض الأمر إليه تفويضاً كاملاً ، وإلا إذا أذن له في حل ألوية القواد الذين معه وأن يكتب إليهم بالسمع له والطاعة دون غيره. فلم يسع المهدي إلا أن يجيبه لما أراد خوفاً من الهزيمة وبذلك تم لهم النصر.[2]

ظل أبا عبيد الله مختصاً بولي العهد إلى أن تولى المهدي الخلافة فقلده وزارته ودواوينه وكان ذلك سنة ١٥٩هـ - ٧٧٥م.[3]

وفوّض إليه أمور المملكة ، وكان أبو عبيد الله مقدماً في صناعته فاخترع أموراً منها ونقل الخراج إلى المقاسمة ، وكان السلطان لا يأخذ عن الغلات خراجاً مقدراً ولا يقاسم. فلما تولى معاوية بن عبيد الله الوزارة قدر أمر المقاسمة وجعل الخراج على النخيل والشجر ، واستمر الحال في ذلك إلى الآن.[4]

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص١٢٨ - ١٢٩.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٩ - ٣٠.

(٣) الجهشياري : المصدر السابق، ص١٤١.

(٤) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٨٢.

كما كان أبو عبيد الله يضبط أمور المهدي ويشير عليه بالاقتصاد وحفظ المال هذا بالإضافة إلى أهم الأعمال التي قام بها معاوية بن عبيد الله في فترة توزره للمهدي وهي مناظرته لعيسى بن موسى، لأن يخلع نفسه من ولاية العهد جملة، فقد تقدم إليه قائلاً إن المنصور قـــدم المهدي عليك وعوضـــك على ذلك فإن أخرجت نفسك من هذا الأمر عوضـــك المهدي ما هو أنفع لك ، وأبقـــى عليك وإن أبيت إستحل منك المحظور بمعصيتك وخلافك أمره، وقد لزمتك طاعته ووجب عليـــك القبول منه، فسارع عيسى بن موسى إلى الإجابة إلى خلع نفسه فعُوض عشـــرة آلاف ألف درهـــم، وكتب أبو عبيد الله عن المهدي بذلك وبتقليد الهادي موسى إلى الآفاق.[1]

وقال الشعراء في تنازل عيسى بن موسى عن ولاية العهد :

كره الموت أبو موسى وقـــد كان في الموت نجـــاة وكرم

خلع الملك وأضحـــى لابساً ثوب لؤم لا تـــرى من القدم[2]

ورغم الأعمال الجليلة التي كان يقوم بها معاوية بن عبيد الله، ورغم تفويض المهدي له في تدبير أمور المملكة إلا أن المهدي كان حريصاً على الإطلاع بأمور الدولة، ولم يتعلق بوزيره تعلقاً يجعله يغض الطرف عنه، ففي إحدى المرات أرسل إليه عامل الخليفة على أحد المدن واسمه زهير بن عاصم عند تقلده الوزارة وفداً يتكون من عبدالله بن مصعب الزبيري وإبراهيم بن سعد الزهري وسعيد بن سلم. فلما وصلوا إلى باب الخليفة قصدوا أبا عبيد متوسلين إليه في توصيلهم له وأن يذكر له أمورهم. إلا أن أبا عبيد الله رفض ذلك ومنعهم من الدخول عليه وأغلظ القول قائلاً لهم : «مالكم عندنا شيء». فأتصل خبر هؤلاء القوم بالمهدي فأنكر ذلك الصنيع على أبي عبيد الله. فدعاهم بالدخول عليه فوصلهم المهدي وأحسن إليهم في حوائجهم.[3]

كما كان المهدي لا يستشير وزيره معاوية بن عبيد الله في كل الأمور بل كان يعمد إلى استشارة غيره في كثيراً من الأمور، فمثلاً عندما تولى المهدي الخلافة وجد أهل الخراج يعذبون بصنوف من العذاب من السباع والزنابير والسنابير. فلم يستشير في أمورهم وزيره معاوية بن عبيد الله ، بل استشار في ذلك محمد

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٤٣.

(٢) نفس المصدر ج٣، ص٤٤٣، الجهشياري ، الوزراء والكتاب، ص١٤٦.

(٣) الجهشياري : المصدر السابق، ص١٤٢.

ابن مسلم الذي أشار عليه قائلاً : يا أمير المؤمنين هؤلاء غرماء المسلمين وأن يطالبوا مطالبة الغرماء» فتقدم إلى أبي عبيد الله بالكتاب إلى جميع النواحي والعمال برفع العذاب عنهم.[١]

لم يزل معاوية بن عبيد الله في وزارته للمهدي إلى أن جاء اليوم الذي تآمر فيه الربيع عليه وسعى به إلى المهدي. فقد حُكي أن الربيع بن يونس لما قدم من مكة بعد موت المنصور وأخذ البيعة للمهدي حضر ساعة وصوله إلى باب معاوية بن عبيد الله فقال ابنه الفضل : يا أبي نبدأ به قبل أمير المؤمنين وقبل منزلنا ؟ قال : نعم هو صاحب الرجل والغالب على أمره . فلما وصل الربيع بن يونس إلى باب معاوية وقف ساعة خرج الحاجب ثم دخل عليه الربيع فاستأذن فأذن له، ولما دخل عليه لم يقم له، ثم سأله عن مسيره وحاله ، فأخبره وشرع الربيع يحدثه بما جرى له في مكة من موت المنصور ومن اجتهاده في أخذ البيعة للمهدي فسكته معاوية قائلاً : قد بلغني الخبر فلا حاجة إلى إعادته مرة ثانية فاغتاظ الربيع من ذلك ثم قام فخرج وقال لابنه الفضل : «والله الذي لا إله إلا هو لأبذلن جاهي ولأنفقن مالي لإزالة نعمته.[٢]

ولعل السبب في كل هذا الغيظ والمكايدة هو أن الربيع كان صديقاً لمعاوية بن عبيد الله قبل أن يتولى الوزارة، وكان الربيع يحسن سيرته وخلافته في حضرة المنصور عندما كان أبو عبيد الله في الرى مع المهدي، وكان يكاتبه بكل ما يحتاج إليه ويقدم له النصائح ، كما كان يكف عنه الأذى من كل من يريد غيبته والإيقاع به عند الخليفة، فقابل المورياني ذلك الجميل بالنكران.[٣]

لذا شرع الربيع في إفساد حال معاوية بن عبيد الله [٤] وأخذ يضرب شرقاً وغرباً ولا يجد مساعاً لإفساد حاله ، وأخيراً وجد ضالته في رجل يدعى القشيري، وكان أبو عبيد الله قد أساء إليه وحجبه فاستحضره الربيع وسأله عن حيلة للقضاء على أبي عبيد الله فأجابه القشيري : بأنه ليس بجاهل في صناعته وأنه لأحذق الناس وما هو بظنين فيما يتقلـده لأنه أعف الناس حتى لو كانت بنات المهدي في حجره لكان لهن موضعاً وليس بمتهم في إنحـراف عن هـذه الدولة لأنه ليس يؤتى من ذلك شيء وليس متهم في دينه لأن عقده وثيق، ولكن كـل هذا يجتمع في ابنه لأنه ردئ الطريقة مزموم السيرة يُرمي بالزندقة والقول يسرع إليه.[٥]

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ج٣، ص١٤٢.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٤٥، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص١٣٧.

(٣) الجهشياري:المصدر السابق، ص١٥١ - ١٥٢، ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣، ص٤٤٥.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١، ص٢٠.

(٥) ابن طباطبا : الفخري، ص١٨٣، الجهشياري، المصدر السابق، ص١٥٢

كان المهدي يقسو على الزنادقة ويجد في طلبهم لذلك وجد الربيع فرصته في بني أبي عبيد الله فدّس له الدسائس حتى بلغ أمره إلى المهدي وثبتت تهمته بالزندقة فاستحضره المهدي وسأله قائلاً : أزنديق أنت؟ قال له ابن معاوية : نعم فقال له المهدي : اقرأ، فقرأ له ابن معاوية «تباركت وعالمون بعلم الخلق». وقال لأبيه أبا عبيد الله : ألم تخبرني أن ابنك يحفظ القرآن؟ قال له أبو عبيد الله: نعم ولكنه فارقني منذ مدة ونسيه. وأشار الربيع بن يونس على المهدي بمطالبة أبيه بقتله. فقال المهدي لأبي عبيد الله : «قم فتقرب إلى الله بدمه» فقام معاوية ليضرب عنق ابنه لكنه لم يقدر على ذلك وإرتعد فقال العباس ابن عم المهدي : يا أمير المؤمنين هو شيخ كبير وله حرمة ويكفيك غيره ما أردته منه. فأمر أبو العباس رجل يدعى الطوسي بقتله فقتل ولم يستقبل به القبلة.[1]

ولم يكتفِ الربيع بن يونس بهذا القدر من إيذائه بل عمد إلى بعض خدم المهدي وعرض عليه مبلغ ثلاثة ألف دينار في مقابل أن يقبض على سيفه إذا دخل أبو عبيد الله على الخليفة وأن يمشي بجانبه. وعندما نفذ الخادم أمر الربيع بن يونس أنكر أمير المؤمنين ذلك على الخادم فقال له الخادم : « يا أمير المؤمنين قتلت ابنه بالأمس فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ومعه سيفه اليوم؟ فاستعقل المهدي كلام الخادم ووجد الكلام في قلب المهدي موضعاً كمن فيه، وكان ذلك مما أوحش المهدي من أبي عبيد الله.[2]

وهناك رواية أخرى في سعاية الربيع بن يونس على أبي عبيد الله وهي أن أبا عبيد الله دخل يوماً على المهدي ليعرض عليه كتباً ، فتقدم المهدي بإخلاء المجلس فخرج كل من به إلاّ الربيع فقال له المهدي: يا ربيع أخرج. فتنحى الربيع قليلاً ولم يخرج ، فقال له المهدي : ألم آمرك بالخروج ؟ قال الربيع : كيف أخرج يا أمير المؤمنين ومعك رجل من أهل الشام اسمه معاوية قتلت ابنه بالأمس فكيف أدعه معك على هذه الحال وأخرج. فوغر ذلك القول في نفس المهدي إلا أنه قال له : يا ربيع إني أثق في أبي عبيد الله في كل حال. إلا أنه في نفس الوقت لم يأمر الربيع بالخروج بل قال لأبي عبيد الله : ليس دون الربيع سر.[3]

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٥٣، ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص١٨٣.

(٢) الجهشياري ، المصدر السابق، ص١٥٤.

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٠، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص١٣٩.

١ - وزارة يعقوب بن داؤود

هو يعقوب بن داؤود بن طهمان ، فارسي الأصل كان كاتباً لإبراهيم بن عبدالله بن الحسين بن الحسن علي بن أبي طالب، كما كان والده وإخوته كتاباً لنصر بن سيار عامل خراسان من جهة بني أمية.(١)

كان والده كاتب لكنه في نفس الوقت عين على نصر بن سيار يقف على سره ويطلع به يحيى بن زيد ابن علي بن الحسين بن علي، فلما قتل يحيى خرج أبو مسلم الخراساني يطلب بدمه ممن قتله فيقتل قاتليه من أصحاب نصر بن سيار وإذ ذاك لم يخش داؤود على نفسه شيئاً لأنه آمن مطمئن بما كان له من التودد ليحيى والتقرب إليه فهو غير متهم من دون أصحاب نصر وإن كان من كتابه.(٢)

ولما مات والدهم داؤود بن طهمان خرج ولده وهم أهل علم وأدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم، ونظروا في أمرهم فلم يجدوا لهم منزله عند بني العباس لخيانة والدهم لنصر بن سيار فالتمسوا أن يتشيعوا للزيدية وطمعوا في أن تكون لهم دولة يعيشوا في ظلها فطالبوا بالخلافة لمحمد بن عبدالله بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طال وجال يعقوب في البلادة تارة منفرداً وأخرى مع إبراهيم بن عبدالله بن الحسن يعرض على الناس أن يبايعوا محمد هذا، فلما ظهر محمد وإبراهيم بن عبدالله كتب على ابن داؤود لإبراهيم وخرج يعقوب مع عدد من أخوته مع إبراهيم، ولما قتل إبراهيم حبسه المنصور في المطبق سنة ١٤٤هـ- ٧٦١م مع الحسن بن إبراهيم.(٣)

ولما أفضت الخلافة إلى المهدي أمر باطلاق من في السجون فكان منهم يعقوب بن داؤود بن طهمان.(٤)

ولما خرج يعقوب من المطبق بدأ يتصل بالمهدي وكانت بداية إتصاله به بالسعاية بآل علي فذكر للمهدي أن الحسن بن إبراهيم بن عبدالله قد عمل سرباً يهرب منه، فبعث المهدي فوجد السرب فنقله إلى مكان آخر إلا أن جماعة من الزيدية إحتالوا في هربه وصاروا إلى مدينة الرسول.(٥)

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٤٦، ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٦٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص١٩.

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٥٥.

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق، ج٦، ص٧٠، ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣، ص ٤٤٨، ابن خلكان ، المصدر السابق، ج٦، ص١٩. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص١٥٥، الجهشياري، المصدر السابق، ص١٥٥.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٣، ص٤٤٨، ابن الأثير، المصدر السابق، ج٦، ص٧٠، الجهشياري، المصدر السابق، ص١٥٥.

(٥) ابن الأثير،المصدر السابق، ج٦، ص٧٠، الجهشياري، المصدر السابق، ص١٥٥.

كانت تلك فرصة للمهدي لأن يجد شخصاً له علاقة ببني الحسن يستعين به لمعالجة الخلل الذي ترتب على ظهور بني الحسن. ومما ساعد على نجاح أمر يعقوب في التقرب للمهدي أن حال أبي عبيد الله معاوية الوزير بدأت تتغير لذلك أخذ الربيع بن يونس يقربه إلى الخليفة أكثر في الوقت الذي يسعى فيه علي أبي عبيد الله. [١]

فتقدم يعقوب بن داؤود إلى المهدي واستأذنه في رفع النصائح إليه، فأذن له المهدي في ذلك ، فهو الذي دخل عليه يوماً وقال له : يا أمير المؤمنين إنك قد بسطت عدلك على رعيتك وأنسفتهم وأحسنت إليهم فعظم رجاؤهم وقد بقيت أشياء لو ذكرتها لم تدع النظر فيها وأشياء خلف بابك تعمل ولا تعلم بها فإن جعلت لي السبيل إليك رفعتها. فأمر له بذلك فكان يدخل إلى المهدي كلما أراد الدخول إليه، ويرفع إليه النصائح في الأمور الحسنة الجميلة من أمر الثغور وبناء الحصون وتقوية الغزاة وتزويج العذاب وفكاك الأسرى والمحبوسين والقضاء على الغارمين والصدقة على المتعففين. [٢]

ومنذ ذلك عرف يعقوب أنه صار له شأن وأنه أصبح من أولى الأمر والنهي في الدولة وأنه يستطيع أن يقول ويفعل وأنه في مكنته أن يولي ويعزل وأن يمنع ويعطي وأن يتصرف في شئون دولة شابه فتيه ملأت ما بين المشرقين والمغربين صيتاً ومجداً. [٣]

ومما ساعد على تزايد حال يعقوب عند المهدي تثاقل أبو عبيد الله وتقاعده عن القيام بأعمال المهدي فأخذ نجم معاوية يأفل ونجم يعقوب يتألق، فانتهى الأمر بعزل معاوية بن عبيد الله وإسناد الأمر ليعقوب بن داؤود الذي استوزره وسماه «أخاً في الله وزير» وأخرج بذلك توقيعات تثبت في الدواوين. [٤]

وفي هذا التلقيب الذي ناله يعقوب بن داؤود يقول الشاعر:

قل للإمام الذي جاءت خلافته تهدي إليه بحق غير مردود

نعم المعين على التقوى أعنت به أخوك في الله يعقوب بن داؤود [٥]

---

(١) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٨٤.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص١٥٦.

(٣) أبو الفداء (عماد الدين بن إسماعيل بن أبي الفداء) المختصر في أخبار البشر، ج٢، القاهرة، ١٣٢٥هـ، ص١٠.

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٥٥.

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٠.

وفوض إليه المهدي الأمور كلها وقدمه على جميع الناس، كما تفرد هو بتدبير الأمور، وغلب على أمر المهدي كله ووزارته.(١)

ويرجع ابن طباطبا (٢) السبب الرئيس لوزارته للمهدي هو أن يعقوب بن داوود قرر للربيع بن يونس مائة ألف دينار إن حصلت له الوزارة فجعل الربيع يثني عليه في الخلوات عند المهدي فطلب منه المهدي أن يراه، فلما حضر بين يديه أكمل الناس خلقاً وفضلاً.

والواقع أنه قد عرف يعقوب إنه كان ميمون المذهب والنقية محباً للخير كثير الفضل حسن الهدى.(٣)

بعد تولي يعقوب الوزارة كان من الطبيعي أن يفكر أول ما يفكر فيه في رجال حزبه والأمناء عليه يستعين بهم في تصريف الأمور في الدولة على هواه لا على هوى الخلافة فاستدعى الزيدية وأتى بهم من كل أوب وولاهم من أمور الخلافة في المشرق والمغرب من كل جليل وعمل نفيس والدنيا كلها في يديه.(٤)

ظل المهدي يستشيره في أموره ويستأمنه على سره ويستصحبه إذا خرج للحج. وفي سنة ١٦٠هـ - ٧٧٦م حج المهدي بالناس واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي واستصحب معه ابنه هرون الرشيد وخلقاً من الأمراء منهم يعقوب بن داوود. وقد عمل يعقوب بن داوود في تلك الفترة على أن يقرب بين الخليفة وبين أعضاء حزبه. وكان هدفه من ذلك أن ينفي عن نفسه أنه وشى بالحسن إلى الخليفة، وأن يخدم حزبه الذي يدين له بالولاء والإخلاص فيزيل الوحشة التي بين المهدي والحسن أيضاً ليتمكن بذلك من أن ينمي حزبه وهو مطمئن من مناهضة الخليفة له. وقد كان ليعقوب ما أراد فقد نجح في حمل الخليفة أثناء قيامه بمناسك الحج على أن يصدر أماناً للحسن بن عبدالله ، واستقدمه أمامه فأحسن إليه المهدي ووصله بمال وأقطعه مالاً من الضياع بالحجاز. ولعل في ذلك قد أفلح يعقوب.(٥)

ويعقوب بن داوود منذ أن تولى الوزارة لا هم له في المصلحة العامة بل كان يبدد أموال الدولة يميناً وشمالاً، وكان أبو جعفر المنصور قد خلف في بيت المال مائة ألف ألف درهم عند وفاته. فلما صرف المهدي

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٥٦، ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص١٨٤.

(٢) المصدر السابق، ص١٨٤.

(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص١٣٣.

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٤٨، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٧٠، الجهشياري، المصدر السابق، ص ١٥٨

(٥) الجهشياري : المصدر السابق، ص١٥٨.

أبـــا عبيد الله عن وزارته وقلدها يعقوب بن داؤود زيـــن له هواه فأنفـــق المال على اللذات والشرب وسماع الغناء.[١]

كان يعقوب بن داؤود قد عرف من المهدي خلعاً واستهتاراً بذكر النساء والجماع، وكان يعقوب بن داؤود يصف من نفسه في ذلك شيئاً كثيراً، وكذلك كان المهدي فكان القوم يخلون بالمهدي ليلاً فيقولون : «قرب على أن يثور عليه» فإذا أصبح الصباح غدا عليه يعقوب، وقد بلغه الخبر،فإذا نظر إليه تبسم فيقول: خلوت بجاريتي البارحة فقالت وقلت فيصنع لذلك حديثاً فيحدث المهدي بمثل ذلك فيفترقان على الرضا.[٢]

هكذا كان هم يعقوب الأول والأخير فقط أن يرضي عنه خليفته الذي عرف عنه أنه يريد أن يمتع نفسه بألوان كثيرة من المتع ويستنفد هذا التمع إنفاق كثير من المال، فقد كان يبعثر مال الدولة على من حوله حتى خلت خزائنه يوماً من المال، وذهب إليه متقلد خزائن بيت المال ومعه المفاتيح، وقال له : إذا كنت أنفقت جميع الأموال فما معنى هذه المفاتيح معي؟ مر من يقبضها مني.[٣]

على عكس أبا عبيد الله الذي كان يضبط أمور المهدي ويشير عليه بالاقتصاد وحفظ الأموال.[٤]

يبدو أن وصول يعقوب إلى هذه المنزلة وحيازته الكاملة على رضا الخليفة أكثرت من حساده فأخذوا يسعون به عند الخليفة وكان مما سعى الناس به على يعقوب بن داؤود أنهم رأوه يميل إلى إسحق بن الفضل أحد طلاب الخلافة وأخذ يرتقب له الأمور فحذروا المهدي عاقبة ذلك وأعلموه « أن المشرق والمغرب في يد يعقوب بن داؤود وأصحابه وقد كاتبهم وإنما يكفيه أن يكتب لهم فيثوروا في يوم واحد على ميعاد فيأخذوا الدنيا لإسحق.[٥]

وقد كان في نفس المهدي شيء من هذه السعاية على يعقوب بن داؤود ، ولكن المهدي كتمه حتى أثبتت الأيام طرفاً منه ، فإن يعقوب دخل عليه يوماً وجثا بين يديه وأبلغه أن أمر مصر مضطرب وأنه التمس لها رجلاً يجمع أمرها بعد أن نثر كنانته، فلم يجد أصلح لها من إسحق بن الفضل. فما كاد المهدي يسمع

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٦، ص٢١، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٥٩.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٤٨، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٧٠.

(٣) الجهشياري : المصدر السابق، ص١٥٨.

(٤) نفس المصدر، ص١٥٩.

(٥) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٦، ص٧٠، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص١٥٦.

اسم إسحق حتى تغير واربد وجهه وحارت عيناه فلمح يعقوب هذا فخرج من بين يديه. وأتبعه المهدي نظرة المتألم المغيظ وقال : قتلني الله إن لم أقتلك. وكان خادمه إذ ذاك قائماً على رأسه يذب عنه، فلما أحسّ أنه سمع كلام المهدي نصحه الخادم قائلاً له : « أكتم علي ويلك».[1]

وهذه النصيحة من جانب الخادم لخليفته تدل دلالة قاطعة على ما كان ليعقوب من خطر وعلى مقدار تمكنه من الخليفة والدولة.

وأيضاً مما سعى به أعداء يعقوب أنهم أحيوا تاريخه القديم أيام المنصور فذكروا للمهدي خروجه على المنصور مع إبراهيم بن الحسن العلوي، وذكروا له أنه عمل في حزبه لنقل الخلافة من بني العباس إلى بني علي بن أبي طالب.[2]

كما سعى أحد خدم المهدي قائلاً للمهدي : أنه سمع يعقوب بن أبي داؤود وهو يقول : بني هذا الرجل- يعني المهدي - متنزهاً أنفق عليه خمسين ألف درهم من أموال المسلمين. وكان القائل لهذا القول هو أحمد بن إسماعيل صهر يعقوب بن داؤود وأخبرهم بأن اسمه «عيسى باذ» والذي بناه لابنه عيسى.[3]

والظاهر أن الظروف هي التي ساعدت أعداد يعقوب على السعاية به عند المهدي، وذلك أنه حدث أن سامر يعقوب الخليفة ليلة حتى إذا هم بالإنصراف وخرج من دار الخلافة نفرت منه دابته لأنه كان يلبس طيلساناً يتقعقع ، فلما هم بتسويته فجأة صوتت الدابة فجفلت « وكان الغلام أخذه النعاس» ثم وقفت ، فلما دنا منها يعقوب استدبرته ورفسته رفسة شديدة أصابت ساقه فكسرتها، فسمع المهدي وجبه شديدة ذعر لها وخرج من الدار مسرعاً لا يتعلق نعله بقدمه حتى إذا وقع بصره على يعقوب طريحاً على الأرض يتأوه من عظم مابه. حزن له المهدي حزناً شديداً وحمل إلى المنزل على كرسي وأمر بالعناية به. هنا خلا الجو لأعداء يعقوب وحساده فطرقوا باب الخليفة وجالسوه ودبروا له شأناً فبدأ يتأثر منه ويتغير عليه ، وفترت علاقته بيعقوب ، فبعد أن زاره ثلاثة أيام متتابعات قعد عن عيادته واكتفى بأن يرسل إليه رسولاً يستفسر عن صحته ولا يذهب هو إليه، وإذ ذاك تمكن السعاة منه فلم يمض إلا قليل حتى أظهر سخطه عليه ويقال: إنه

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص١٧.

(٢) نفس المصدر، ج٨، ص١٥٦، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٥٩.

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٢.

بلغ به السخط حداً جعله ينادي في أصحابه أنه « لا يوجد أحد عليه طيلسان يعقوبي وقلنسوه يعقوبية إلا أخذت ثيابه».[1]

ويبدو أن أخطاء يعقوب وسوء سياسته أصبحت معروفة لدى الجميع حتى أن بعضهم كتب على منارة كانت قائمة في الطريق بين بغداد ومكة :

للــــه درك يا مهدي من رجـــــل	لولا إتخاذك يعقـــوب بن داؤود

فلما خرج المهدي إلى مكة حاجاً، مر بالمنارة فوجد عليها البيت مكتوباً ، فقال لمن كان معه. أكتب تحته « على رغم أنــف الكاتب هــذا وتعساً لجــده». وقد قـــال المهدي ذلك، إلا أن في نفسه أشياء على يعقوب.[2]

وفي هجاء بشار بن برد ليعقوب بن داؤود لدليلاً واضحاً على فشله التام، وقد قال فيه :

بنوا أمية هبـــوا طـــال نومكـــم	إن الخليفة يعقـــوب بن داؤود
ضاعت خلافتك يا قـــوم فاطلبوا	خليفة الله بين الدف والعـــود [3]

وعندما بلغ هجاء بشار بن برد ليعقوب دخل يعقوب على المهدي وقال له : إن هذا الأعمى المشرك قد هجا أمـــير المؤمنين بأبيات شعر يعفيـــني المهدي عن ذكرها. إلا أن المهـدي أصر على يعقوب بذكرها فأنشده قائلاً :

خليفـــــة يزنــــي بعماتـــــه	يلعـــب الدبـــوق والصولجان
أبدلنـــا اللــــــه غيـــره ودسّ	موسى في حـــر الخيــــزران

فلما سمـــع المهدي هـــذه الأبيات ذهـــب بنفسه إلى بشـــار في البصرة وتأكد له أنـــه زنديـــق فأمر بقتله فقُتل.[4]

ولما رأى يعقوب بن داؤود تآلب الناس عليه وإطلاعهم على سوء أفعاله ، رأى أن يغير سياسته خاصة

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٦٠، محمد أحمد برانق، الوزراء العباسيون، ص٢١٤.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٦، ص٢١، الجهشياري، المصدر السابق، ص١٥٩.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٤٧، ابن خلكان، المصدر السابق، ج٦، ص٢١.

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص١٨١.

بعد أن علم الجميع أنه يمالي الخليفة ويهئ له مجلس لا يليق بمقام الخلافة. فدخل عليه يوماً وقال له بعد ما رآه يسمع الغناء وأصحابه يشربون النبيذ بحضرته- وكان المهدي يشاركهم تحرجاً، ولكنه لا يشتهيه - ليس على هذا استوزرتني ولا على هذا صحبتك أبعد الصلوات الخمس في المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ وتسمع الغناء». فرد عليه المهدي قائلاً : قد سمع عبدالله بن جعفر الغناء. فرد عليه يعقوب قائلاً : إن هذا ليس من حسناته لو أن رجلاً سمع في كل يوم كان يزيد ذلك قربه من الله أم بعداً.[1]

ولم يكتف بهذه النصائح للمهدي بل ذهب إلى أبعد من ذلك، وأظهر للناس أنه زاهد في الوزارة وأنه يتمنى اليوم الذي يخرج فيه منها، فكان يقول : والله يا أمير المؤمنين لشربة خمر أشربها وأتوب إلى الله منها أحب إليّ مما أنا فيه، وأني لأركب إليك وأتمنى يداً خاطئة تصيبني فأعفني ولِ من شئت فأني أحب أن أسلم عليك أنا وولدي، والله إني لأتقلب في الليل منذ أن وليتني أمور المسلمين، وليس دنياك بعوض عن آخرتي. فلما سمع المهدي منه ذلك القول قال : اللهم غفراً اللهم أصلح قلبه.[2]

لا شك أن المهدي بدأ يشك في نوايا وزيره ابن داوود، لذلك رأى أن يحطاط في معاملته بل أخذ يفكر في حيلة يمتحن بها ميل يعقوب إلى العلوية خاصة بعد أن كثر كلام مواليه بأنه يميل إليهم. قال يعقوب : استدعاني المهدي يوماً فدخلت عليه، فإذا هو في مجلس مفروش بفرش مورده على بستان فيه شجر، ورءوس الشجر مع صحن المجلس، وقد اكتسى ذلك الشجر بالأزهار والأوراد من الخوخ والتفاح، فكل ذلك يشبه فرش المجلس الذي كان فيه، فما رأيت شيئاً أحسن منه، وإذا عنده جارية ما رأيت أحسن منها، ولا أمشق قواماً ولا أحسن اعتدالاً عليها نحو ذلك من الثياب، فما رأيت أحسن من ذلك جملة، فقال لي: يا يعقوب كيف ترى مجلسنا هذا؟ قلت : على غاية الحسن ، فمتع الله أمير المؤمنين به وهنأه أياه. فقال له : هو لك أحمله بما فيه، وهذه الجارية ليتم سرورك به. قال : فدعوت له بما يحب ثم قال المهدي : يا يعقوب ولي إليك حاجة أحب أن تضمن لي قضائها ، فقلت له : الأمر لأمير المؤمنين وعليّ السمع والطاعة. قال : والله؟ قلت : والله ثلاثاً قال : وحياة رأسي؟ قلت : وحياة رأسك. قال : فضع يدك عليه وأحلف به. قال : فوضعت يدي عليه وحلفت له به لأعملن بما قال وأقضين حاجته. قال يعقوب فلما استوقف مني في

(١) ابـن خلدون : العبـر، ج٣، ص٤٤٩، ابن كثـير،البداية والنهاية، ج١٠، ص١٤٩. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٧٢- ٧٣، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ١٦٠.

(٢) الجهشياري : المصدر السابق، ص١٦٠.

نفسه قال : هذا فلان بن فلان من ولد علي أحب أن تكفيني أمره وتريحني منه ، فأني خائف أن يخرج عليّ. قال يعقوب : قلت أفعل.(١)

قل : فأخذت العلوى والجارية، وما كان في المجلس والمال. وحملت ذلك جملة ولشدة سروري بالجارية صيرتها في مجلس قريب مني بيني وبينها ستر وبعثت إلى العلوي وسألته عن حاله فأخبرني بها وبجمل منها. وإذا هو ألب الناس وأحسنهم إبانة ، قال : وقال لي وفي بعض ما قال: ويحك يايعقوب تلقى الله بدمي وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمد ﴿ﷺ﴾ قال: قلت لا والله فهل فيك خير؟ قال : إن فعلت خيراً شكرت، ولك عندي دعاء واستغفار. فقلت له : أي الطرق أحب إليك؟ قال : طريق كذا وكذا. قلت فمن هناك ممن تأنس به وتثق بموضعه؟ فلان وفلان. قلت : فابعث إليهما وخذ هذا المال وأمض معهما مصاحباً في ستر الله وموعدك وموعدهما للخروج من داري إلى موضع كذا وكذا في وقت كذا وكذا من الليل. وإذا الجارية قد حفظت على قولي فبعثت مع خادم لها إلى المهدي. وبعث المهدي من وقته ذلك فشحن الطريق والموضع الذي وصفه يعقوب والعلوي برجاله ، فلم يلبث أن جاءوا بالعلوي بعينه وصاحبيه والمال. قال يعقوب: وأصبحت من غد ذلك اليوم فإذا رسول المهدي يستحضرني قال: وكنت خالي الذهن غير ملقي إلى أمر العلوي إلا حين أدخل على المهدي وأجده على كرسي ، فقال لي : يا يعقوب ما حال الرجل؟ قلت: يا أمير المؤمنين قد أراحك الله منه. قال : مات؟ قلت: نعم. قال: والله! قلت : والله. قال : فقال : يا غلام أخرج إلينا ما في هذا البيت، فخرج من بابه العلوي وصاحبيه والمال بعينه قال يعقوب : فبقيت متحيراً، وامتنع من الكلام فما أدري ما أقول.(٢)

عندها إطلع المهدي على خيانة يعقوب وأيقن تمام اليقين ممالاته للعلويين، فقال له : لقد حلّ لي دمك ولو آثرت إراقته لأرقته ولكن أحبسوه في المطبق.(٣)

دُليّ يعقوب في بئر مظلمة لا يرى فيها ضوء ولا يفرق بين بياض الليل وسواده يدلي إليه كل يوم ما يتقون به ومكث في البئر مدة حتى ذهب بصره.(٤)

---

(١) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج١، ص٢٦١، ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١، ص١٤٧، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٦٠، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص٧١-٧٢.

(٢) ابن خلدون : العبد، ج٣، ص٤٤٨، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٧١ - ٧٢، ابن كثير، المصدر السابق، ج١٠، ص١٤٧-١٤٨، ابن خلكان، المصدر السابق، ج٦، ص٢٣.

(٣) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ١٤٨، ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣، ص٤٤٨.

(٤) ابن خلكان، المصدر السابق، ج٦، ص٢٤، ابن كثير، المصدر السابق، ج١٠، ص١٤٨.

ولم يكتف الخليفة المهدي بذلك بل أمر بعزل أصحاب يعقوب عن الولايات في الشرق والغرب وأمر أن يقبض على أهل بيته وأن يحبسوا جميعاً.[1]

ظل يعقوب في المطبق عدة أعوام وفي يوم من الأيام دُلي له حبل وطُلب منه أن يربط نفسه ، فربط نفسه وأخرجوه من البئر فنظفوه وأصلحوا من شأنه وألبسوه ثياباً نظيفة وقادوه إلى الخليفة وقالوا له : سلم على أمير المؤمنين ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين فقيل له : على أي أمير المؤمنين تسلم؟ قال: على أمير المؤمنين المهدي. فسمع صائحاً يقول : رحم الله المهدي، ثم قيل له : سلم على أمير المؤمنين. فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين فقيل له : على أي أمير المؤمنين تسلم؟ فقال : على أمير المؤمنين الهادي. فسمع صائحاً يقول : رحم الله الهادي. ثم قيل له : سلم على أمير المؤمنين. فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقيل له : على أي أمير المؤمنين تسلم؟ قال : على أمير المؤمنين هرون الرشيد فقال له هرون الرشيد: وعليك السلام يا يعقوب ورحمة الله وبركاته.[2]

ويُقال إن يحيى بن خالد البرمكي هو الذي ذكر لهارون الرشيد أمر يعقوب بن داؤود وشفع إليه وأمره بإخراجه فأخرج. وقال له هارون الرشيد : ما تريد يا يعقوب ؟ قال له : يا أمير المؤمنين ما بقي في مستمع ولا بلاغ وأريد المجاورة بمكة. فأمر له هارون الرشيد بما يصله بعد أن رد إليه ماله وذهب إلى مكة وجاور فيها ولم تطل أيامه حتى مات هناك سنة ١٨٦هـ - ٨٠٢م.[3]

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص١٦١، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٦٣.

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٨٦.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٠، ص١٤٨، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٧٢.
ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٣، ابن طباطبا، المصدر السابق، ص١٨٧.
الجهشياري : المصدر السابق، ص١٦١- ١٦٢، الطبري، المصدر السابق ، ص ١٥٨ - ١٥٩.

٣- وزارة الفيض بن أبي صالح

هو الفيض بن أبي صالح من نيسابور ، فارسي الأصل، تربى في كنف الدولة العباسية، وتأدب في ظل العباسيين، فقد كان أهل بيته نصارى فانتقلوا إلى بني العباس وأسلموا.[١]

ولما نكب المهدي يعقوب بن داؤد وحسبه في المطبق استوزر الفيض هذا وفوض إليه أموره.[٢]

وكان الفضل مترفعاً تياهاً ومتكبراً يدخل في نفسه زهو يجعله لا ينحني لأحد حين يسلم، ولو كان ذلك المسلم عليه الخليفة، فقد حكى أنه دخل يوماً على الرشيد فمد يده ليقبلها فلم ينكب عليها ورفعها إلى فيه فقبلها. فقال الرشيد : لولا لؤمه وحمقه لقتلته.[٣]

وقد كان الفيض بن أبي صالح سخياً سرياً كثير الأفضال. وقد سُمع يحيى بن خالد يقول عن كرم الفيض : « أن الفيض بن أبي صالح كان يعلم الناس الكرم.[٤]

كما كان خالد بن برمك - وهو صاحب الكرم الفياض - يقول : لو رأيتم الفيض لصغر عندكم أمري.[٥]

وهناك نادرة للفيض مع شخص يُدعى ابن الجنيد تدل على مبلغ جوده وغاية كرمه، فقد ذكر الجهشياري [٦] أن الفيض بن أبي صالح وأحمد بن الجنيد خرجوا من دار الخليفة منصرفين إلى منازلهم في يوم وحل شديد ، فتقدم الفيض وتلاه أحمد بن الجنيد، فنضخ دابة الفيض على ثياب أحمد بن الجنيد من الوحل فقال أحمد للفيض: هذه والله مسايرة بغيضة ولا أدري بأي حق وجب عليك التقدم علينا. فلم يجب الفيض عن ذلك بشيء. وعندما ذهب إلى منزله بعث إلى أحمد بن الجنيد بمئة تخت وفي كل تخت قميص وسراويل ومبطنة وطيلسان وعمامة وقال لرسوله : قل له : وجب علينا التقدم عليك أن لنا مثل هذا نوجه به إليك عوضاً عما أفسدناه من ثيابك فإن كان لك مثله فلك التقدم علينا وإلا فنحن أحق بالتقدم منك.

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٥.

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٦٤.

(٣) نفس المصدر، ص١٦٤.

(٤) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٨٧.

(٥) الجهشياري : المصدر السابق، ص١٦٤.

(٦) نفس المصدر ، ص١٦٤.

وللفيض نادرة أخرى في الكرم ، فقد حكى لنا الجهشياري [1] أن داؤود كاتب أم جعفر حبس وكيلاً لها وجب عليه حساب من ضياع تقلدها من ضياعها مقداره منتا ألف درهم، فكتب الوكيل إلى عيسى بن داؤود وسهل بن الصباح المدائني، وكانا صديقين له يسألهما مسألة داؤود في أمره، فركبا إليه فلقيهما الفيض في طريقهما له. فيسألهما عن مقصدهما فيخبراه به. فقال لهما الفيض : أتحبان أن أساعدكما؟ فقالا: نعم . فصار معهما إلى داؤود فكلموه ، فكتب إلى أم جعفر بخبرهم وما قصدوا له فوقعت في الرقعة «إنه لا سبيل لإطلاقه إلا بأداء المال» فاقرأهم داؤد الرقعة واعتذر إليهم. فعزم عيسى على القيام. فقال له الفيض. كأنما جئنا لنؤكد حبس الرجل، والله لتؤدي المال عنه ثم أخذ الرواة وكتب إلى وكيله في حمل المال عن الرجل كتاباً دفعه إلى داؤود كاتب أم جعفر وقال له : قد أزحنا علتك في المال فادفع إلينا صاحبنا فكتب إلى أم جعفر بالخبر فوقعت أم جعفر «أنا أولـــى بهذه المكرمـــة من الفيض فأردد عليه كتابه وأدفع إليه الرجل وأمره أن لا يعاود إلى مثل ما كـــان منه» . وكان الفيض قـــد ساعد هذا الرجل لسعة جوده وفيض كرمه إلا أنه لم يكن يعرفه.

ولهذه الصفة الجليلة في الفيض مدحه العديد من الشعراء فمنهم من قال فيه :

ولائمة لامتك يا فيـــض في النـــدى   فقلت لها لن يقـــدح اللوم في البحر

أرادت لتثني الفيض عن سنن الندى   ومن ذا الذي يثني السحاب عن القطر [2]

ومع أن الفيض كان سخياً ومفضالاً وكريماً إلا أنه كان كثير الكبر عظيم التيه.[3]

وقد قال فيه أحد الشعراء :

أبا جعفر جئنـــاك نسأل سائـــلاً   فأعوزنا من دون نائلـــك البشر

فما برقت بالوعـد منك غمامـــة   يُرجى من سيب نائلك القطـــر [4]

---

(١) الوزراء والكتاب، ص١٦٥ - ١٦٦.

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٨٧.

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٥.

(٤) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص١٨٧.

كما قال فيه شاعر آخر :

يا حابسي ظلمـــاً عن حاجتـــي   أحوجـك اللـــه إلـــى الفضـــل
ذاك الـــذي يأتيـــك معروفـــه   كأنمـــا يمشي علـــى البيـــض[1]

استمر الفيض بن أبي صلاح في وزارته للمهدي حتى وفاه المهدي، فلما تولى الهادي نحاه عن وزارته، وظل بعيداً عن الوزارة حتى وفاته سنة ١٧٣هـ - ٧٨٩م.[2]

وهذا الوزير أكثر الكتب لا تذكر عنه شيئاً سوى أنه أحد وزراء المهدي، وأنه اشتهر بالكرم والكبر معاً. وربما كان السبـــب في ذلك قصر وزارته، فلم يستطيع أن يقوم بعمل يذكـــر، أو ربما كـــان السبب هـــو إتعاظ المهدي من وزيريه السابقين معاوية بن عبيـــد الله ويعقوب بـــن داؤد، فأكتفى بأن يجعل له وزير اسمياً وليس فعلياً.

(١) ابن خلكان :وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٥.

(٢) الجهشياري :الوزراء والكتاب، ص١٦٤، ابن خلكان، المصدر السابق، ج٦، ص٢٥.

٣- وزارة إبراهيم بن ذكوان الحراني (وزير الهادي)

بعدما تولى الهادي الخلافة استوزر الربيع بن يونس، لكن ما لبث أن صرفه عن وزارته وقلدها إبراهيم بن ذكوان الحراني الأعور.[١]

وصلة الهادي بإبراهيم الحراني ترجع إلى عهد الصبا، فكان معلم موسى الهادي يدخل عليه ويقحم إبراهيم الحراني نفسه معه ويدخل على موسى فيلتقيان ويتحادثان، فخف إبراهيم على قلب موسى وصارا صديقين متلازمين.[٢] وحينما أنفذ المهدي ابنه الهادي إلى جرجان أخذ معه صديقه إبراهيم وبقى معه بها. إلا أن بعض الناس سعوا بإبراهيم عند المهدي. وأبلغوا عنه أموراً كره معها أن يكون هذا مختصاً بابنه ومصاحباً له. فأرسل إلى ابنه الهادي ينهاه عن صحبته، فلم يسمع الهادي لأبيه، لذا أخذ المهدي يهدده بخلعه من ولاية العهد وإسقاط منزلته. ولما لم يجد الهادي بداً من إرسال إبراهيم إلى أبيه حمله مع بعض خدمه وقال لخادمه : إذا دنوت من محل المهدي فقيده وأحمله في محمل بغير وطاء وأدخله إليه بهذه الصورة. ففعل الخادم ما أمره به الهادي. ولما وصل إلى المهدي وجده قد همّ بالركوب إلى الصيد، فلما رآهم سأل عنه فقيل له : خادم موسى الهادي يحمل إليك إبراهيم الحراني فقال المهدي : وما حاجتنا إلى الصيد؟ وهل صيد أطيب من صيد إبراهيم؟ عليّ به فلما أدنى منه إبراهيم قال : يا إبراهيم والله لأقتلنك ثم والله لأقتلنك ثم والله لأقتلنك ، أمض به يا خادم إلى المضرب إلى أن أنصرف فصار به الخادم إلى المضرب، وقد يئس إبراهيم من نفسه، وانصرف إلى الله انصراف المحزون اليائس في نفسه وصلى ودعا الله. وانصرف المهدي إلى صيده الذي لم يرجع منه حيث مات مسموماً من أثر طعام أكله وبذلك نجا إبراهيم من الموت ، ولم تمض فترة حتى كان وزيراً للهادي.[٣]

استوزر الهادي الحراني ونزل من نفسه منزلة عظيمة حتى يقال : إن الحراني عندما مات ابنه ذهب إليه الهادي في منزله وعزاه قائلاً : سرّك وهو بلية وفتنة ، وحزنك وهو ثواب ورحمة.[٤]

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٦٧.

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٩٢.

(٣) الجهشياري : المصدر السابق، ص١٦٨.

(٤) نفس المصدر ، ص١٧٠.

وممن اتصل بإبراهيم الحراني بعد وزارته يحيى بن خالد البرمكي، الذي كان هواه مع الرشيد فأراد أن يضع له عيناً في الديوان ينقل إليه الأخبار ويعلمه بكل ما يجري من الشئون. وكانت صلة يحى بإبراهيم طيبة فتوسط لإسماعيل ابن صبيح وجعله يوليه ديوان زمام الشام وما يليها فعلم بذلك الهادي، وعلم أن لهرون عيناً عليه في ديوانه فجاء بإبراهيم وسأله. ولكن يحيى بن خالد كان قد علم هذا فأشار على إسماعيل أن يخرج إلى حران فخرج إليها وبذلك نجا إسماعيل ووجد إبراهيم لنفسه مخرجاً أمام الخليفة، فإنه لما سأله عن إسماعيل أخبره أنه مقيم في حران وأنه لا يتولى عملاً فكيف يكون عيناً لهرون عليه.[1]

ظلّ الحراني وزيراً للهادي إلى أن توفى الهادي وتولى الخلافة بعده الرشيد الذي سخط على إبراهيم الحراني وحبسه في دار يحي بن خالد وقبض أمواله.[2]

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص ١٦٨.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٣٣.

الفصل الثاني

الوزارة في خلافة هارون الرشيد

المبحث الأول

البرامكة وزراء هارون الرشيد

١ - أصل البرامكة

٢- يحيى البرمكي وأولاده وزراء هارون الرشيد

١ - يحيى بن خالد البرمكي

٢- الفضل بن يحيى البرمكي

٣- جعفر بن يحيى البرمكي

٣- كرم البرامكة ومدح الشعراء لهم

المبحث الثاني

نكبة البرامكة

١ - ارهاصات نكبة البرامكة

٢- أسباب نكبة البرامكة

٣- النكبة وآثارها

٤- رثاء الشعراء للبرامكة

٥- وزير الخليفة بعد بني برمك «الفضل بن الربيع»

المبحث الأول

البرامكــــة وزراء هــــارون الرشيـــد

أ - أصل البرامكة

البرامكة من أصل فارسي ينتسبون إلى أشراف مدينة بلخ [1]، كان جدهم من سدنة النوبهار [2] وكل من يوكل بخدمة النوبهار يدعى برمك ، من أجل ذلك سموا بالبرامكة، لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت .[3]

إلا أن ياقوت الحموي [4] ذكر أن اسم البرامكة نسبة إلى آل برمك كالمهالبة والمزارية وهو اسم محلة ببغداد وقرية منها اسحق بن أحمد بن خالد البرمكي البغدادي، فقد كان اسلافه يسكنون محلة ببغداد تعرف بالبرامكة .

ويؤكد ذلك السمعاني [5] الذي يقول : أن لفظة برمك نسبة إلى اسم موضع نسب إليه أبناء خالد.

---

(١) بلخ : مدينة عظيمة من أمهات خراسان بناها منوشهر بن إيراج أفريدون (القزويني «زكريا بن محمد» أثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٣٨٠هـ- ١٩٦٠م ص٣٣)، وهي من أجلّ مدن خراسان وأكثرها خيراً وأوسعها غلة (ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد الأول، بيروت، ١٩٥، ص٧٤٩).

(٢) النوبهار : هو من أعظم بيوت الأصنام، عندما سمع ملوك ذلك الزمان بشرف الكعبة واحترام العرب لها بنوا هذا البيت مضاة للكعبة وزينوه بالديباج والحرير والجواهر الثمينة ونصبوا حوله الأصنام والفرس تعظمه وتحج إليه كل عام وتهدي إليه الهدية (القزويني، المصدر السابق، ص٣٣١).

كان طول هذا البيت ١٠٠ ذراع وارتفاعه أكثر من ذلك، لذلك كان بنيانه أعلى البنيان تشييداً، وكانت تنصب أعلاه الرماح عليها شقاق الحرير الأخضر طول الشقة ١٠٠ ذراع قد نصب لذلك رماح وخشب تدفع قوة الريح بما عليها من الحرير، ويُقال إن الريح خطفت يوماً بعض تلك الشقائق ورمت بها فأصيب على مسافة خمسين فرسخاً، وهذا يدل على زيادته في الجو وتشييد بنيانه (المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٢٣٩).

ولعل عظمة البنيان هذه تدل على عظمته وعظمة من يتولى أمره، فقد كان برمك الذي يتولى سدنته تعظمه الملوك وتنقاد إلى أمره وترجع إلى حكمه وتحمل إليه الأموال ، وكانت عليه وقوف (نفس المصدر، ج٣، ص٢٣٩).

بـل كـان ملوك الهنـد والصين يأتـون إليه، فإذا وافـوه سجدوا للصنم وقبلـوا يـد برمك (القزويـنـي ، المصدر السابـق، ص٣٣١).

(٣) دائـرة المعارف الإسلامية، المجلد الثالث، مادة برامكة، ٤٩٢.

(٤) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٣، ص٣٦٨.

(٥) الأنساب، ليدن، ١٩١٢م، ص٧٦.

١ - يحيى بن خالد البرمكي

عندما تولى هارون الرشيد الخلافة دعا إليه يحيى بن خالد البرمكي وخاطبه قائلاً له : «يا أبتي [١] أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فأحكم بما ترى واستعمل من شئت وأعزل من رأيت وأفرض من رأيت وأسقط من رأيت فأني غير ناظر معك في شيء». [٢] كما دفع إليه خاتمه ، وفي ذلك فيقول الشعراء :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة ** فلما تولى هارون أشرق نورها

يمين أمين الله هارون الندى ** فهرون وليها ويحيى وزيرها [٣]

ولعل السبب في هذه الوزارة كما يقول ابن طباطبا [٤] هو « أن هارون الرشيد كان يرى أن ليحيى أيادي عظيمة عنده ».

فالدور الذي قام به يحيى البرمكي في ساحة الأحداث السياسية في خلافة الهادي يعتبر من أعظم أياديه عند هارون الرشيد. فعندما تنكر لها هارون الرشيد وعزم على الغدر به - فقد عزم على خلعه وتقليد ابنه جعفر بن موسى وهو طفل - كاد هارون أن ينقاد لرغبة الهادي ويتنازل عن حقه في ولاية العهد وبذل له موسى الهادي أعمال الرقه. إلا أن يحيى البرمكي منعه من هذا التنازل. فقال هارون ليحيى : لو نزلت عليّ «الهنى والمرى» وخلوت بابنة عمي - يعني زبيدة وكان يجد بها وجداً شديداً - فما أريد شيئاً. فقال يحيى لهارون الرشيد : إنها الخلافة ولعل ما تقدر أنه يبقى لك لا يبقى. ولم يزل يحيى في اقناعه بكل الوسائل والطرق ويثنيه عن رغبته في التنازل إلى أن انصاع في نهاية الأمر لرأي يحيى وتمسك بحقه. [٥]

ويرجع ابن طباطبا [٦] السبب في إرغام يحيى البرمكي لهارون الرشيد على التمسك بولاية العهد هو «أن يحيى البرمكي كان كاتب هارون الرشيد وهو يترجى أن يتولى هارون الرشيد الخلافة فيصير هو وزير دولته».

---

(١) يا أبتي : كان يخاطبه بالأبوة للرضاع الذي بينه وبين الفضل بن يحيى. (ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٠٤. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٣، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٧٣).

(٢) المسعودي : مروج الذهب، ج٣، ص٣٤٨، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٤٤، ابن كثير، المصدر السابق، ج١٠،ص١٦٠.

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٣٣.

(٤) الفخري في الآداب السلطانية، ص١٩٩.

(٥) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ١٦٩- ١٧٠.

ولما علم موسى الهادي أن يحيى البرمكي هو السبب في هذا الإرغام من جانب هارون الرشيد دعا بيحيى البرمكي وأكرمه ورفق به كما وصله بإقطاع وهب له عشرين ألف دينار. وبعد ذلك حادثه في خلع أخيه هارون والمبايعة، لابنه جعفر بدلاً منه، فنصحه يحيى البرمكي قائلاً له « يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الإيمان هانت عليهم إيمانهم وجرأتهم على حل العقود التي تعقد عليهم ولو تركت الأمر في بيعة أخيك بحاله ثم بويع لجعفر بعده كان ذلك أوكد لبيعته» فاقتنع الهادي بوجهه نظره في ذلك. إلا أن حب ابنه جعفر غلب عليه فسرعان ما غير وبدل رأيه ثم رد الأمر مرة أخرى إلى يحيى الذي أجابه في هذه المرة قائلاً : « يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان ما نعوذ بالله منه - يعني الموت- قبل بلوغ جعفر وقد خلعت هارون فأنه لا تتم الخلافة لمن يبلغ الحلم فدع هذا الأمر حتى يبايعه عفواً والله يا أمير المؤمنين فإنك إن فعلت هذا وحدث مانعوذ بالله منه وثب على هذا الأمر أكابر أهلك وخرج الأمر عن ولد أبيك ، ووالله لو لم يعقد المهدي لهارون لوجب أن تعقد له ليكون في بني أبيك».[١]

استعقل موسى الهادي ذلك القول من يحيى البرمكي وركن بعض الشيء لوجهه نظره في الأمر إلا أنه اضطر مكرهاً لتغيير رأيه حيث اجتمع إليه جماعة من القواد وطالبوه بأن يخلع هارون الرشيد من ولاية العهد ، ويبايع جعفراً بدلاً منه. إلا أن يحيى كان يثنيه كل مرة عن ذلك ويبين له الخلل الذي سينشأ من ذلك واستحكم الأمر بين موسى الهادي ويحيى البرمكي إلى أن وصل مرحلة الخلاف بينهما. واضطر الهادي إلى أن يحبس يحيى البرمكي للقتل. إلا أن الهادي مات قبل أن ينفذ أمره فيه. فأطلقت الخيزران سراح يحيى البرمكي وبذلك نجا من الموت.[٢]

هذا الدور الذي لعبه يحيى البرمكي جعل الرشيد يعظمه ويقدره ويحفظ له حقه فكانت مكافأته على ذلك أن قلده وزارته.[٣]

وما أن قلد الرشيد يحيى البرمكي الوزارة حتى نهض يحيى بأعباء الدولة أتم نهوض وسد الثغور وتدارك الخلل وجبى الأموال وعمر الأطراف وأظهر رونق الخلافة.[٤]

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٣٩، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٠٨، الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، ج٢، ص١١٢.

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ١٧٤-١٧٥، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص٢٠٩.

(٣) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٩٨.

(٤) نفس المصدر، ص١٩٨.

وقد كان يحيى البرمكي لا يصدر أمراً إلا بمشورة الخيزران ، فقد كان يعرض عليها الأمور جميعاً ويصدر عن رأيها ما كانت الخيزران تميل هي الأخرى إلى يحيى بن خالد وتستشيره وتعمل بمشورته، فقد استشارته يوماً في أمر الذين تسرعوا في خلع هارون الرشيد ودعوا بالبيعة إلى جعفر فأشار عليها يحيى «بأن يرمي بهم في نحور الأعداء فإن دافعوا عنها كان لهم في الدفاع عنها شغل، وإن أصابهم العدو كنت قد استرحت منهم» فصح رأي يحيى وتخلصوا من القوم جميعاً.[1]

كما وثق فيه هارون الرشيد ثقه تجعله يستقل بمكاتبة العمال. فقد كانت الكتب التي تنفذ من ديوان الخراج تؤرخ باسم يحيى ولا تنفذ إلا عن الخليفة، وكانت هذه الطريقة تؤخر الكتب، فشكا يحيى ذلك الأمر للخليفة ، فما كان منه إلا أن أمره بأن يكاتب العمال عن نفسه وأن تؤرخ الكتب باسم الكاتب. فساعده ذلك في أداء مهمته دون تأخير.[2]

والحقيقة أن يحيى كان دقيقاً وضابطاً لما تحت يده من أمور [3] ولعل ما يدل على استعداده الإداري وحسن سياسته في العمل وصيته لأبنائه قائلاً لهم : «لابد لكم من كتاب وعمال وأعوان فاستعينوا بالاشراف وإيام وسفلة النـاس فإن النعمة على الأشراف أبقى وهي بهم أحسن، والمعروف عندهم أشهر والشكر منهم أكثر».[4]

كما كان يحيى البرمكي طوال فترة وزارته جامعاً لجميل الصفات وممدوحاً بكل لسان.[5]

فمن جميل صفاته الحلم -وحُدث أنه في أحد المرات كان يتكلم مع أصدقائه في الوقت الذي كان فيه الخدم يعبثون ويترامون بالبطيخ ، فطارت منهم بطيخة أصابت وجه يحيى البرمكي. إلا أن يحيى لم يغضب ولم يثور لذل الأمر. وعندما سئل عن السبب في عدم غضبه على استهتار هؤلاء الخدم أجاب قائلاً « اللهم غفراً نحن نحب أن نؤمن من بعدنا فكيف نخيف من كان على بساطنا.[6]

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٠٤، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ٢٣٤.

(٢) الجهشياري : الوزراء والتاب، ص١٧٨.

(٣) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٩٨.

(٤) الجهشياري المصدر السابق، ص١٧٩.

(٥) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص١٩٨.

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٢٣.

كما كان يحيى من البلغاء، وله أقوال كثيرة تدل على ذلك، فمن أقواله : ثلاثة أشياء تدل على عقول أصحابها الهدية والكاتب والرسول. كما كان يقول : الدنيا دول والمال عارية ولنا فيمن قبلنا أسوة ولمن بعدنا عبرة. ويقول : التعزية بعد ثلاث تجديد للمصيبة والتهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمودة.[1]

ولعل من أبلغ الأقوال التي عرفت عن يحيى وصاياه لأولاده قائلاً لهم « أكتبوا أحسن ماتسمعون واحفظوا ما تكتبون وتحدثوا بأحسن ما تحفظون» وكان يقول لهم : « إذا أقبلت الدنيا فأنفقوا منها فإنها لا تبقى، وإذا أدبرت فأنفقوا منها فإنها لا تبقى». كما يقول لهم : «خذوا من كل شيء طرفاً فإن من جهل شيء عاداه».[2]

كما كان يحيى أديباً [3] يحب البحث والمناظرة وقد كان له مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل الملل والنحل.[4]

وهو أول من زاد في الكتب : «وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله» وأنشأ في ذلك كتاب ذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام.[5]

أما في الدولة فقد تصدى لمهمات المملكة [6] وقام بالعديد من الإصلاحات التي حصرها لنا الجهشياري [7] بقوله : «احتفر القاطول واستخرج نهراً سماه «أبا الجند» وأنفق عليه عشرين ألف ألف درهم. وأمر بإجراء القمح على أهل الحرمين وتقدم بحمله من مصر إليهم، كما أجرى على المهاجرين والأنصار وعلى وجوه أهل الأمصار ، وعلى أهل الدين والآداب والمروءات واتخذ كتابين لليتامى.

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب. ص٢٠٠.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٠٤، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٢٣.

(٣) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٩٨.

(٤) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص٢٨٣، أبو الخشب (إبراهيم علي) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول، ج١، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٦٧، شلبي، التاريخ الإسلامي، ج٣، ص٢٧٦.

(٥) الجهشياري، المصدر السابق، ص١٧٧.

(٦) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص١٩٨، شلبي، المرجع السابق، ج٣، ص٢٧٦.

(٧) المصدر السابق، ص١٧٧، شلبي، المرجع السابق، ج٣، ص٢٧٧.

٢- الفضل بن يحيى البرمكي

هو الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك بن ماجاساس بن يشتاسف البرمكي.(١) وهو أخ الرشيد في الرضاع، فقد أرضعت أمه وتسمى «زبيدة» هارون الرشيد، كما أرضعت الخيزران أم الرشيد جعفر، ويقول الشعراء في ذلك :ـ

كفى لك فخراً أن أكرم حـرة ** غذتـك والخليفة بشـدي واحـد

لقد زنت يحيى في المشاهد كلها ** كما زان يحيى خالداً في المشاهـد (٢)

قربه هارون الرشيد إليه، وفي سنة ١٧٦هـ- ٧٩٢ م قلده المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك، فسار إلى عمله فيها سنة ١٧٨هـ- ٧٩٤م حيث ودعه هارون الرشيد والأشراف والوجوه.(٣)

وفي نفس هذه السنة التي قلد فيها ذلك العمل خرج يحيى بن عبدالله العلوي واستولى على جرجان وطبرستان وكل جبال جيلان، وقوى أمره فقلق هارون قلقاً شديداً من ذلك الأمر، لأنه كان قد قرأ في الكتب أن أول خلل يقع في الدولة العباسية على يد علوي يخرج في طبرستان.(٤)

انزعج هارون الرشيد لذلك الأمر، وشغل تفكيره فوجد ضالته في البرامكة، فأستدعى يحيى البرمكي قائلاً له : « إن هذا العمل مما يستطيع قائد العمل على إزالته، فإما أن أذهب بنفسي أو تذهب أنت أو يذهب أحد ولديك» ، فرد عليه يحيى قائلاً له: «إنه لا يجوز للخليفة أن يذهب بنفسه لمواجهة كل من يخرج على الدولة، وأنا يجب عليّ أن أبقى مع الخليفة لأدبر شئون الرجال والمال، أما ولداي الفضل وجعفر فهما طوع رأي أمير المؤمنين ليبادروا بأمره.(٥)

وقع اختيار الخليفة في ذلك الأمر على الفضل بن يحيى. وقد قال الشعراء في هذا الاختيار والتفضيل أشعار كثيرة، ومن ذلك قول أحدهم :

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٣٢٨.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٢١٠، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٣٠، ابن خلكان، المصدر السابق، ج. ص٣٢٩، ابن طباطبا، الفخري، ص٢٠٢، شلبي، التاريخ الإسلامي، ج٣، ص٢٢٧.

(٣) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٣، الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٩٠.

(٤) الطبري : المصدر السابق، ج٨، ص٢٤٢، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي، ج٢، ص٥٦.

(٥) البيهقي : تاريخ البيهقي، ص٤٤٠، شلبي، المرجع السابق، ج٣، ص١٧٨، الخضري، محاضرات في التاريخ الإسلامي والأمم الإسلامية، ج٢، ص١١٤.

رأى الله تفضيل الفضل بن يحيى بن خالد ** ففضـله واللـه بالنـاس أعلـم

لـه يوم بـؤس فيـه للنـاس أبـوس ** ويـوم نعيـم فيـه للنـاس أنعـم [١]

وبعد أن تم اختياره أسند إليه الخليفة ولاية خراسات والري وجبال خوازم وما وراء النهر على أن يقيم في الري ويرسل نوابه إلى المدن ويتولى أمر ذلك الثائر ويكفيهم أمره صلحاً أو حرباً. [٢]

بعد ذلك سار الفضل إلى النهروان في خمسين ألف فارس والقادة والمتقدمين ونزل في الري، وأرسل الطليعة في عشرين ألف فارس على طريق دنباوند في طبرستان ، وفرق باقي الجيش مع القادة في أنحاء خراسان، ثم أرسل بعد ذلك إلى يحيى بن عبدالله العلوي كتبه « بالرفق والاستمالة والتحذير والترغيب والترهيب وبسط الأمل» حتى استجاب أخيراً إلى الصلح شرط أن يرسل إليه هارون الرشيد عهداً بخطه على النسخة التي يحددها العلوي بنفسه. [٣]

قام الفضل برفع ذلك الأمر للخليفة هارون الرشيد مخبراً إياه بالشرط الذي اشترطه يحيى العلوي. فقبل الخليفة ذلك الأمر وفرح به كثيراً ، وما كان من العلوي إلا أن أرسل النسخة مع رسول من ثقاته، وكتب هارون على النسخة بخطه وأشهد عليها قضاة عدوى بعد أن حلف اليمين. وعندما إطمأن العلوي لذلك العهد جاء بنفسه إلى الفضل وسار معه الفضل إلى بغداد فرحب به هارون الرشيد وأجزل له العطاء. [٤]

وقد مدح الشعراء الفضل بهذا النصر وهذا الإنجاز العظيم ، ومن ذلك قولهم :ـ

ظفـرت فـلا شلـت يـد برمكـية ** رتـق بها الفتـق الـذي بين هاشـم

على حـين أعيـا الراتقـين التئامـه ** فكفـوا وقـالوا ليـس بالمتـلائـم

فأصبحـت قد فـازت يـداك بخطة ** من المجـد باق ذكـرها فـي المواسم

ومازال قـدح الملـك يخـرج فائـزاً ** لكم كلمـا ضمن قـداح المساهـم [٥]

وبعد أن أنجز الفضل مهمته في اخضاع يحيى بن عبدالله العلوي رجع إلى مكان عمله في خراسان ويُقال إنه في فترة إقامتهما بخراسان تشاغل باللهو والصيد. يقول فيها قائلها « إن الفضل بن يحيى

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٢١٠، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٩٠.
(٢) البيهقي : تاريخ البيهقي، ص٤٤٠.
(٣) نفس المصدر، ص٤٤١.
(٤) ابن طباطبا : الفخري، ص١٩٤، الجهشياري، المصدر السابق، ص١٩٠.
(٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٤٣.

تشاغل بالصيد وإدمان اللذات عن النظر في أمور الرعية». ترك هارون الرشيد ذلك الأمر لوالده يحيى الذي مد يده على الفور إلى دواة الخليفة وكتب إلى ابنه قائلاً : « حفظك الله يا بني وأمتع بك قد علم أمير المؤمنين ما أنت فيه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية، فعاود ما هو أزين لك فإنه من عاد إلى ما يزينه لم يعرفه أهل والسلام». وكتب في أسفله هذه الأبيات :ـ

أنصب نهاراً في طلاب العلا ** وأصبر على فقد لقاء الحبيب

حتى إذا الليل بدأ مقبلاً ** واستترت فيه وجوه العيوب

فبادر الليل بما تشتهي ** فإنما الليل نهار الأديب

كم من فتى تحسبه ناسكاً ** يستقبل الليل بأمر عجيب

ألقى عليه الليل أستاره ** فبات في لهو وعيش خصيب

ولذة الأحمق مكشوفة ** يسعى بها كل عدو رقيب

وعندما بلغ ذلك الكتاب الفضل لم يفارق المسجد نهاراً إلى أن انصرف عن عمله.[١]

وفي أثناء مقام الفضل بخراسان قام بإنجازات عظيمة في المجال الإداري والسياسي، ولعل من أبرز أعماله السياسية هناك هي قيامه بأخذ البيعة لمحمد بن هارون الرشيد بولاية العهد بعد والده هارون الرشيد، وسماه محمد الأمين وكان عمره في ذلك الوقت خمس سنوات، أي أنه ما زال طفلاً.[٢]

كما زاد الفضل من الجند والقواد، وفي ذلك يقول الطبري [٣] «إن الفضل إتخذ جنداً من العجم سماهم العباسية، وجعل ولاءهم لهم. وأن عدتهم بلغت ٥٠٠ ألف رجل، وأنه قدم إلى بغداد ٢٠ ألف رجل فسموا في بغداد «الكرنبية» وخلف الباقي منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم».

كما فتح الفضل بلاداً كثيرة منها كابل وما وراء النهر، وقد قهر ملك الترك الذي كان ممتنعاً.[٤]

وفي خراسان قام الفضل بأعمال جليلة لخدمة الإسلام والمسلمين، وهي هدم جزء من بيت النوبهار، ولم يستطع هدمه كله لوثاقته ومتانة بنيانه بل هدم منه قطعة واحدة وبنى فيها مسجداً.[٥]

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٧٨.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٤٠.

(٣) نفس المصدر، ج٨، ص٢٥٧، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٩١.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٧٣، الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، ج٢، ص١١٤.

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٤٦.

كما قام بإنجازات عظيمة في مجال الإصلاحات، فقد بنى عدد من المساجد والرّباطات والحياض وأحرق دفاتر البقايا.[١]

مكث الفضل في خراسان سنتين ثم طلب بعد ذلك أن يُعفى من منصبه. وأجيب إلى طلبه وعاد إلى بغداد .[٢]

ولما قدم الفضل من خراسان خرج هارون الرشيد إلى بستان أبي جعفر لاستقباله. كما استقبله القواد والكتاب والأشراف، وأكرمه هارون الرشيد غاية الإكرام، وأمر الشعراء بمدحه والخطباء بذكر فضله.[٣]

وعندما أمر الخليفة الشعراء بذلك كثر المادحون له لدرجة أنه عين الفضل أحدهم ويسمى «أحمد بن سيار الجرجاني» ليميز أشعار الشعراء ويعطيهم على قدر استحقاقهم.[٤]

كان الفضل بن يحيى طول فترة توليه أعمال الرشيد متجملاً بأجمل الصفات، إلا أنه كان متكبراً، وقد نصحه والده بترك الكبر عندما دخل عليه يوماً وهو يتبختر في مشيته قائلاً له : « إن البخل والجهل مع التواضع أزين بالرجل من الكبر مع السخاء فيالها من حسنة غطت على عيبين عظيمين ويالها من سيئة غطت على حسنتين كبيرتين.[٥]

ولعل من أبرز صفات الفضل والتي تعتبر صفة نادرة في ذلك العصر أنه كان لا يشرب النبيذ ويقول :« لو علمت أن الماء ينقص مرؤتي ما شربته ».[٦]

ولجميل صفاته وحسن أخلاقه كان والده يحيى يميل إليه كثيراً من أخيه جعفر على عكس هارون الذي كان يميل كثيراً إلى جعفر.[٧]

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب ص١٩١، ابن خلكان، المصدر السابق، ج٢، ص١٤٦، كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، ج٢، القاهرة، ١٩٩م، ص٢١٩، الخضري، المرجع السابق، ج٢، ص١١٤، شلبي، التاريخ الإسلامي، ج٣، ص١٧١.

(٢) البيهقي : تاريخ البيهقي، ص٤٤٢، الخضري، المرجع السابق، ج٢، ص١١٥.

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٥٩.

(٤) الجهشياري :المصدر السابق، ص١٩٢.

(٥) نفس المصدر، ص١٩٨.

(٦) نفس المصدر، ص١٩٤.

(٧) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٠٢.

٣- جعفر بن يحيى البرمكي

هو جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك بن ماجاساس بن يشتاسف البرمكي.[١]

كان جعفر البرمكي من علو القدر ونفاذ الأمر وعظم المحل وجلال المنزلة عند الرشيد على حالة انفرد بها ولم يشاركه فيها أحد.[٢]

فقد نال حظوة عند الرشيد الذي أحبه وقربه إليه وأنس به أكثر منه أخيه الفضل، ولعل السبب في هذه المحبة والقربة « لسهولة أخلاق جعفر وشراسة الفضل ».[٣]

ولهذا الحب كان هارون الرشيد يقول ليحيى : أنت للفضل وأنا لجعفر.[٤] كما قال له يوماً : يا أبي ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفر بذلك؟ فقال يحيى : لأن الفضل يخلفني فضمّ الرشيد إلى جعفر أعمال كأعمال الفضل. إلا أن يحيى البرمكي والد جعفر أشار على الرشيد بأن خدمته ومنادمته تشغلانه عن هذه الأعمال ، فجعل إليه أمر دار الرشيد وبذلك سُمي الوزير الصغير أيضاً.[٥]

وقد بلغ من تمكن جعفر من قلب الخليفة درجة أن الخليفة هارون الرشيد اتخذ ثوب له زيقان ، فكان يلبسه هو وجعفر جملة.[٦]

كما قلده بريد الآفاق ودور الضرب والطرز في جميع المناطق [٧]، وهذه المهمة زادت كثيراً من مكانة جعفر البرمكي لأنه لم يسند هذا الأمر إلى شخص قبله، فقد كان الخلفاء قبل هارون الرشيد يتولون النظر في عيار الدراهم والدنانير بأنفسهم، بل ذهب الرشيد إلى أبعد من ذلك فأمر بنقش اسم جعفر على الدنانير والدراهم بمدينة المحمدية والسلام.[٨]

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٣٢٨.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٩٥، محمد الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، ج٢، ص١١٥، شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج٣، ص٢٧٩.

(٣) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٩٥، الخضري، المرجع السابق، ص١١٥.

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٨٩.

(٥) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص٢٠٥.

(٦) ابن خلكان : المصدر السابق، ج١، ص٣٣٢.

(٧) الجهشياري : المصدر السابق، ص٢٠٤.

(٨) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) : شذور العقود في ذكر النقود القديمة والإسلامية، تحقيق: الطباطباني، النجف، ١٣٥٦هـ، ص١٢، شلبي، المرجع السابق، ج٣، ص٢٧٩.

صار حب الرشيد لجعفر البرمكي يزداد يوماً بعد يوم فأصبح يقلده كل يوم عملاً جديداً، ومن ذلك نقله ديوان الخاتم من الفضل إليه، وقد خاطب هارون الرشيد في ذلك الأمر والده يحيى قائلاً له : قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر، وقد استحيت من مكاتبته في هذا المعنى، فأكتب أنت إليه. فكتب يحيى إلى الفضل قائلاً له : « قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك إلى شمالك» فكان رد الفضل على ذلك الأمر أن قال له : « قد سمعت لما أمر به أمير المؤمنين في ذلك، وما انتقلت عني نعمة صارت إليه ، ولا غربت عني رتبة طلعت عليه» ، وعندما بلغ ذلك القول جعفر إستعقل أخيه قائلا : « لله درّ أخي ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه، وأقوى مِنة العقل عنده ، وأوسع في البلاغة ذرعة». [(1)]

قوى مركز جعفر في دولة هارون الرشيد، وأصبح ساعده الأيمن، كما أصبح يتدخل معه في كل صغيرة وكبيرة بصورة أقلقت يحيى والد جعفر ، وجعلته يتخوف من عاقبة ذلك التدخل، فكتب يحيى إلى هارون الرشيد مخاطباً له : « يا أمير المؤمنين إني أكره مداخلة جعفر ولست آمن أن ترجع العاقبة علي في ذلك منك، فلو أعفيته على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان أحب إلى وأولى بتفضلك وآمن عليه عندي». إلا أن هارون الرشيد أساء فهمه في ذلك الأمر، فرد عليه قائلاً له : « ليس بك هذا ولكن بك أن تقدم عليه الفضل». [(2)]

لعب جعفر البرمكي أدواراً هامة في توجيه سياسة الدولة ، فقد ولاه هارون الرشيد في سنة ١٧٦هـ-٧٩٢م خراسان ومصر والشام. [(3)]

وفي سنة ١٨٠هـ - ٧٩٦م هاجت العصبية في الشام بين النزارية - وعلى رأسها أبو الهيدام- وبين اليمانية ، والسبب في هذه العصبية هو أن عامل الرشيد بدمشق قد قتل أخا أبو الهيدام الذي خرج بالشام وجمع الجموع، فتحيّل هارون الرشيد في القبض عليه فأرسل إليه أخاً له ليأتيه به، فتحيّل به أخوه حتى قبض عليه هارون الرشيد وشدّ وثاقه ، إلا أن هارون الرشيد منّ عليه وأطلقه. [(4)]

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٤٥، ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٠. شلبي، التاريخ الإسلامي، ج٣، ص١٧٨.

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٢٥.

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٥٢، الجهشياري، المصدر السابق، ص١٩٠.

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٦٧، الخضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ج٢، ص١٦، شلبي، المرجع السابق، ج٣، ص٢٨٢.

لكن ما لبثت أن هاجت العصبية مرة أخرى في تلك السنة التي انتدب فيها هارون الرشيد جعفر البرمكي قائلاً له : « إما أن تخرج أنت إليها، وإما أن أخرج أنا ». فخرج جعفر من الرقة يريد الشام يشيعه هارون الرشيد ، وخرج معه جميع من بحضرته من الوجوه والأشراف ومعهم عبد الملك بن صالح بن علي. وعندما وصل جعفر إلى الشام أصلحها وظفر بجماعة ممن سعى بالفساد وشرد آخرين حتى استقامت إمورها أحسن استقامة ، وخمدت الشرور وظهر السرور. وله خطبة خطبها بعد ذلك دلت على بلاغته وحسن بيانه وطلاقة لسانه، يقول في مقدمتها : « الحمد لله الذي لم يمنعه غناه عن الخلق من العائدة عليهم، ولم تمنعه إساءتهم من الرحمة لهم. دعاهم من طاعته لما ينجيهم وزادهم من معصيته عما يرديهم كلفهم من العمل دون طاقتهم ، وأعطاهم من النعم فوق كفايتهم، فهم فيما حُملوا مخفف عنهم ، وفيما خولوا موسع عليهم... ».[1]

وقد قيل في هذا النصر الذي انتصره جعفر أشعار حسان منها قول أحدهم :-

لقد أوقدت في الشام نيران الفتنة ** وهذا أوان الشام تخمد نارها

إذا جاش موج في البحر من آل برمك ** عليها خبت شهبانها وشرارها

رماها أمير المؤمنين بجعفر وفيه ** تلافى صدعها وانجبارها

هو الملك المأمول للبر التقي ** وصولاته لا يستطاع خطارها [2]

ولعل من أبرز أعماله في فترة قربه من هارون الرشيد هي اشارته على هارون الرشيد بأن يعهد بالبيعة بولاية العهد بعد محمد الأمين لابنه عبدالله – الذي كان في حجر جعفر البرمكي بعد أن نقل من حجر محمد بن خالد بن برمك – ولم يكتفِ جعفر بالإشارة فحسب، بل قام بنفسه بذلك الأمر. فقد عقد له بذلك وشخص به من الرقة إلى بغداد تأكيداً للبيعة في جميع النواحي، وأخذ الإيمان على وجوه بني هاشم ووجوه القوم بها. وكاتب العمال في جميع المناطق، وبعد أن تم له ذلك عاد إلى الرقة.[3]

وهذا الأمر بما فيه من أهداف ومرامي بعيدة المدى، إلا أنه يعتبر إنجاز لجعفر في توجيه سياسة الدولة.

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٦٧، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٦٣-٢٦٤، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢٠٨.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٩٤.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢١١.

والواقع أن جعفر البرمكي ارتفعت مكانته في دولة هارون الرشيد، فصار مقصداً لطلاب الحاجات حتى للذين هم من صميم البيت الهاشمي، فقد قيل أن عبدالملك بن صالح بن علي جاء يوماً قاصداً منزل جعفر بن يحيى البرمكي ليقضي له حاجة، فسأله جعفر البرمكي عن حاجته، فقال له عبدالملك بن صالح : إن في قلب أمير المؤمنين هنة فتسأله الرضا عني فقال له جعفر : قد رضي عنك أمير المؤمنين. قال لهم عبدالملك. وعلى أربعة آلاف ألف درهم تقضي عني قال له جعفر : إنها لعندي حاضرة، ولكن أجعلها من مال أمير المؤمنين فإنها أنبل لك وأحب إليك. قال له عبدالملك : وإبراهيم ابني أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخلافة، قال له محمد : قد زوجه أمير المؤمنين «الغالية». قال : وأحب أن يخفق لواء على رأسه. قال: قد ولاه مصر.[1]

ومما لا شك فيه أن قصد عبدالملك بن صالح - وهو من وجوه بني هاشم - لجعفر في قضاء حوائجه دل دلالة واحة على نفاذ أمره وجلال قدره. وأما إجابة جعفر البرمكي لعبد الملك بن صالح بكل حوائجه لما في ذلك زواج ابنه من الغالية. فإنه لا يدل فقط على مكانته عند الرشيد بل تدل على استئثاره بأمور الرشيد وتحكم واستبداد على أموره الخاصة والعامة.

لعب جعفر البرمكي دوره في دولة هارون الرشيد، وقد ساعده على ذلك ما كان يتصف به من صفات جليلة، والتي من أهمها الفطنة. وقد استطاع بهذه الفطنة وبذلك الذكاء أن يريح هارون الرشيد من هم ألمّ به عندما جاءه يهودياً زعم أن هارون الرشيد يموت في هذه السنة، فلما علم جعفر بهذا القول ركب إلى هارون الرشيد فرآه شديد الغم واضح الحزن، فقال لليهودي : أنت تزعم أن أمير المؤمنين يموت في هذا اليوم الذي حددته، وفي هذه السنة، فقال اليهودي : نعم . فقال له جعفر : وأنت كم عمرك؟ قال اليهودي : كذا وكذا- فقد جعل لنفسه عمراً طويلاً - فقال جعفر للرشيد : أقتله حتى تعلم أنه كذب في أمرك كما كذب في أمر نفسه، فما كان من الرشيد إلا أن قتله وأمر بصلبه، وبذلك زال همّ الرشيد وغمه.[2]

كما كان جعفر من أصحاب الفصاحة والبلاغة [3]، وفي ذلك يقول الجهشياري [4] : كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، وقد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ولو كان في الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة.

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٣٣١، ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٠٥، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢١٤.

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب، ج١، ص٣١١، ابن خلكان، المصدر السابق، ج١، ص٣٣٢.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٩٥.

(٤) الجهشياري : المصدر السابق، ص٢٠٤.

وأهم ما يميز جعفر أنه تفقه على يد القاضي أبي يوسف [1]، لذلك كان ملماً بشئون القضاء والمظالم، ويقال أنه جلس يوماً للمظالم بحضرة هارون الرشيد، فوقع في ألف قضية وأكثر، ثم أُخرجت وعُرضت على العمال والقضاة والكتاب وكتاب الدواوين فما وجد فيها شيء مكرر ولا شيء يخالف الحق.[2]

ومن أبلغ توقيعات جعفر البرمكي ما وقعه لعلي بن عيسى بن ماهان على كتاباً قائلاً له : «حُبب إلينا الوفاء الذي أبغضته وبغض إلينا الغدر الذي أحببته، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها، وقد رأيت غدراتها ووقعاتها عياناً وإخباراً والسلام». كما وقع لرجل آخر دفع إليه رقعة ذكر فيها قصده إياه بأمل طويل ورجاء فسيح. فوقع جعفر على ظهر ورقته « هذا يمت بحرمة الأمل وهي أقرب الوسائل، وأثبت الوصائل فليعجل له من ثمرة ذلك عشرون ألف درهم وليمتحن ببعض الكفاية فإن وجدت عنده فقد ضمّ إلى حقه حقاً وإلى حرمته حرمة، وإن قصر عن ذلك فعلينا معوله وإلينا موئله وفي مالنا سعة له.[3]

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٩٥.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٢، ص١٢٣، ابن كثير، المصدر السابق، ج١٠، ص١٩٥، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٥٨، مولوي، الإدارة العربية، ترجمة د. إبراهيم أحمد العدوي، القاهرة، ١٩٥٨م، ص٣٠٣.

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٠٥.

كرم البرامكة و مدح الشعراء لهم

كان البرامكة من كرام أهل الدنيا ، فهم كما يقول ابن خلدون [١] «الذين كسوا من بيوتات الأشراف المعدم وفكوا العاني ومدحوا بما لم يُمدح به خليفة وسنوا الجوائز والصلات».

كما وصف كرمهم ابن طباطبا [٢] قائلاً : « كان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة والبحور زاخرة والسيول دافعة والعيون ماطرة».

ولعل من أبرز ما عُرف عن كرم البرامكة هو أعطياتهم في الحج، فعندما حج يحيى وأبناؤه الفضل وجعفر مع هارون الرشيد وأولاده يُقال أنهم بعدما وصلوا مدينة الرسول ﴿ﷺ﴾ جلس هارون الرشيد وجلس معه يحيى فأعطيا الناس ثم جلس الأمين بن هارون وجلس معه الفضل، وأعطيا الناس ثم جلس المأمون بن هارون وجلس معه فأعطيا الناس، وأعطوا في تلك السنة ثلاث أعطيات ضُربت بكثرتها الأمثال. وكان الناس يسمون ذلك العام عام الأعطيات الثلاث، وقد أثرى الناس بسبب ذلك.

وفي هذه الأعطيات يقول الشاعر:

أتانـــا بنوا الآمـــال مـن آل برمـك ** فيا طيب أخبار ويــا حســـن منظر

لهم رحلة في كل عـــام إلـــى العدا ** وأخرى إلى البيت العتيـــق المستر

إذا نزلوا بطحاء مكـــة أشـــرقـــت ** بيحيى وبالفضل بن يحيـــى وجعفر

فتظلم بغداد وتجلـــو لنـــا الدجـــى ** كلــــه ما تمحـــي ثلاثـــة أقمـــر

إذا راض يحيى الأمـــر ذلت صعابه ** ناهيـــك مـــن راع لـــــه ومدبـــر [٣]

كما قال فيهم الشاعر مروان بن أبي حفصة :-

عنـــد الملوك منافـــع ومضـــرة ** وأرى البرامكة لا تضـــر وتنفـــع

إن كـــان شركـــان غيرهـــم لـــه ** والخيـــر منسوب إليهـــم أجمـــع

وإذا جهلـــت من امـــرئ أعراقـــه ** وقديمـــه فانظـــر إلى مـــا يصنع

إن العروق إذا استسر بها النـــدى ** أســـر النبـــات وطابـــع المـــزرع [٤]

---

(١) المقدمة ، ج١، ص٣١.

(٢) الفخري في الآداب السلطانية، ص١٩٧.

(٣) نفس المصدر، ص٢٠١.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٠٥.

ومن شدة كرم البرامكة كان الناس يقصدونهم في الحقير والجليل ويطلبون منهم أن يقضوا لهم حوائجهم في كل وقت. فهذا شخص يُدعى أبو الينبغي العباس كان واقفاً على الطريق، فمر به يحيى وأولاده جعفر والفضل ومعهم شخص آخر يُدعى أبو القاسم الزهري. فلما رآهم أبو الينبغي أخذ ينادي : يا زهري ، ولما إلتفت إليه قال له :.

صحبت البرامكة عشراً ولا ** وبيتي كراء وخبزي شرا

فسمعه يحيى البرمكي فالتفت إلى الفضل وجعفر فقال : أفّ لهذا العقل أبو الينبغي ممن يُحاسب. ولما كان الغد جاء أبو الينبغي إلى الزهري فقال له : الزهري : ويحك إما هذا الذي عرضت له نفسك بالأمس؟ فقال أبو الينبغي : «أسكت ما هو إلا أن انصرفت إلى منزلي حتى جاءتني من قبل الفضل بدرة ومن قبل جعفر بدرة ووهب لي كل واحد منهما داراً وأجرى لي من مطبخه ما يكفيني.[1]

وكان لكل من يحيى وأولاده نوادر في الكرم وقصص تُحكى. أما يحيى فقد كان من شدة كرمه وكثرة عطياه إذا ركب يأخذ معه أموالاً كثيرة فيصل كل من تعرض له في الطريق بمائتي درهم.[2]

وكان هذا المبغ الذي يعطيه يحيى لمن تعرض له في طريقه معروف لدى الجميع، فذات يوم تعرض له شاعر في الطريق كان محتاجاً إلى أكثر من مائتي درهم فأنشده قائلاً :ـ

يا سمي الحصور يحيى أتيحت ** لك من فضلِ الجنان جنتان

كل من مر في الطريق عليكم ** فله من نوالكم مائتان

مائتا درهم لمثلي قليل ** هي منكم للقابس العجلان

ولما علم يحيى بأمر هذا الشاعر وحوجته إلى قدر كبير من المال أمر له يحيى بأربعة ألف درهم لمهر زواجه، وأربعة ألف ثمن المنزل، وأربعة ألف لما يحتاج إليه المنزل، وأربعة وأربعة إلى أن بلغ جملة ما وصل به الشاعر عشرين ألف درهم.[3]

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٠٢.

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٠١.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٠٤.

وبما أن يحيى البرمكي قد أعتاد أن يقضي للمحتاجين حوائجهم فإن أصحاب الحوائج كانوا يكثرون الجلوس على دكان يقرب من باب يحيى البرمكي، وكان يحيى إذا رآهم وقف عليهم ولقيهم ببشر وطلاقة. وقد حُكي أنه خرج يوماً مبكراً ولم يجد منهم أحد فأنشد قائلاً :ـ

وليس أخـو الحاجـات من بـات نائمـاً ** ولكن أخوهـا من يبيت علـى وجـل [1]

لهذا الكرم الدفاق من يحيى ولسعة وجوده وطول يده مدحه العديد من الشعراء بقصائد طويلة وأخرى قصيرة، ولعل من أجمل ما مُدح به يحيى البرمكي قول أحد الشعراء في قصيدة طويلة :ـ

سألت الندى هل أنت حـر قـال لا ** ولكنـي عبـد ليحيى بـن خالـد

فقلت شراء؟ قـال بـل وراثـة ** توارث رقـي والـد بعـد والـد [2]

وقال شاعر آخر :

لا تراني مصافحاً كـف يحيى ** إنني إن فعلت ضيعت مـالي

لو يمس البخيل راحـة يحيى ** لسخت نفسه ببذل النـوال [3]

كما مدحه شاعر آخر بأبيت أخرى قائلاً :ـ

إذا بلغنا العيس يحيى بن خالد أخذنا ** بحبـل اليسـر وانقطـع العسر

سمت نحوه الأبصارمنا ودونه مفاوز ** تغتال النيـاق بهـا السفـر [4]

أما الفضل بن يحيى البرمكي فقد كان من كرام أهل الدنيا وأجواد أهل عصره [5]، وقد كان أكرم من أخيه جعفر، ومع كرمه هذا كان فيه كبر شديد وتيه، إلا أن صفة الكرم فيه تغطي على كل القبائح. [6]

ومن نوادره في الكرم، أنه ركب يوماً قاصداً مكان ما، فلقيه في الطريق فتى من الأبناء مُملك يريد الزواج ولا يملك نفقته. فلما رآه الفتى نزل فقبل يده ولم يكن يعرفه، فسأله الفضل عن نسبه، فعرف أنه مملوك، ثم سألهم عن حاجته بعد ذلك فأخبره بأنه يحتاج إلى أربعة ألف درهم مقدار الصداق. فأمر له جعفر

(١) الجهشياري :الوزراء والكتاب ، ص١٧٨.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٠٦.

(٣) ابن طباطبا : الفخر في الآداب السلطانية، ص١٩٨.

(٤) الجهشياري : المصدر السابق، ص١٧٩

(٥) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص٢٠١.

(٦) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص٢١١.

بذلك القدر من المال للصادق، كما أمر له بأربعة آلاف درهم لزوجته، وأمر له بأربعة ألف درهم للنفقة على وليمته، وأربعة آلاف درهم يستعين بها على العقد الذي عقده على نفسه.[١]

كما وهب الفضل يوماً أحد الأدباء عشرة آلاف دينار، فبكى الرجل، فقال له الفضل: مم تبكي استقللتها؟ قال: لا والله ولكني أبكي أن الأرض تأكل مثلك أو توارى مثلك.[٢]

ومن نوادر الفضل في الكرم ما حكاه أحدهم من أنه أصبح يوماً لا يملك شيئاً رغم أنه من الأكابر، فذهب إلى الفضل بن يحيى البرمكي الذي أكرمه وأجلسه معه في السرير، فشكا إليه الرجل ديناً كان عليه وسأله أن يكلم أمير المؤمنين في ذلك، فقال له الفضل : نعم وكم دينك؟ فأخبره الرجل أن مقداره ثلاثة ألف درهم. فخرج الرجل من عنده وهو مهموم ومغموم، وذلك لضعف رده عليه، وذهب إلى منزل أحد أصدقائه ليرتاح معه قليلاً، وبعدها خرج من منزل صديقه قاصداً منزله، فلما وصل وجد أن المال قد سبقه إلى المنزل.[٣]

وقد كان الفضل كريماً حتى مع الذين هم من بيت الخلافة، فقد قيل : أن محمد بن إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس حضر يوماً عند الفضل بن يحيى ومعه سفط فيه جواهر وقال له : إن حاصلي قد قصر لما أحتاج إليه، وقد علاني دين مبلغه ألف ألف درهم، وإني أستحي أن أعلم أحداً بذلك، وآنف أن أسأل أحداً من التجار أن يقرضني ذلك، وإن كان معي رهن يفي بالقيمة وأنت أبقاك الله لك تجار يعاملونك وأنا أسألك أن تقترض لي من أحدهم هذا المبلغ وتعطيه هذا الرهن. فقال له الفضل : السمع والطاعة، ولكن نجاح هذه الحاجة أن تقيم عندي هذا اليوم. فأقام عنده ، ثم إن الفضل أخذ السفط منه وهو مختوم بختمه وأرسل معه ألف ألف درهم، ونفذ الدراهم والسفط إلى منزله، وأخذ خطّ وكيله بقبضه. وأقام محمد في دار الفضل إلى آخر النهار ، ثم انصرف إلى داره فوجد السفط ومعه ألف ألف درهم، فسرّ العباسي لذلك سروراً عظيماً. ولم يكتفِ الفضل في مساعدته بذلك، بل أخبره بأنه سيساعدهم أكثر قائلاً له: «إني فكرت في أمرك، فرأيت أن هذه الألف ألف التي حملتها أمس إليك تقضي بها دينك ثم تحتاج فتقترض، فبعد قليل يعلوك مثلها، فبكرت اليوم إلى أمير المؤمنين وعرضت عليه حالك وأخذت لك مائة ألف ألف درهم أخرى.[٤]

---

(١) الجهشياري :الوزراء والكتاب ، ص١٩٥.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٢١١.

(٣) نفس المصدر، ج١٠، ص١٩٥.

(٤) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٠٣- ٢٠٤.

وصل الفضل بن يحيى درجة من سعة الجود جعلته يتجود حتى بأموال الدولة، فقد روى الجهشياري[1] أن الفضل بن يحيى البرمكي عين إبراهيم بن جبريل على كابـل وسجستان في أثنـاء مقامه بخراسان. فأفاد ذلك الرجل مالاً عظيماً ووصل إليـه سبعة آلاف درهم، وحصل في يده من خراجها أربعة آلاف ألف درهم، فلما عادوا إلى بغـداد سأل إبراهيم الفضل أن يزوره فـي داره، فلما زاره الفضل أحضر له إبراهيم مال الخراج. إلا أن الفضل وهب له كل ذلك وأبى أن يقبل منه شيـئاً، وقال له حـين اعتـرض على ذلـك: «أمالك بيت يسعه».

مدح الشعراء الفضل بن يحيى بأشعار كثيرة، ومن ذلك قول أحدهم :

ألـم تـر أن الجـود من لـدن آدم ** تحدر حتى صار فـي راحة الفضـل

إذا ما أبو العباس راحـت سمـاؤه ** فيالك من هطـل ويا لـك من ويـل

إذا أم طفل راعها جـوع طفـل دعتـه ** باسم الفضـل فاستعصـم الطفـل

ليحيـا بك الإسـلام إنـك عـزه ** وإنك مـن قـوم صغيـرهم كهـل [2]

كما قال فيه الموصلي :.

لو كان بيني وبين الفضـل معرفـة ** فضل بن يحيى لأعداني على الزمن

هو الفتـى الماجد الميمـون طائـره ** والمشتري الحمد بالغالي من الثمـن [3]

وقد مدحه أحد الشعراء ببيت مفرد قائلاً فيه :ـ

ما لقينا من جود فضل بـن يحـيى ** تـرك النـاس كلهـم شعـراء

فزاد على هذا البيت شاعر آخر بقوله :ـ

علـم المفحـمين أن ينطقـوا ** الأشعـار والباخلـين السخـاء [4]

ولعل من أبلغ ما قيل في مدح الفضل هذه الأبيات :.

لك الفضل يا فضـل بن يحيى بـن خالد ** وكل من يُدعـى بفضـل لـه فضـل

---

(١) الوزراء والكتاب : ص١٩٢.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٥٧.

(٣) الجهشياري : المرجع السابق، ص١٩١.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥٠.

رأى الله فضلاً منك في الناس فسماك ** فضلاً فالتقى الاسم والفعل [1]

أما عن جعفر بن يحيى فقد كان أيضاً كريماً [2] وقد كان جعفر يبخل بالنسبة لأخيه الفضل إلا أن الفضل كان أكثر منه مالاً. [3]

ومما يُحكى عن كرمه أنه كان في ليلة سمر عند بعض أصحابه ، فجاءت خنفساء فركبت في ثياب رجل من الذين كان يسامرهم جعفر. فألقاها جعفر عنه وقال : « إن الناس يقولون من قصدته الخنفساء يبشر بمال يصيبه» فأمر له بألف دينار ، وعندما عادت الخنفساء إلى الرجل مرة أخرى أمر له جعفر بألف دينار أخرى. [4]

كما يُقال إن جعفر لما حج أجتاز في طريقه بمنطقة العقيق وكانت تلك السنة التي حج فيها سنة مجدبة فاعترضته امرأة من بني كلاب وأنشدته قائلة :ـ

إني مررت على العقيق وأهله ** يشكون من مطر الربيع نزولا

ما ضرهم إذا جعفر جاءهم ** أن لا يكون ربيعهم ممطر

فلما سمع منها جعفر القول أجزل لها عطاءاً كثيراً وفيراً. [5]

كما مدح الشعراء جعفر بقصائد كثيرة منها قول أحدهم :

يحب الملوك ندى جعفر ** ولا يصنعون كما يصنع

وليس بأوسعهم في الغنى ** ولكن معروفه أوسع

وكيف ينالون غاياته ** وهم يجمعون ولا يجمع [6]

كما قال فيه شاعر آخر :

لقد غرني من جعفر حسن بابه ** ولم أدر أن اللوم حشو إهابة

ولست وإن بالغت في مدح جعفر ** بأول إنسان خرِى في ثيابه [7]

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٢١١.
(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٠٥.
(٣) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص١٩٦.
(٤) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، ص٣١١، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص٣٣٢.
(٥) ابن خلكان : المصدر السابق، ج٢، ص٣٣٠.
(٦) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢١٥.
(٧) نفس المصدر، ص٢١٥.

المبحث الثاني

نكبــــة البرامكــــة

١ - ارهاصات نكبة البرامكة

لم تكن نكبة البرامكة أمراً فجائياً، بل سبقتها مقدمات تنبيء وتخبر عن وقوعها في زمن قريب. فقد بدأ هارون الرشيد بالتغيير على البرامكة والحد من سلطانهم بالتدريج. ففي سنة ١٧٩هـ-٧٩٥م عزل محمد بن خالد بن برمك عن حجابته وقلدها الفضل بن الربيع.[١]

وفي سنة ١٨٣هـ - ٧٩٩م صرف الفضل بن يحيى عن الأعمال التي كان يتقلدها في خراسان، وجعل مكانة علي بن عيسى بن ماهان. وقد قام بتعيين هذا الرجل إغاظة ليحيى البرمكي الذي كان معترضاً على تعيين علي بن عيسى لأنه كان رجل ظالماً وجباراً. وقد حدث ما توقعه يحيى في أمره. فقد خرب علي بن عيسى خراسان وقتل صناديد أهل خراسان وحمل أموالها وأحرق بيوتها.[٢]

وبعد أن صـــرف الفضل من الأعمال التي كان يتقلدها سخط عليه في سنة ١٨٣هـ - ٧٩٩م وشخص إليه إلى الرّقـــة ومعه أمه زبيدة بنت منير، فرضـــى عنه وأقره مع الأمين لحضانته، ولكنه لم يرد إليه شيئاً من أعماله.[٣]

وهناك مواقف واضحة صدرت من الخليفة هارون الرشيد دلت على مدى تغيره عليهم، فقد حكى لنا بختيشوع بن جبريل الطبيب - وكان صنيعة البرامكة - أنه دخل يوماً على هارون الرشيد وهو جالس على بساط على مشرعة باب قصره وهو « قصر الخلد» من مدينة السلام، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر بينهم وبينه عرض دجلة بختشيوع : فبينما أنا أنظر في ذلك ارتفعت صيحة عظيمة فسأل عنها هارون الرشيد فقيل له - يحيى بن خالد ينظر في أمور المتظلمين، فقال : بارك الله عليه وأحسن جزاؤه، فقد خفف عنّي وحمل الثقل دوني وناب منابي» . قال بختشيوع : فأمتلأت سروراً بذلك وخرجت مبادراً إلى يحيى بن خالد فخبرته بذلك فسر به. ومضت مدة ثم جاءني رسول الخليفة يوماً فصرت إليه فوجدته جالس في ذلك المجلس بعينه ومعه الفضل بن الربيع، وبينما أنا معهم في هذا المجلس إذ ارتفعت ضجة شديدة.

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج٨، ص٢٦١، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢٢٣.

(٢) البيهقي : تاريخ البيهقي، ص٤٤١.

(٣) الجهشياري : المصدر السابق، ص٢٢٧.

فقال الرشيد : ما هذا؟ فقيل له : يحيى بن خالد ينظر في أمور المتظلمين. فقال: «فعل الله به وفعل! يسبه ويذمه، استبد بالأمور دوني وأمضاها على غير رأيي وعمل بما أحبه دون محبتي». ثم أقبل عليّ وقال لي: يا جبريل إنه لم يسمع كلامي غيرك وغير الفضل بن الربيع، وليس الفضل ممن يحكي شيئاً منه عليّ لئن تجاوزك لأتلفن نفسك. قال جبريل : فلم أصبر وقلت : والله إن تلفت نفسي لم أبال وصرت إلى يحيى وعرفته بما جرى فقال لي : «إنه لم يكن مني في هذه الحالة التي ذمني فيها شيء لم يكن مني في ذلك الوقت الذي أحمدني فيه ولكن المدة إذا آذنت بالانقضاء جعلت المحاسن مساوئ ، ومن أراد أن يتجنى قدر نسأله حسن الاختيار».[1]

ولعل اختلاف قول الخليفة في المرة الثانية عن المرة الأولى فيه بيان واضح بأنه قد أضمر لهم السوء، وأن ينوي الغدر والتنكيل بهم.

أيضاً من المواقف التي صدرت من هارون الرشيد ودلت على تغيره عليهم ما قيل إن يحيى بن خالد البرمكي دخل يوماً على هارون الرشيد بدون إذن – وهو ما اعتاد عليه يحيى عند دخوله عليه – فسلم يحيى عليه ، ورد عليه هارون السلام في فتور واعراض، ثم قال مخاطباً جبريل الطبيب : «يا جبريل يدخل عليك أحد وأنت في منزلك بلا إذن؟ فقال جبريل : لا ولا يطمع في ذلك. فقال الرشيد : فما بالنا يدخل علينا بلا إذن. فقام يحيى وقال له : يا أمير المؤمنين قد منى الله قلبك والله ما ابتدأت ذلك الساعة ما هو إلا شيء كان أمير المؤمنين قد خصني به، ورفع ذكري حتى كنت لأدخل وهو في فراشه مجرداً حيناً وحيناً في بعض إزاره، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان. وإذ قد علمت فأني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو من الطبقة الثالثة إن أمرني أمير المؤمنين بذلك.[2]

لم يكتف هارون الرشيد بأمر يحيى بالإذن عند الدخول عليه بل أمر خادمه مسرور بأن يأمر جميع الغلمان ألا يقوموا ليحيى بن خالد إذا دخل الدار. فكان إذا دخل لا يقوم إليه أحد، وإذا رأوه أعرضوا عنه. وربما استسقى الشربة من الماء وغيره فلا يسقونه، وإذا سقوه يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً .[3]

---

(١) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٠٨، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٢٥- ٢٢٦، أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي، ج٣، ص٢٨٧-٢٨٨.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٧١، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٧٤.

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٨٨، ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣، ص٤٧٤.

أحس يحيى البرمكي بهذه المعاملة القاسية من جانب الخليفة، فركب إلى أحد أبناء عمومة الرشيد، وشكا إليه تغير الخليفة عليه، فنصحه الهاشمي قائلاً : «إن أمير المؤمنين قد أحب جمع الأموال، وقد كثر ولده، فهو يريد أن يعقد لهم الضياع، وقد كثر عليك وعلى أصحابك عنده، فلو نظرت إلى ضياعهم وأموالهم فجعلتها لولد أمير المؤمنين تقربت بها إليه، رجوت لك السلامة وأن يرجع لك أمير المؤمنين . إلا أن يحيى - وهو صاحب الكرم والعفة والنزاهة - ردّ عليه بقوله : « يا أخي جعلني الله فداك لأن تزيل النعمة عني أحب إليّ من أن أزيلها عن قوم كنت سبب لهم.[1]

كل هذه التغيرات التي طرأت على يحيى وغيره من البرامكة كانت لهم نذير وإخبار بأن دولتهم على وشك الإنهيار وأن أيامهم قد قاربت النهاية. ولشدة إحساس يحيى بذلك يُقال أنه كتب كلمات يسيرة في رقعة وختمها ودفع بها إلى صديقه - إسماعيل بن صبيح - قائلاً له : «لتكن عندك فإذا دخلت سنة سبعة وثمانين ومائة ومضى محرم فأنظر فيها ». فلما كان في صفر أوقع الرشيد بهم. فنظر الرجل إلى الورقة فكان هو الوقت الذي ذكره يحيى.[2]

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٩٣.

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٤٩.

١ - أسبـــاب نكبـــة البرامكـــة

١ - العامل المـــادي :

لقد كان العامل المادي من أهم الأسباب التي أدت إلى نكبة البرامكة، بل هو العامل الوحيد الذي صرح به هارون الرشيد لمن كان يسايره في ذلك اليوم - وهو إسحق بن عبدالله العباسي- فقد حكى له هارون الرشيد بأنه قد أضمر السؤ للبرامكة. كما أوضح له بأنهم استوحشوه من أنفسهم بما وصلوا إليه من المال والجاه، فقال له إسحق « إني أرى نفاستك عليهم بما صاروا إليه من النعمة والسعة، ولك أن تأمر وتنهي وهم عبيد لك، فهل يصنعون ذلك كله إلا بك؟ ». فرد عليه الخليفة قائلاً :« إن ضياعهم ليس لولدي مثلها وتطيب نفسي بذلك لهم ».[١]

وفي هـــذا التصريح الخطير من جانب الخليفة على البرامكة إنذار عظيم لما سيحدث لهم بسبب امتلاكهم الأموال .

وقد تمثل العامل المادي في أمرين رئيسيين :-

أولاً : إمتلاك الأموال والضياع.

وهذا ما عبر عنه ابن خلدون [٢] بقوله : « استولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك». كما يقول في نفس الموضع : « وأنبسط الجاه عندهم».

والواقع أن البرامكة قد عاشوا عيشة البذخ والرفاهية. فقد بنى جعفر بن يحيى البرمكي قصراً بالجانب الشرقي من نهر دجلة، وأوسع فناءه وفضاءه ، واتخذ فيه بساتين ذات رياض مخصبة وغرس فيه من أنواع الشجر ما يثمر بكل ثمرة بديعة، وبالغ في إنفاق الأموال وجمع الصناع والعمال. واتخذ في هذا القصر ثلاثمائة وستين مرفقاً ما بين مجلس ومستشرق وحجرة وخزانة. وكتب إلى كل الجهات بأن يتخذ لكل مقصورة فرش على مقادير أبنيتها ».[٣]

ويُقال أن جعفر البرمكي غرم في تلك الدار التي بناها عشرين ألف درهم غير صلاته ونفقاته.[٤]

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج٥، ص٦٦.

(٢) المقدمة، ج١، ص٣١.

(٣) ابن الساعي: (الخازن البغدادي) :جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإنماء ،حققه مصطفى جواد، دار المعارف،مصر، ١٩٥٧،ص٧٥.

(٤) بن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج١،ص١١٥، ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٣٢٨.

ويُقال أن أحد أصحاب جعفر واسمه مؤنس لما رأى فخامة تلك وعظم بنيانها وأنه لا يوجد بها أدنى عيب، نصح جعفر بأن السعاة والواشين لو علموا بأمر هذه الدار وأبلغوا الخليفة بذلك سيكون من أمره ما يكون، وأشار عليه بأن يتبع أسلوب الحيلة في ذلك فيحتال على الخليفة بأنه قد بنى تلك الدار لابنه المأمون- الذي رُبي في حجر جعفر البرمكي- فنفذ جعفر ما أمره به صاحبه. واحتال على الخليفة في أمر الدار فصدقه هارون الرشيد وسرّ منه سروراً عظيماً، فوهب له الدار وزاده أعطيات.[1]

إلا أن الخليفة سرعان من أثر فيه قول الوشاة والساعين في أمر البرامكة، فاستعظم نفقته وصلاته مما كان له بالغ الأثر في نكبته.[2]

ولم يكتف جعفر بهذه الدار بل وجدت له «بركة» في داره، وفي هذه البركة أربعة آلاف دينار وزن كل دينار مئة دينار ودينار، وعلى كل واحد من هذه الدنانير من أحد جانبيه مكتوب :

وأصفر من ضرب دار الملـــوك ** بلوح علـــى وجـــه جعفـــر

ومن الجانب الآخر مكتوب :

يزيـــد علـــى مائـــة واحداً ** إذا نالـــه معســـــر يـــسر[3]

ولعل جعفر كان يشعر بأن هذه الأموال وتلك الدار العظيمة لن تدم له طويلاً. فقد سمع يوماً وهو يقول: «ليس لدارنا هذه عيب إلا إن صاحبها فيها قليل البقاء - يعني نفسه- ».[4]

هذا وقد وجد هارون الرشيد من سائر أموال البرامكة ألف ألف وستمائة ألف وستة وسبعين ألف درهم، هذا غير الذي وجد لهم من الذي لا يُحصى ولا يُعد من الضياع والغلال.[5]

كما وُجد في خزانة لجعفر البرمكي «جرة» فيها ألف دينار في كل دينار مائة دينار ودينار. وكان جعفر قد أمر بأن تضرب له دنانير في كل دينار ثلثمائة دينار.[6]

---

(١) ابن الساعي : جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، ص٧٥.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٣٣٤.

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٤١.

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٩٢.

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، ص٢١٥.

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٩٣.

ولعل أكبر دليل على أن البرامكة قد أحبوا جمع المال ما ذكره الجهشياري [1] من أن يحيى البرمكي كان قد أحضر مؤدب ابنه إبراهيم يوماً وسأله عنه حال ابنه. فأجابه المؤدب : بأنه بلغ من الأدب كذا، ونظر في كذا، وقد اتخذنا له من الضياع كذا وبلغت غلته كذا.

ثانياً : الاستئثار بالمال دون الخليفة :

لقد سيطر البرامكة على أموال الدولة وأنفقوها في وجوه شتى لدرجة أن الخليفة كان يطلب القليل من المال، فلا يجده ، وهو ما عبر عنه ابن خلدون [2] بقوله : «إنما نكب البرامكة من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه».

ولعل أكبر دليل على استبدادهم بأموال الدولة أن هارون الرشيد طلب من يحيى البرمكي ألف ألف درهم، وكان في ذلك الوقت قد ورّد من مال فارس ستة ألف ألف درهم. فاعتذر له يحيى بأنه لا يستطيع الصرف من هذا المبلغ. فاحتال عليه الرشيد بقرض تولاه شخص يدُعى يونس. وفي الوقت الذي أخذ فيه يحيى من هذا المال ألف ألف وخمسمائة درهم وفرقها في عماله.[3]

بل وصل هارون الرشيد إلى مرحلة كان لا يستطيع معها إكرام شخص دون مشورة يحيى البرمكي وأولاده لا يغنون عن أنفسهم بما يحتاجون إليه، وخير مثال على ذلك دار جعفر البرمكي.[4]

٢- العامل السياسي :

من الأسباب التي أدت إلى نكبة البرامكة العامل السياسي، وقد تمثل هذا العامل في أمور عديدة منها إتهامهم بالميل إلى العلوية. ولقد كان الإتهام معلوم لدى البرامكة من قبل نكبتهم. فقد أوصى يحيى البرمكي ابنه الفضل حيث انتدبه الخليفة هارون الرشيد لأمر يحيى بن عبدالله العلوي قائلاً له : «يا بني إن الخليفة قد أسند إليك عملاً عظيماً. وإن المرتبة العالية التي من الله عليك بها عظيمة في هذه الدنيا، ولكن تقابلها عقوبة قوية في الآخرة، إذ أن عليك أن تقضي على أحد أحفاد رسول الله ﴿ﷺ﴾ وليس بدء من الطاعة فإن لنا أعداء كثيرون، وقد اتهمونا بأنا علويون، فينبغي العمل بحيث لا يسئ أمير المؤمنين الظن بنا .[5]

---

(١) الوزراء والكتاب، ص١٨٠.

(٢) المقدمة ، ج١، ص٣٠.

(٣) الجهشياري : المصدر السابق، ص٢٤٣.

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٩١.

(٥) البيهقي : تاريخ البيهقي، ص٤٤١.

وقد ظهرت حقيقة هذا الإتهام عندما أطلق جعفر بن يحيى البرمكي يحيى بن عبدالله العلوي.[1]

ذلك أن الرشيد بعد أن رضى عن يحيى بن عبدالله العلوي وأعطاه الأمان غضب عليه مرة أخرى. ويعود السبب في هذا التغير المفاجئ من قبل الخليفة هارون إلى أن أحد من رجال الزبير بن العوام كان قد سعى بيحيى العلوي عن الخليفة قائلاً له : « إنه بعد الأمان فعل وصنع ودعا الناس إلى نفسه، فأحضره الرشيد من محبسه وجمع بينه و بين الزبيري، وسأله عن ذلك فأنكر فوافقه الزبيري فقال له يحيى: إن كنت صادقاً فأحلف، فقال الزبيري : والله الطالب الغالب وأراد أن يتم اليمين فقال له يحيى : دع هذه اليمين فإن الله تعالى إذا مجّده العبد لم يعجل عقوبته، ولكن أحلف له بيمين البراءة ، وهي يمين عظمي صورتها أن يقول عن نفسه : برئ من حول الله وقوته، ودخل في حول نفسه وقوتها إن كان كذا وكذا. فلما سمع الزبيري هذه اليمن ارتاع لها وقال : ما هذه اليمين الغريبة ! وامتنع من الحلف بها فقال له هارون : ما معنى امتناعك إن كنت صادقاً فيما تقول؟ فما خوفك من هذه اليمين؟ فحلف بها، فما أن خرج من المجلس حتى ضُرب برجلـه ومـات.

ولعل موت الرجل في الحال آية تدل على أنه كان كاذباً ، وتبرهن صدق يحيى بن عبداله العلوي الذي إتهم زوراً، وفي تلك الحادثة يقول أبو فراس الحمداني :-

ذاق الزبيـري غبّ حنثه وانكشـف ** عـن ابن فاطمـة الأقـوال والتهم [3]

ورغم ظهور تلك الآية إلا أن هارون الرشيد لم يصدقه القول ، لذلك قام بحبسه عنده، ويقال إنه استحضره يوماً بعد أن سجنه ومزق الأمان الذي كان قد أعطاه له من قبل وبصق فيه.[4]

إذن فقد حبس هارون الرشيد يحيى بن عبدالله العلوي، وكان الموكل بحبسه هو جعفر بن يحيى البرمكي، والذي حدث بعد أن يحيى العلوي قد استعطف جعفر البرمكي والآن قلبه قائلا له : «اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد ﴿ﷺ﴾، فوالله ما أحدثت حدثاً ولا أويت حدثاً». هذا القول من عبدالله العلوي فعل فعله في نفس جعفر البرمكي، فما كان منه إلا أن أطلقه قائلاً له : «إذهب حيث

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١، ص١١٥.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٦٨، ابن طباطبا، الفخري، ص١٩٥.

(٣) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص١٩٥.

(٤) نفس المصدر : ص١٩٥.

شنت من بلاد الله». ولم يكتف جعفر البرمكي بإطلاق سراحه بل وجه معه من أوصله إلى مأمنه.[1]

كان ذلك التصرف من جعفر البرمكي في إطلاقه ليحيى بن عبدالله العلوي فرصة لتدخل الواشين في أمر البرامكة مثل الفضل بن الربيع بن يونس الذي ما أن علم بالأمر - عن طريق عين له من خاصة خدمه- حتى بادر بإبلاغ الخليفة بذلك.[2]

أما هارون الرشيد فبعد أن بلغه هذا الخبر تحقق من كل الجوانب فيه، وعرف حقيقة الأمر، وبعد ذلك اتبع أسلوب الحيل والمسايرة لكشف الحقيقة من جعفر نفسه، فقد دعاه يوماً إلى الغداء ، وجعل الرشيد يلقمه ويسايره في الكلام، وأخذ يحادثه في عدد من الأمور إلى أن كان آخر مادار بينهما أن سأله عن يحيى بن عبدالله العلوي، فأجابه جعفر كاذباً : بأنه مازال في السجن الضيق والأكيال- إلا أن جعفر شعر بعد ذلك بأن الخليفة قد أطلع على حقيقة أمره، لذلك اضطر إلى أن يصارحه بما فعل قائلاً له: « أطلقته بعدما علمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده». فتظاهر له الخليفة بأن هذا الأمر لا يزعجه، وقال له : «نعم ما فعلت ما عدوت ما كان في نفسي».[3]

رغم أن الخليفة هارون كان قد وافقه ظاهرياً على ما فعله إلا أنه كان يضمر غير ذلك، لذلك نجده ما أن خرج منه جعفر البرمكي وأختفى عن عينه حتى عبر عن غضبه قائلاً : « قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك».[4]

لا شك أن هذه الحادثة لها أثرها ووقعها في نفس الخليفة، فقد جعلته يوقن تمام اليقين أن البرامكة يميلون إلى العلويين، بل عرف منها أنهم يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحة الخليفة نفسه. وكان لهذا أكبر الأثر لما جرى للبرامكة بعد ذلك.

ولم يكتف الخليفة باتهام جعفر بذلك، بل تعدى الإتهام إلى يحيى والده، وفي ذلك يقول الجهشياري[5] « بعد مقتل جعفر وحبس يحيى وابنه الفضل أرسل الخليفة إلى يحيى وسأله عن السبب الذي

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٢، ص١١٥، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ٢٨٩، محمد الخضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ج٢، القاهرة، ١٩٦٠، ص١٢١.

(٢) الطبري : المصدر السابق، ج٨، ص٢٨٩، ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٢، ص١١٥.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٦٩، ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٢، ص١١٥، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص٢٨٩، الخضري، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٢٢.

(٤) الطبري : المصدر السابق، ج٨، ص٢٨٩، ابن الأثير، المصدر السابق، ج٦، ص٦٩.

(٥) الوزراء والكتاب، ص٢٤٣.

جعله يحمل مئتي ألف دينار ويرسلها إلى يحيى بن عبدالله العلوي في بلاد الديلم». وكان تبرير يحيى لهذا الفعل بأنه يريد أن تقوى شوكة يحيى بن عبدالله وبعدها يظفر به ابنه الفضل فيكون ذلك أحظى لابنه الفضل عند الخليفة. إلا أن هارون الرشيد لم يقتنع بذلك التبرير ورد عليه قائلاً : « فما يؤمنك أن تقوى شوكة يحيى العلوي فيقتل الفضل ويقتلني».

وفي هذا القول أيضاً دليل واضح على أن يحيى نفسه كان متهما بالميل إلى العلويين، وقد ظهر ذلك الميل في مساندته له بالمال.

ويدخل في العامل السياسي تهمة أخرى وجهها الخليفة هارون الرشيد ليحيى البرمكي وهي مساندته لصديقه عبدالملك بن صالح بن علي الذي سعى به ابنه عبدالرحمن للخليفة وأخبره بأنه يطلب الخلافة لنفسه. فاستحضره هارون الرشيد وسأله عن حقيقة الأمر، لكنه أنكر وخلف واعترف لحقوق الرشيد وسلفه عليه. فأحضر له ابنه عبدالرحمن فقال : « هو مأمور معذور أو عاق فاجر». فاغتاظ الرشيد من قوله ونهض من مجلسه وهو يقول : « سأصبر حتى أعلم ما يرضي الله فيك فإنه الحكم بيني وبينك. فرد عليه عبدالملك قائلاً : «رضيت بالله حكماً وبأمير المؤمنين حاكماً فإنه لا يؤثر هواه على رضا ربه».[1]

هذه التهمة لعبد الملك بن صالح جددت المصاب للبرامكة حتى بعد سجنهم. يُقال أن الرشيد بعد ظهور أمر عبدالملك بعث إلى يحيى في السجن متهماً له بأنه قد ستر عنه أمر عبدالملك بن صالح. إلا أن يحيى نفى عن نفسه تلك التهمة وأكد لرسول الخليفة ذلك النفي قائلاً له : «كيف يطلعني يا أمير المؤمنين على ذلك وأنا كنت صاحب الدولة، وهل إذا فعلت ذلك يجازيني بأكثر من فعلك. أعيذك بالله أن تظن هذا الظن، إلا أنه كان رجلاً متجملاً سرني أن يكون في بيتك مثله ، فوليته ولا خصصته». إلا أن الرشيد لم يقتنع بهذا القول فعاد إليه الرسول مرة أخرى يهدده بقتل ابنه الفضل إن لم يصدقه في قوله، فقال له يحيى : أنت مسلط علينا فأفعل ما أردت. وجذب الرسول الفضل وأخرجه فودع الفضل أباه وسأله الرضا عنه، فقال له والده : رضي الله عنك. وفرق بينهما ثلاثة أيام ولم يجد عندهما شيء فجمعهما.[2]

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص١٩٣، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص٣٠٤.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج٣، ص٤٧٥.

٢- اتهامهم بالزندقة :

من التهم التي وجهت إلى البرامكة تهمة الميل إلى المجوسية. ولعل هذه التهمة قد لازمتهم منذ عصر بعيد يرجع إلى عصر المنصور الذي اتهم وزيره خالد بن برمك بهذه التهمة. فقد رُوي أن المنصور لما بنى مدينة بغداد عظمت عليه النفقة ، فأشار عليه أبو أيوب بهدم إيوان كسرى واستعمال أنقاضه، فاستشار المنصور خالد بن برمك في ذلك الأمر ، فأشـــار عليه خالد بألا يفعل قائلاً له : « لا تفعل يا أميـــر المؤمنين فإنه آية الإسلام، فـــإذا رآه الناس علموا أن مثل هذا البنـــاء لا يزيله إلا أمر سماوي، وهو مع ذلك مصلى علي بن أبي طالب عليه السلام ، والمؤنـــة في نقضه أكثر من نفـــعه. فقال لـــه المنصور : أبيت يا خالد إلا ميـلاً للمجوسية.[١]

كما اتهم الهادي يحيى البرمكي بالكفر [٢] واتهمه الرشيد أيضاً بذلك عندما استشاره الرشيد في هدم إيوان كسرى فأشار عليه يحيى بألا يفعل. فقال الرشيد لمن حضر : « وفي نفسه المجوسية والحنو عليها والمنع من إزالة أسبابها ».[٣]

ولعل في تعقيب الخليفة هارون الرشيد على رأي يحيى بن خالد اتهام صريح للبرامكة بأنهم يسعون لتمجيد دينهم والبقاء على آثاره.

ومما يدل على أن البرامكة كانوا متهمين بالزندقة ما ذكـــره الجهشياري [٤] قائلاً : « إن الفضل بن يحيى البرمكي عندما نقل من محبس إلى آخـــر وقف بعـض الناس وأخذوا يدعون عليهم. فاضطرب الفضل لذلك الأمر اضطراباً شديداً فأرسل إلى رجـل من بيـــن هؤلاء الذين كانـــوا يدعون عليهم وســـأله عن سبب دعائـــه عليه هـــل لحـــق ظلم منـــه عليـــه أم ماذا؟ فأجاب الرجل بأنه قد قيل له : « إن هـــؤلاء كلهـم زنادقة».

---

(١) ابن طباطبا : ص١٥٧، دائرة المعارف الإسلامية، ج٣، مادة برامكة، ص٤٩٧.

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٨، دائرة المعارف الإسلامية، ج٣، ص٤٩٧.

(٣) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، ص. ٢٦.

(٤) المصدر السابق، ص٢٥٨- ٢٥٩.

ومما يؤكد هذا الاتهام هو صلتهم برجل يُدعى أنس بن شيخ الذي كان يكتب لجعفر البرمكي، وكان يرمي بالزندقة فقتل مع جعفر البرمكي.[1]

كما أن أبيات الشعر التي قالها فيهم الأصمعي تؤكد أن هؤلاء القوم طعنوا في اخلاصهم للدين الإسلامي ، حيث يقول :

إذا ذكـر الشـرك فـي مجلس ** أضـاءت وجـوه بنـي برمك

وإن تليـت عندهـم آيـة ** أتو بالأحاديـث عن مـزدك [2]

والواقع كما يقول البغدادي [3] أن البرامكة عندما لم يتمكنوا من عبادة النيران احتالوا بأن قالوا للمسلمين ينبغي أن تجمر المساجد كلها وأن تكـون في كل مسجـد مجمرة ويوضـع عليها النـد والعود فـي كل حـال.

كما أنهم زينوا للرشيد أن يتخذ في جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبداً، فعلم هارون الرشيد أنهم أرادوا بذلك عبادة النيران وأن تصير الكعبة بيت نار.[4]

هذا وقد ذكر البعض أن البرامكة كانوا من رؤساء جمعيات المجوس السرية التي تحاول هدم الإسلام وسلفه العرب وإعادة الملك للمجوس.[5]

والذي يراه بعض المحدثون أن البرامكة بالرغم من إخلاصهم في خدمة الدولة من ناحية إدارية تنظيمية إلا أنهم لم يخلصوا في خدمة الدولة من ناحية عقدية، ولعلهم أرادوا من إخلاصهم في الإدارة أن يجعلوا من هذا الإخلاص ثوب لخدمة عقيدتهم.[6]

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، ص٣٣٧، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢٣٩.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، ج٣، مادة برامكة، ص ٤٩٧.

مزدك : ينسب إليه المزدكية وقد خرج في أيام قباذ بن فيروز، فبدل شريعة زراد شت واستحل المحارم وساوى بين الناس في الأموال والنساء والعبيد ، وكثر أتباعه وعظم شأنه وتبعه قباذ نفسه ولم يزل كذلك حتى ولي كسرى أنوشروان وقتله وأباد أتباعه (دائرة المعارف الإسلامية، ج٣، ص٤٩٧).

(٣) الفرق بين الفرق، القاهرة، ١٩٤٨م، ص١٧٢.

(٤) أبو اسحق الشاطبي : الاعتصام، ج٢، مصر، ١٣٣٢هـ- ١٩١٤م، ص٢٧٢.

(٥) نفس المصدر، ص٢٧٢.

(٦) عاطف شكري : الزندقة والزنادقة، عمان، ١٩٣٨م، ص١١٦.

٤- علاقة جعفر البرمكي بالعباسة أخت هارون الرشيد :

كان هارون الرشيد شديد المحبة لأخته العباسة. وكما ذكر سابقاً كان شديد المحبة أيضاً لجعفر بن يحيى البرمكي. وقد كانا من أعز الناس عليه، وكان هو لا يقدر على مفارقتهما لحظة، فكان متى غاب أحد من جعفر أو العباسة لا يتم له سرور.(١)

وقد أباح هارون الرشيد بتلك المحبة الشديدة قائلاً لجعفر : « يا جعفر أنه ليس في الأرض طلعة بها آنس ، وإليها أميل وأنا بها أشد استمتاعاً وأنساً برؤيتك ، وأن للعباسة أختي موقعاً ليس بدون ذلك ».(٢)

على هذا كان جعفر والعباسة ملازمين له.(٣) إلا أن الرشيد كانت له وجهة نظره الخاصة في جلوس أخته العباسة مع جعفر البرمكي دون عقد شرعي يبيح لهما ذلك الجلوس. لذلك اقترح الرشيد على جعفر حلاً لذلك الأمر قائلاً له : « وقد نظرت في أمري معكما، فوجدتني لا أصبر عنه ولا عنها، ورأيتني ناقص السرور منك، وقد رأيت شيئاً يتم لي به السرور وتتكاتف لي به اللذة والأنس». وعندما سأله جعفر عن ذلك الشيء الذي نظر فيه أجابه الخليفة قائلاً : « أزوجكما تزويجاً تملك به مجالستها والنظر إليها والاجتماع بها في مجلس أنا معكما فيه لا سوى ذلك».(٤)

لعل في هذا الشرط الذي اشترطه هارون الرشيد في أمر زواجه من العباسة بهذه الطريقة الغريبة فيه نوع من التقييد والتكبيل لجعفر. لذلك امتنع جعفر في بداية الأمر من زواجه بالعباسة على هذا الشرط، إلا أنه اضطر للموافقة في نهاية الأمر. فزوجه الرشيد وأشهد على هذا الزواج من حضره من خدمه وخاصة مواليه، كما أخذ عليه عهد الله ومواثيقه وغليظ إيمانه أنه لا يخلو بها ولا يجلس معها ولا يظله وإياه سقف بيت إلا أمير المؤمنين ثالثهما، فحلف جعفر على ذلك ورضي به وألزمه نفسه.(٥)

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٣٣٢، ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٠٩، أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج٣، ص٢٩١.

(٢) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٨٤ وابن خلكان، المصدر السابق، ج١، ص٣٣٢.

(٣) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص٢٠٩.

(٤) ابن غري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٢، ص١١٥، ابن خلكان، المصدر السابق، ج١، ص٣٣٦.

(٥) المسعودي : المصدر السابق، ج٣، ص٣٨٤.

كان جعفر البرمكي قد خضع لهذا الأمر وألزم نفسه بذلك الشرط، فكانوا يجتمعون على تلك الحالة التي اشترطها عليهم أمير المؤمنين وهو صارف بصره عنها مذود بوجهه هيبة أمير المؤمنين ووفاءاً بعهده وإيمانه ومواثيقه على ما وافق أمير المؤمنين عليه.[١]

والواقع أن العباسة قد أحبت جعفر حباً شديداً، وراودته كثيراً ، إلا أن جعفر كان يرفض ويمتنع لتلك المراودة حفاظاً على العهد الذي بينه وبين أمير المؤمنين، وأخذت تتقرب إليه بكل السبل وتجرب معه كل الوسائل، ووصلت بها الجرأة أن كتبت إليه يوماً تقول:-

عزمت على قلبي بأن يكتم الهوى ** فصاح وقال أشيء غيري فاعل

فإن لم تصلني بحت بالسر عنوة ** وإن عنفتني في هواك عوازلي

إن كان موت لا أموت بغصتي ** وأقررت قبل الموت إنك قاتلي [٢]

ورغم تلك الأشعار بما فيها من جذب مرة، ومن تهديدات مرة أخرى من جانب العباسة إلا أن جعفر كان مصمماً على رفضه وحريصاً على عهد هارون الرشيد. فما كان من العباسة إلا أن لجأت إلى أسلوب الخديعة والمكر حيث أرسلت إلى عتابة والدة جعفر البرمكي تقول لها : « أن أرسليني إلى جعفر كأني جارية من جواريك اللاتي ترسلين إليه [٣] إلا أن أم جعفر تخوفت من هذا الأمر ورفضته فهددتها العباسة بأنها لم تفعل ما أمرتها به لباحت للخليفة بكذا وكذا - أي أنها ستبوح له بسر تعرفه هي - كما أغرتها العباسة بأنها إذا حملت من ابنها سيكون لهم الشرف في ذلك.

ولما لم تجدد أم جعفر بدءاً من الموافقة وافقت بذلك. وأخذت توعد ابنها بأنها ستهدي إليه جارية حسناء صفاتها كذا وكذا، وهيئتها كذا وكذا. ولما علمت والدته أنه قد اشتاق لها أرسلت إلى العباسة كي تهيئ نفسها له. فقامت العباسة باللازم في ذلك ودخلت على جعفر البرمكي الذي كان في حالة سكر تام. ولم يتعرف جعفر على العباسة عندما أدخلت عليه، وذلك لأنه لم يكن يراها إلا في حضرة هارون الرشيد هيبة له. وعندما قضى جعفر أمره منها سألته قائلة : كيف رأيت خديعة بنات الملوك؟ فقال لها جعفر: وأي بنت ملك أنت؟ قالت : مولاتك العباسة. فطار السكر من رأسه وجن جنونه.[٤]

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٨٤.

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، ص٣١٢.

(٣) كانت من عادة أم جعفر أن ترسل إلى ابنها جعفر في كل يوم جمعة جارية حسناء (المسعودي، المصدر السابق، ج٣، ص٢٨٤).

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٣٣٣، المسعودي، المصدر السابق، ج٣، ص٣٨٤.

كانت نتيجة هذه الخديعة من قبل العباسة أن اشتملت منه على حمل وولدت منه غلاماً. فخافت العباسة على نفسها وعلى غلامها إن علم به هارون الرشيد، وبأمرها فوكلت بابنها غلاماً اسمه «رياش» وحاضنة يقال لها «برة» وبعثت بهم إلى مكة. وظل الأمر إلى ذلك الوقت مستوراً عن أمير المؤمنين.[1]

ويقول ابن خلكان [2] : إن زبيدة التي كانت تكره البرامكة وأيامهم هي التي أخبرت الخليفة بأمر الصبي.

إلا أن الطبري [3] يقول : «إنه وقع بين عباسة وإحد جواريها شر فأنهت الجارية أمر الصبي إلى هارون الرشيد، وكما أخبرته بمكانه الذي أرسل إليه مع من هو من جواريها وما معه من الحلي الذي زينت به.

وعندما خرج هارون الرشيد إلى الحج في ذلك العام أرسل إلى الموضع الذي وصفته له الجارية وأمر بالبحث عن الصبي ومن معه من الغلام والحاضنة. فجدوا في ذلك الأمر حتى عثروا عليه. وبذلك صحّ عند الرشيد ذلك القول. وبات يضمر السوء على البرامكة.[4]

والمؤرخون المحدثون قد استبعدوا تلك القصة. وهنالك من اعتبرها اسطورة لا أساس لها من الصحة عند أغلب المؤرخين.[5]

ولعلهم اعتمدوا في وجهة نظرهم هذه على رأي ابن خلدون [6] الذي أزال التهمة عن العباسة ونفاها عنها بقوله : «هيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها وأنها بنت عبدالله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده والعباسة بنت المهدي بن عبدالله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء بن عبدالله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي. ابنة خليفة وأخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول ﴿ﷺ﴾ وعمومته ...».

وابن خلدون [7] لم ينف عنها التهمة بسبب تربيتها في ظل الإسلام وفي كنف حماة الدين فحسب، بل يستبعد اختلاط العباسة بهذا العجمي من موالي العجم، ويقول في نفس الموضع : « وكيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من العجم على بعد همته».

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٣٣٣.

(٢) نفس المصدر، ج١، ص٣٣٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٩٤.

(٤) المسعودي : مروج الذهب، ج٣، ص٣٨٧، ابن خلكان، المصدر السابق، ج١، ص٣٣٤.

(٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج٢، القاهرة، ١٩٥٩م ، ص١٧٠، جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة حسين مؤنس، ج٤، ص١٦٦.

(٦) المقدمة، ج١، ص٣١.

(٧) نفس المصدر،ج١، ص٣١.

أعداء البرامكة والساعين عليهم :

أعداء البرامكة هم الذين ستروا المحاسن وأظهروا القبائح [١] ذلك أنهم لما رأوا ما وصل إليه البرامكة من الجاه والنقود عملوا على الإحاطة بملكهم وهو ماعبر عنه ابن خلدون [٢] بقوله : « عظمت منهم الدالة وانبسط الجاه عندهم وانصرفت الوجوه نحوهم وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء ، وسرت في خزائنهم الأموال على سبيل التزلف والاستمالة وأفاضوا في رجال الشيعة ...واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك حتى آسفوا الباطنة وأحقدوا الخاصة وأعضوا أهل الولاية فشكفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت إلى مهادهم الوثيرة من الدولة عقارب السعاية».

ومن أبرز السعاة الذين كان لهم بالغ الأثر في إيغار قلب الخليفة على البرامكة هو الفضل بن الربيع بن يونس الذي كان حاجب الرشيد في ذلك الوقت ويتطلع إلى الوزارة.[٣]

وربما كان السبب في كيد الربيع للبرامكة هو تقصيرهم فيه، فقد حكى الفضل بن الربيع أنه قال : صرت إلى يحيى بن خالد فسألته حاجة فتقاعد عليّ فيها فقمت وأنا أقول :

عسى وعسى يثني الزمـان عنانه ** بتصريف حال والزمـان عثـور
فتقضي لبانات وتشفـي حسائك ** وتحدث من بعـد الأمور أمـور

قال: فقال لي يحيى : نعم يحدث الله من بعد الأمور أموراً أقسمت عليك يا أبا العباس لترجعن وهذه الحاجة عليّ في مالي إلى أن أكلم الخليفة.[٤]

ورغم أن يحيى البرمكي قضي للفضل بن الربيع حاجته من ماله الخاص إلا أن الظاهر أنه لم ينس تأخره له في قضائها .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١، ص٣٣٥.

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ج١، ص٣١.

(٣) البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٢٠٩.

(٤) الجهشياري : الوزراء الكتاب، ص٢٥١.

وما يدل على أن البرامكة قصروا في حق الفضل بن الربيع ما قاله عبدالله بن سليمان - وهو من معاصري البرامكة - : « إذا أراد الله عز وجل هلاك قوم وزوال نعمتهم جعل لذلك أسباباً ، فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع .[1]

إعطى هارون الرشيد الفضل بن الربيع بعض المهام، وبعد وفاة أمه الخيزران نجده ما أن خرج من مقبرة أمه حتى دعا بالفضل بن الربيع، ولما حضر قال له : « وحق المهدي - وكان لا يحلف بها إلا إذا اجتهد- إني لأهم لك من الليل بالشيء من التولية وغيرها ، فتمنعني أمي فأطيع أمرها فخذ الخاتم من جعفر». كما ولاه نفقات العامة والخاصة.[2]

مما لا شك فيه أن هذه التولية من هارون الرشيد للفضل بن الربيع جعلته ينتظر المزيد منه، ولا يمكن أن يحقق ذلك في وجود البرامكة، لذلك أخذ الفضل بن الربيع بتحين الفرص للإيقاع بهم عند الرشيد. فمن أبرز سموم الوشاية التي وشاهم بها عند الخليفة ما ذكره البيهقي [3] : أن الرشيد عندما عزل الفضل من ولاية خراسان وما جاورها ، عين مكانه علي بن عيسى بن ماهان الذي ظلم الناس ونهب بالأموال واستأصل شأفه الري والنهر والجبال وجرجان وطبرستان وكرمان وأصفهان وخوارزم وسيجستان، وأحرق العديد من المناطق، وملك أموالاً لا تعد ولا تحصى، ثم جهز من تلك الأموال هدية للرشيد لم يقدم مثلها أحد من قبل.[4]

هنا وجد الفضل فرصته للسعاية بالبرامكة، فأخذ يكشف عن تعصب البرامكة، وعن شهامة علي بن عيسى بن ماهان. وعندما سأله هارون الرشيد عما سيفعله بشأن هذه الهدية التي قدمت من خراسان، أشار عليه الفضل بإشارة فيها طعن للبرامكة وتشكيك في إخلاصهم للخليفة قائلاً له : «فليجلس أمير المؤمنين في المنظرة وليجلس أو يوقف يحيى البرمكي وولديه حتى تعرض الهدايا وتنفطر قلوب آل برمك ويثبت عند الخاص والعام ما أقدم عليه علي بن عيسى بن ماهان وما أقدم عليه هؤلاء من الخيانة، فإن الفضل بن يحيى البرمكي قدم الهدية من خراسان ، فما كانت توازي هدية يقدمها عامل من مدينة واحدة في حين أن عليّ بن عيسى يقدم كل هذا».[4]

---

(١) الجهشياري : الوزراء الكتاب، ص٢٥٣.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٨٣. ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٢، ص٧٤.

(٣) تاريخ البيهقي ، ص٤٤١.

(٤) نفس المصدر، ص٤٤٢.

كما كان للفضل ابن الربيع سعاية أخرى بالبرامكة ، فهو الذي أخبر الرشيد بأن جعفر بن يحيى قد أطلق سراح يحيى بن عبدالله العلوي، وكان الفضل قد علم بذلك الأمر من عين له كانت على جعفر.[1]

ووجد الفضل فرصة أخرى للسعاية عندما طلب هارون الرشيد من جعفر أن يعطيه عشرة آلاف دينار- فقد احتاج إليها هارون للمنادمة والتشاغل بالنساء - ورفض جعفر أن يعطيه أكثر من خمسة آلاف درهم، فما كان من الفضل إلا أن أخذ يعمل كل ما في وسعه ليقدم للخليفة هدية ترضيه هو وتجعله يغضب على البرامكة. فقدم له أموالاً عظيمة وذهباً كثيراً فرح بها هارون الرشيد فرحاً شديداً. وعندما سأل الربيع من أين أتى بكل هذا ؟ قال له الربيع : بعت حقي من قطيعة الربيع لأسرك عندما رأيتك مغموم. فقال له هارون الرشيد : «والله لأسرنك».[2]

ولا شك أن الفضل بن الربيع أراد بهذه الحيلة أن يظهر لهارون الرشيد بأنه يقدم مصلحته على مصلحة نفسه ، وأنه بإمكانه بذل الغالي والنفيس لإسعاد خليفته على عكس البرامكة الذين بخلوا عليه بعشرة ألف درهم، وقد نجح في ذلك، وهذا يظهر واضحاً من رد الرشيد له ، ووعده له بأنه سيسره.

ومن الحاقدين على ملك البرامكة أيضاً زبيدة زوجة هارون الرشيد التي كانت تكره البرامكة وأيامهم، لأنهم كانوا قد عملوا على تضييق المال عليها في الوقت الذي لم تحسن هي التصرف فيه.[3]

وكانت زبيدة تخص بهذه الكراهية جعفر بن يحيى البرمكي الذي لعب دوراً كبيراً في أخذ البيعة بولاية العهد للمأمون بعد أخيه محمد الأمين، فقد كانت تخشى أن يكون ذلك الأمر سبباً في الإيقاع بين الأخوين بعد وفاة هارون الرشيد، لذلك أخذت توغر قلب الخليفة عليهم.[4]

كما كانت زبيدة دائمة الشكوى من يحيى البرمكي. ويذكر ابن العماد [5] إن السبب في هذه الشكوى هو أن يحيى البرمكي كان ينظر في قصر هارون الرشيد وحرمه ويغلق أبواب القصر بالمفاتيح وينصرف حتى ضيق على حرم الرشيد لذلك شكته زبيدة إليه. ولما سأل هارون الرشيد يحيى عن سبب شكوى زبيدة الدائم

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٢، ص١٥، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٨٩

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٤٩.

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٣٧٣.

(٤) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٧٦.

(٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، ص٣٣٤.

منه، رد عليه يحيى قائلاً : هل أنا متهم في حرمك يا أمير المؤمنين؟ قال : لا. قال : فلا تقبل قولها فيّ، وازداد يحيى بعد ذلك غلظة وتشديد عليها.

ولم تكتف زبيدة بهذه الشكوى بل دبرت شكوى أخرى للخليفة ضد يحيى البرمكي، إلا أن هارون الرشيد ردّ عليها هذه المرة قائلاً لها : « يحيى عندي غير متهم في حرمي». هنا وجدت زبيدة ضالتها لتخبره بأمر أعظم فقالت : فلم لم يحفظ ابنه مما ارتكبه؟ وعندما سألها عن الشيء الذي ارتكبه جعفر أخبرته بقصة جعفر والعباسة وولدهما الذي بعث به إلى مكة. فغضب هارون الرشيد على ذلك الأمر غضب عظيم.[1]

هذه الوشاية الحقيرة من جانب زبيدة ربما كانت الفأس الذي صدع برأس البرامكة وعجل بذهاب دولتهم

وهناك أشخاص من خارج القصر كانوا أيضاً يكيدون للبرامكة ويتمنون ذهاب دولتهم مثل محمد بن الليث [2] الذي كان حاقداً على يحيى بن خالد بسبب تنكره له في أمر من الأمور. فقد رفع محمد هذا رسالة إلى هارون الرشيد يعظه فيها ويذكر له فيها : « أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيء، وقد جعلته بينك وبين الله، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه فسألك عما عملت في بلاده وعباده، فقلت : يا رب إني استكفيت يحيى أمور عبادك! أتراك تحتج بحجة يرضى لها ». وقد أرسل له مع هذه الموعظة شيء من التوبيخ والتقريع .[3]

كما وشى بهم محمد بن الليث مرة أخرى عندما أُخرج من السجن - بعد تنكر الرشيد للبرامكة - وسأله هارون الرشيد عما إذا كان يحبه أم لا. فأجابه بن الليث بالنفي - أي أنه لا يحبه- وعندما سأله الرشيد عن سبب عدم حبه له رد عليه قائلاً : «وضعت في رجلي الأكبال وحلت بيني وبين العيال بلا ذنب، أتيت ولا حدث أحدثت سوى قول حاسد يكيد للإسلام وأهله، ويحب الإلحاد وأهله».[4]

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٨٦.

(٢) محمد بن الليث : هو من موالي بني أمية، ومن الأشخاص الذين كانوا يكرهون العجم (ابن الدنيم، الفهرست، القاهرة، ١٣٤٨هـ، ص١٧٥).

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٨٨.

(٤) نفس المصدر، ج٨، ص٢٩٣.

ومن الوشاة أيضاً علي بن عيسى بن ماهان الذي وشى بموسى بن يحيى عند الرشيد «واتهمه عنده في أمر خارسان ، وأعلمه طاعة أهلها له ، ومحبتهم له ، وأنه يكاتبهم ويعمل على الإنسلال والوثوب به معهم». ولما كان موسى من الشجعان فقد وقع هذا القول في نفس الرشيد وجعله يعمل اللازم لتجنب ما يحصل من موسى بن يحيى.[1]

وهناك من أعداء البرامكة من يرسلون سعاياتهم عن طريق الكتب. فهذه قصة رفعت إلى الخليفة لم يعرف رافعها فيها :-

قل لأمين اللـــه في أرضــــه ** ومن إليــه الحـــل والعقـــد

هذا ابن يحيى قد غدا مالكـــاً ** مثلــك ما بينكمـــا حـــد

أمـــرك مـــردود إلى أمـــره ** وأمـره ليـــس لـــــه رد

وقد بنـــى الدار التي ما بنـى ** الفرس لها مثـــلاً ولا الهـند

الدر والياقـــوت حصباؤها ** وتربهــا العنبـــر والنـــد

ونحـــن نخـــشى أنه وارث ** ملكـــك إن غيـــبك اللحـد

ولا يبالـــي العبد أربابــه ** إلا إذا بطـــــر العـــبد[2]

وهــذه القصة التـــي رفعـــت من مجهـول قد أثرت تأثيراً بالغاً في نفس الخليفة، وكان لها مداها في نكبتهم.[1]

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٩٣.

(٢) ابـــن العمـــاد : شـــذرات الذهب في أخبـــار من ذهب، ج١، ص٣١٢، أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج٢، ص٢٨٨.

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٣١٢.

نكبة البرامكـــة و آثارها

اتفق المؤرخون على أن نكبة البرامكة كانت في سنة ١٨٧هـ -٨٠٢م وهي السنة التي حج فيها هارون الرشيد مع جعفر البرمكي.[١]

وقد تمثلت تلك النكبة في ثلاث أشياء :-

ا - مقتل جعفر البرمكي :

بدأت نكـبة البرامكة بصفى الرشيد وحِبه وهو جعفر البرمكي الذي كان الخليفة لا يقدر على مفارقته لحظة.[١]

وقد كان والد جعفر - يحيى البرمكي وهو صاحب بصيرة نافذة - يتنبأ بأن ابنه جعفر هذا سيكون السبب في نهاية البرامكة، وهذا واضحاً مما حكاه الجهشياري[٣] من أن جعفر البرمكي دخل يوماً على والده يحيى وكان معه شخص يدعى إسماعيل بن صبيح، فلما رآه يحيى داخلاً عليه كره رؤيته وغير وجهه. فأنكر عليه إسماعيل بن صبيح ذلك الكره الذي بدر منه لمن هو عزيز على الرشيد ، ولا يقدم عليه ولداً ولا ولياً. فرد عليه يحيى قائلاً : « والله لا يكون هلاك أهل هذا البيت إلا بسببه.

وربما كان هذا التنبوء من جانب يحيى البرمكي والد جعفر راجع إلى كثرة أخطاء جعفر في تلك الفترة والتي سبق الإشارة إليها.

والواقع أن هارون الرشيد بدأ في التغير على جعفر البرمكي أثناء رحلة العودة من الحج، فقد كان من عادة جعفر أن يتخذ لهارون الرشيد طعاماً كلما مر بسعفان فيقريه إذا انصرف من مكة إلى العراق.فلما كان في هذا العام اتخذ جعفر الطعام كما كان يفعل كل مرة إلا أن الرشيد إعتل عليه ولم يحضر طعامه.[٤]

ولم يزل جعفر معه حتى وافى الحيرة في محرم سنة ١٨٧هـ - ٨٠٢م بعد انصرافه من الحج، فأقام في قصر يسمى «عون العبادى» أيام ثم شخص في السفن حتى نزل العُمر الذي بناصية الأنبار.[٥]

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٦٩، ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٠٩، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٨٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٠١.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٣٣٢.

(٣) الوزراء والكتاب، ص٢٤٩.

(٤) الطبري : المصدر السابق، ج٨، ص٣٩٤.

(٥) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص٢١٠، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص٣٩٥.

ويُقال إنه في فترة إقامتهما بالأنبار خرجا معاً يوماً إلى الصيد، وكان الرشيد قد خلا به في اليوم دون ولاة العهد - الأمين والمأمون- وهو يسير معه ، وقد وضع يده على عاتقه ولم يفارقه ذلك اليوم إلى أن جاء المغرب. فلما أراد الرشيد الدخول إلى قصره ضمه إليه وقال له : لولا أني على الجلوس الليلة مع النساء لم أفارقك، فأقم أنت في منزلك، وأشرب أيضاً وأطرب لتكون أنت في مثل حالي. فانصرف جعفر إلى داره ورُسل الخليفة تأتي إليه في كل ساعة محملة بالأبخرة والرياحين.[1]

أما هارون الرشيد الذي كان ينوي الغدر بجعفر البرمكي فقد دعا غلامه ويُدعى مسرور قائلاً له : «قد انتخبتك لأمر لم أر له محمد ولا عبدالله ولا القاسم - يقصد أنه لم ير له حتى أولاده- فحقق ظني وأحذر أن تخالف أمري فتهلك». فقـــال له مسرور : لو أمرتني بقتل نفسي لفعلت. وعندما أخبره الرشيد بأن الأمر هو قتل جعفـــر البرمكي وجـــمّ الغلام ولم يستطع الرد على كلام الرشيد، وبعد أن مرت لحظات رد عليه الغلام قائلاً له : « إن الأمر أعظم مما كنت أتوقـــع، ولو أمرتنـــي بقتل نفســـي كان الأمر أهـــون عليّ مـــن ذلك». إلا أن الغـــلام في نهاية الأمر لم يجد بداً من تنفيذ أمـــر الخليفة الذي هـــدده بالقتل إن لم يفعـــل ذلك.[2]

وعندما ذهب الغلام لتنفيذ أمر الخليفة وجد جعفر البرمكي في لهوه وغنائه ووجد معه أبو زكار المغني يغنيه بهذا القول :-

عداني على أن أزورك غير بغض ** مقامك بـــين مصفحـــة شـــداد

فلا تبعد فكـــل فتى سيأتـــي ** عليه الموت يطرق أو ينـــادي [3]

ودخل الغلام على جعفر في سمره دون إذن منه فقال هل جعفر : لقد سررتني بإقبالك وسؤتني بدخولك عليّ من غير إذن. فرد عليه مسرور الخادم قائلاً له : إن الأمر أعظم من ذلك، فقد أمرني أمير المؤمنين بقتلك. فارتاع جعفر من ذلك القول وأخذ يترجاه ويقبل رجليه كي يتركه من هذا الأمر، إلا أن الخادم كان

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٩٩، أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي، ج٣، ص٢٨٩.

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، ص٣١٤، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٣٣٩.

(٣) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢١٠، ابن العماد ، المصدر السابق، ج١، ص٣١٤، ابن خلكان : المصدر السابق، ج١، ص٣٣٩، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢٣٥.

مصراً على تنفيذ أمر الخليفة ، فقال له جعفر : «لي عليك حق ولا تقدر على مكافأتي إلا الساعة». فقال له الخادم : تجدني سريعاً إلا فيما يخالف أمر أمير المؤمنين، فقال له جعفر : « إرجع إلى أمير المؤمنين وأعلمه بأمري، فإن ندم كانت حياتي على يديك وإلا نفذت أمره فيّ. إلا أن الغلام رفض ذلك القول. فعاوده جعفر بحل آخر قائلاً له : « أسير معك إلى حيث يوجد أمير المؤمنين، وتخاطبه أنت في أمري، وأسمع كلامه ومراجعته في الأمر، فإن أصر على قتلي فأفعل ما أمرت به». فوافق مسرور على ذلك. وعندما وصل إلى الخليفة أخبره بما كان من أمر جعفر. إلا أن الخليفة كان مصراً على رأيه وهدد غلامه بأنه لو راجعه مرة أخرى في قتل جعفر لقدمه عليه بالقتل - أي أنه سيقتله قبله- .[1]

ومـــا كان للغلام بعـــد هـــذا التهديد إلا أن يخضع لرأي الخليفة فضرب عنق جعفر وأتى برأسه إلى هارون الرشيد.[2]

وكان مقتل جعفر في ليلة السبت أول ليلة من صفر سنة ١٨٧هـ- ٨٠٢م وهو ابن سبع وثلاثين سنة. وعن موته في تلك الليلة وفي ذلك الشهر يقول أحد الشعراء :.

أيا سبت يا شـــر السبوت صبيحـة ** ويا صفر المشئـــوم ما جئت أشأما

أتى السبت بالأمر الذي هـــد ركننا ** وفي صفـر جـا ء البلاء مصممـــا [3]

لم يكتف هارون الرشيد بقتل جعفر فحسب ، بل نجده ما أن أصبح الصباح حتى بعث جثته مع جماعة منهم مسرور الخادم وأمرهم بقطعها وصلبها فقطعت قطعتين فصلب قطعة على الجسر الأعلى وقطعة على الجسر الأسفل ونصب رأسه على الجسر الأوسط.[4]

ظلت جثة جعفر مصلوبة على الجسر إلى أن أجتاز هارون الرشيد الجسر أثناء عودته من الحج في العام بعد التالي، فأمر بجثة جعفر وأحرقت ودُفنت وكان ذلك في سنة ١٨٩هـ - ٨٠٤م.[5]

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٥٩، أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي، ج٣، ص٢٩٠.

(٢) نفس المصدر، ج٨، ص٢٩٦.

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٧٤.

(٤) الطبري : المصدر السابق، ج٨، ص٣٠٠.

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١، ص٢٠١.

ولعل هذه الحادثة تبين مدى صدق إحساس جعفر البرمكي عندما رأى الخليفة هارون الرشيد يتأمل عنقه في يوم من الأيام، فسأل جعفر هارون الرشيد عن سبب تأمله الشديد لعنقه، فأجابه الرشيد قائلاً له:«أتأمل حسن عنقك وحسن موضع الجربان [1] منه». إلا أن جعفر لم يقتنع برد هارون الرشيد، فرد عليه قائلاً: « لا والله ما تأملت إلا موضع السيف منه» فأنكر الرشيد عليه ذلك القول. وعندما التقى هارون الرشيد بالفضل بن الربيـــع حكى لـــه ما دار بينهما وقال لـــه : « والله ما تأملـــت عنقه إلا لموضع السيف منـــه». [2]

وهنـاك قصة أخـرى تـدل على أن جعفـر البرمكـي كـان قد شعر بـأن أمره أوشـك علـى الـزوال وأن دولتهـم ذاهبة لا محـال. فقـد حُكي أنه كـان نائماً فـي الليلة السابقـة لمقتله فانتـبه من مكانـه مذعوراً يبكي، وعندما سئـل عـن سبـب بكائـه أخبر أنـه رأى في منامـه شيخاً جـاء وأخـذ بمعصم الباب وقال :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ** أنيس ولـم يسمر بمكـة سامـر

فأجابه جعفر قائلاً :.

بلى نـحن كنا أهلهـا فأبادنـا ** صروف الليالي والجدود العواثر [3]

---

(١) الجربان : رباط العنق وكان جعفر أول من عرفه وحشاه بالقطن (الجهشاري، الوزراء والكتاب، ص٢١٦).

(٢) نفس المصدر، ص٢١٦.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٩٧.

٢-- قبض يحيى والفضل وحبسهما حتى الموت :

لم يكتف الخليفة هارون الرشيد بقتل جعفر بل أرسل إلى من يثق به من خدمه وأمرهم بأن يصلوا إلى دور البرامكة ويحيطون بها وأن يمنعونهم من الدخول أو الخروج فيما عدا باب محمد بن خالد البرمكي.(١)

وبعد ذلك قام هارون الرشيد بحبس كل من الفضل وموسى وعدة من البرامكة ولم يفرق بينهم وبين خدمهم ولا ما يحتاجون إليه من جارية وغيره.(٢)

أما يحيى فقد ظل في منزله موكلاً به، ولعل السبب في عدم سجن يحيى البرمكي هو أن الخليفة هارون الرشيد كان قد كتب ليحيى من قبل كتاباً بخطه يحلف فيه بإيمان مغلظه أن لا يبدأه بسوء، ولا يناله في نفسه ولا في شيء من ماله وحاله، وأشهد بذلك على نفسه جميع أهله ووجوه قواده وأصحابه.(٣)

بل يؤكد الجهشيازي (٤) أن هارون الرشيد أعطاه حرية الاختيار بأن يقيم في أي مكان يريد الإقامة فيه ، فقال له : « إن كنت راضياً عني فأحب المواضع إليّ أن أقيم بمكة أو بعض الثغور، وإن لم ترض عني فلست أبرح موضعي حتى ترضى.

أما الفضل فقد ظل في محبسه محبساً سهلاً إلى أن جاء اليوم الذي أرسل إليه فيه الخليفة خادمه مسرور وأمره أن يسأل الفضل عن حقيقة أموالهم ، لأنه قد علم من مصدر ما أنه أبقى منها شيء عنده، فإن لم يفعل ما أمر به ويتحدث بحقيقة ما لديه من مال، فإن على مسرور أن يضربه مائتي سوطاً. وما كان من مسرور إلا أن نقل إليه قول أمير المؤمنين كاملاً ونصحه قائلاً له : « يا أبا العباس أرى لك أنك لا تؤثر مالك على نفسك فإني لا آمن إن نفذت ما أمرت به فيك أن آتي على نفسك». فرد عليه الفضل قائلاً : «ما كذبت أمير المؤمنين ولو كانت الدنيا لي، وخير لي بين الخروج منها وبين أن أقرع مقرعه لأخترت الخروج منها وأمير المؤمنين يعلم وأنت تعلم إنا كنا نصون أعراضنا بأموالنا ، وكيف صرنا اليومَ نصون أموالنا منكم بأنفسنا ؟ فإن كنت أمرت بشيء فامضِ به».(٥)

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٩٨، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢٤٠.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٧٩، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص٢٩٩.

(٣) الجهشياري : المصدر السابق، ص٢٤٠.

(٤) نفس المصدر ، ص٢٤٠.

(٥) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٩٣.

ظلت الأمور على هذا الحال إلى أن شخص الرشيد إلى الرقة وشخص يحيى بن خالد معه وهو مطلق وحمل معه ولده جميعاً، فلما وصولها وجه الرشيد إلى يحيى أن يقيم حيث يشاء ، إلا أن يحيى آثر أن يقيم مع ابنه الفضل في الحبس. فحبس معه ووسع عليهم وأطلق لهم ولدهم وخدمهم.(١)

ظل يحيى البرمكي باختياره في السجن مع ابن الفضل الذي كان باراً به أشد ما يكون البر. وقد حكى لنا ابن خلكان (٢) أن يحيى البرمكي والد الفضل كان يتأذى من استعمال الماء البارد في الشتاء. وفي أثناء إقامتهما في السجن لم يقدروا على تسخين الماء، لذلك كان الفضل يأخذ الإبريق النحاسي وفيه الماء فيضعه على بطنه زماناً حتى تنكسر برودته بحرارة بطنه فيستعمله بعد ذلك والده.

كما ظلت حالتهما في السجن سهلة وميسورة إلى أن جاء اليوم الذي قبض فيه هارون الرشيد على عبدالملك بن صالح بن علي الذي سعى به ابنه عبدالرحمن للخليفة وأخبره بأنه يطالب بالخلافة لنفسه. وقد وشي في هذا الأمر لهارون بأن يحيى البرمكي كان يعلم بأمره وستره عنه.(٣)

لذلك الأمر ولتلك الوشاية ضيق هارون الرشيد على يحيى وابنه في السجن ومنعوا من الناس ومُنع الناس منهم.(٤)

كما قسى الرشيد على الفضل ووالده بدرجة فشلت معها كل الجهود والمحاولات لاسترجاعه عن تلك القسوة، فهذه والدة جعفر (٥) التي كان هارون الرشيد يشاورها في كل صغيرة وكبيرة مظهراً لها الإكرام والتبرك برأيها – وكان الرشيد قد عاهدا وهو في كفالتها ألا يحجبها عنه ولا استشفعته لأحد إلا شفع له، ولا أرادت الدخول عليه إلا وأذن إليها بذلك – فقد جاءت إليه بعد أن قسى عليهما وطلبت الإذن بالدخول عليه من دار الباقونة بنت المهدي، فلم يأذن لها بالدخول إلا بعد إلحاح شديد، وعندما تمكنت من الدخول عليه أخذت تتوسل إليه بحق تربيتها له في حجرها وبحق رضاعها له وبحق أبُوة يحيى له أن يشفق عليهما ويرفق بهما. إلا أن هارون الرشيد من شدة غضبه عليهما ردها خائبة ذليلة.(٦)

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٤٤- ٢٤٥.
(٢) وفيات الأعيان : ج٢، ص١٥٠.
(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٣٧٥.
(٤) الجهشياري : المصدر السابق، ص٢٤٥.
(٥) كانت أم جعفر قد أرضعت هارون الرشيد مع ابنها جعفر، لأنه كان قد رُبي في حجرها فماتت أمه عن مهدها وابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥، ص٦٢.
(٦) نفس المصدر، ج٥، ص٦٣-٦٤.

كما قـام يحيى نفسه بتقديـم عدة رقاعات للخليفـة يستعطفه فيهـا ويذكره فيها حرمـته. إلا أن هـارون الرشيد كان متمنعاً في رفضـه لهـذه الاستعطافـات، وقد كتب على ظهر أحد هذه الرقاع الآتي : « إنما مثلك يا يحيى كمـا قـال الله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنـة مطمئـنة يأتيـها رزقاً رغـداً من كـل مكـان فكفـرت بأنعـم الله فأذاقـها الله لبـاس الجوع والخـوف بما كانـوا يصنعون ﴾ .[1]

ولم يكتفي يحيى بكتاباته هو بل لجأ إلى إسلوب الوساطة في ذلك الأمر، فقد طلب من محمد الأمين ابن زبيدة ورضيع يحيى بن جعفر بن يحيى أن يكلم والدته زبيدة في أمرهم. إلا أن محمد الأمين انشغل باللهو عنهم فكتب إليه يحيى البرمكي يذكره ويقول له :ـ

يا مـلازي وعصمتـي وعمـادي ** ومجيـري من الخطـوب الشداد

إن تراخـت يـداك عني فواقـاً ** أكلتنـي الأيـام أكـل الجـراد

بعدهـا تذكر محمد الأمين أمرهم فبعث بالورقة إلى أمه زبيدة التي بعثتها بدورها إلى هارون الرشيد وهو في موضع لذته وإقبال أريحته. فلما قرأها هارون وقّع في أسفلها (عظم ذنبك أمات خواطر العفـو عنـك).[2]

ومـن الاستعطافات التي أرسلهـا يحيى إلى هـارون الرشيد ما ذكره الجهشياري[3] من أن يحيى البرمكي قد كتب إلـى هارون الرشيد يقول له : «إن كان الذنب يا أمير المؤمنين خاصاً فلا تعم بالعقوبة فإن لي سلامة البرئ ومودة الولي» فوقع هارون الرشـيد علـى حاشية كتابـه : «قضى الأمر الذي فيه تستفتيان».

لم تنجـح كل هذه الاسترحامـات التي قدمها يحيى البرمكي في أن تلين قلب الخليفة عليهم وتجيرهم من قسـوة السجن ومعاناته، ولعل تلك الأبيات التي كـان يرددها الفضـل في السجـن

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص١٥٣ - ١٥٤.

(٢) ابن عبدربه : العقد الفريد، ج٥، ص٦٥.

(٣) الوزراء والكتاب : ص٥٣.

لدليل واضح على شدة معاناتهم ، فقد كان يقول :

إلى الله فيما لنا نرفع الشكوى ** ففي يده كشف المضرة والبلوى

خرجنا إلى الدنيا ونحن من أهلها ** ولا نحن بالأموات فيها ولا الأحياء

إذا جاء السجان يوماً عجبنا ** وقلنا جاء هذا من الدنيا [1]

ظل يحيى البرمكي يعاني في سجنه إلى أن توفى في محرم سنة ١٩٠هـ - ٨٠٥م وصلى عليه ابنه الفضل، وكان عمره سبعين سنة، وقيل أربع وسبعين سنة.[2]

حزن عليه هارون الرشيد حزناً شديداً وقال : « اليوم مات أعقل الناس وأكملهم» ثم سأل الرشيد أولاده قائلاً لهم : هل أوصى بشيء؟ فقالوا : ما عرفنا من شيئاً من ذلك، ولكن وجدنا كتاباً كتبه وختمه ووضعه تحت رأسه. وعندما جاءوا بهذه الورقة وجد مكتوباً عليها « قد تقدم الخصم والمدعى عليه في الأثر، الحاكم لا يحتاج إلى بينة» . وعندما قرأ الرشيد ذلك حزن حزناً شديداً وصار يبكي يومه كله.[3]

أما الفضل فقد أصابه في السجن ثقل في لسانه وشقه فعولج منه أشهراً فبرأ منه. ولكن عادوته العلة من جديد واشتدت عليه فأنعقد لسانه وطرفه، وظل بهذه العلة إلى أن مات سنة ١٩٣هـ - ٨٠٨م، وصلى عليه أخوانه في القصر، واشتد الجزع عليه من الخاصة والعامة ، ودُفن بجانب قبر أبيه، وعمره حين مات كان خمس وأربعين سنة .[4]

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٠٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢١٢، المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٩٢.

(٢) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص٢٠٥، ابن خلكان، المصدر السابق، ج٣، ص٢٢٨؛ الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٦١، المسعودي، المصدر السابق، ج٣، ص ٣٩٥.

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق، ج٣، ص٢٨٨، ابن كثير، المصدر السابق، ج١٠، ص٢٠٥.

(٤) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص٢٠٦، ابن خلكان، المصدر السابق، ج٢، ص ١٥١، الجهشياري، المصدر السابق، ص٢٦٢، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢١٠.

٣- مصادرة أموالهم وممتلكاتهم :

تمثل الأمر الثالث من نكبة البرامكة في أخذ ضياعهم وممتلكاتهم.[١] فقد أمر هارون الرشيد بضم أموالهم ، فوجد من العشرين ألف ألف التي كانت مبلغ حبايتهم منها أثنا عشر ألف ألف مكتوب عليها صكوك مختومة بتفسيرها، وفيما حُبوا بها، فما كان حباء على غريبة. وقد أثبت يحيى كل شيء في ديوانها على تواريخ أيامها، فكان ديوان انفاق واكتساب.[٢]

وقد أخذ من سائر أموالهم ألف ألف وستمائة ألف وستة وسبعين ألف بالإضافة إلى أنه أخذ سائر ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم. والجليل والدقيق من أشيائهم التي لا يعرف أقلاها وأيسرها فضلاً عن جميعها. إلا من أحصى الأعمال وعرف منتهى الآجال.[٣]

أما حرمهم فقد أبرزت لدار الباقونة بنت المهدي وعشن من صدقات من لم يزل متصدقاً عليهن.[٤]

ولعل أكبر دليل على أن الرشيد قد جرّد البرامكة من ممتلكاتهم وجعلهم أذلة ما حكاه أحد الهاشميين من أنه دخل على والدته في يوم نحر فوجد عندها امرأة في أثواب رثة، وعندما سألته والدته عما إذا كان يعرف هذه المرأة. قال لها : لا، فأخبرته والدته أنها والدة جعفر بن يحيى. وبعد ذلك أقبل عليها الهاشمي يعظمها ويحادثها فقال لها : يا أماه ما أعجب ما رأيت! فردت عليه أم جعفر قائلة «يا بني لقد أتى عليّ عيد مثل هذا وأنا على رأسي أربعمائة وصيفة وأني لأعد ابني عاقاً لي ، ولقد أتى عليّ هذا العيد وما أتمنى سوى جلد وشاشتين أفترش أحدهما والتحف الآخر» فدفع إليها الرجل ٥٠٠درهم فكادت أن تموت فرحاً وأخذت تتردد عليهم إلى أن جاءها الموت.[٥]

---

(١) المسعودي : مروج الذهب، ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣١٥.

(٢) ابن عبدربه : العقد الفريد، ج، ص٦٢.

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، ص٣١، ابن عبدربه، المصدر السابق، ص٦٢.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥١، ابن عبدربه ، المصدر السابق، ج٥، ص٦٢.

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٩٧، المسعودي، المصدر السابق، ج٣، ص٣٩٢، ابن خلكان، المصدر السابق، ج١، ٣٤١.

وبعد نكبة البرامكة اختلت أمور الرشيد، وقد ظهر ذلك الاختلال واضحاً في المجال السياسي، وهو ما عبر عنه المسعودي [1] بقوله : «بان للناس قبح تدبيره وسوء سياسته».

وقد بدأت سوء سياسته تظهر منذ أن شرع في التغيير عليهم حيث قام بتعيين علي بن عيسى بن ماهان على خراسان إغاظة ليحيى البرمكي الذي نصحه بأن لا يعينه عليها، لأنه رجل جبار وظالم. وقد حصل ما توقعه يحيى البرمكي، فقد قام علي بن عيسى بن ماهان بتدمير خراسان ، ونهب أموالها. [2]

ولم يكتف ابن ماهان بتدميرها ونهب أموالها فحسب، بل عمد إلى أكثر من ذلك، فقد عين رافع بن الليث بن نصر بن سيار والياً على بلاد ما وراء النهر، وكان رافع بدوره قد خرج على الدولة بعد ذلك وانضم إليه كثيراً من الجيش، كما انضم إليه الكثيرون من وجوه مرو وطوائف ما وراء النهر، فانتشرت الفتنة وقوى أمره فهزم العديد من الجيوش التي أرسلها علي بن عيسى. فطلب ابن عيسى المعونة من هارون الرشيد الذي أرسل إليه جيش كبير على رأس هرثمة بن أعين وأمره بالقبض على عليّ بن عيسى بن ماهان ، وأن ينصف أهل خراسان منه، وبعدها يتفرغ لأمر رافع بن الليث الذي أخذ أمره يعلو يوماً بعد يوم مما اضطر الرشيد في آخر أيامه أن يقود بجسده المحطم جيشاً كبيراً جعل على مقدمته ابنه المأمون، وكان في طريقه يقول :« و أسفاً على آل برمك إني لأذكر اليوم ما قال يحيى ما استوزر الخلفاء بعد يحيى». [3]

وفي هذا التأسف الشديد من جانب هارون الرشيد على البرامكة دليلاً قاطعاً على أنه قد فقد العقل المدبر والبصيرة النافذة، ولو أنه أطاع لرأي يحيى البرمكي لأغنى الخليفة نفسه عن ذاك الذي حدث.

كما بان قبح تدبيره منذ أن عين الفضل بن الربيع على وزارته فقد أخذ الفضل في خدمة هارون الرشيد في حضرته وترك ما وراء بابه. [4]

---

(١) المسعودي : التنبه والاشراف، ص٢٩٩.

(٢) البيهقي : تاريخ البيهقي، ص٤٤٢.

(٣) نفس المصدر ، ص٤٤٣.

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٦٥.

كما أختل النظام الإداري بعد البرامكة. وما يدل على ذلك أن هارون الرشيد عندما توفى كانت هنالك أربعة آلاف خريطة لم تفض، فقد كانت أمور البريد مهملة غاية الإهمال.[١]

وأفصح هارون الرشيد بنفسه عن عجز هؤلاء الذين عينهم بعد البرامكة، فكان يقول : «حملونا على نصائحنا وكفتانا وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم، فلما صرنا إلى ما أرادوا لم يغنوا عنا شيئاً». بل كان ينشد البيت التالي كثيراً :-

اقلــوا علينــا لا أبــاً لأبيــكم ** من اللوم أوسدوا المكان الذي سدود [٢]

هذا الاعتراف من جانب هارون الرشيد فيه تصريح بأن البرامكة قد كانوا قمة في التنظيم الإداري والسياسي، بحيث لا يستطيع أحد من مواليهم أن يصل إلى درجتهم أو يسد مكانتهم.

لهذه الفجوة الكبيرة التي أحدثها البرامكة ندم الرشيد ندماً شديداً على ما كان منه في أمرهم، وتحسر على ما فـرط في أمرهم، وكان دائماً ما يخـاطب خواصـه بأنه لـو وثق بصفـاء النيـة منهم لأعـادهم إلى حالهم».[٣]

كمـا كان يقـول دائماً : « لا آمن مـن أغراني بقتل البرامكة ما رأيت رخـاء بعدهم، ولا وجدت لذة ولا راحة ... وددت والله أني شوطـرت عمـري ونصـف مالي وملكـي، وأني تركـت البرامكة علـى أمرهـم».[٤]

انتهت أيام البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الحسنة من خلافة هارون الرشيد إلى قتل جعفر البرمكي وكانت سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً.[٥]

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٦٥.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٢٨.

(٣) الجهشياري : المصدر السابق، ص٢٥٨.

(٤) الأربلي (عبدالرحمن سنبط) : خلاصة الذهب مختصر من سير الملوك، القاهرة، ١٨٨٥م، ص١٠٧.

(٥) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص٣٩١.

رثـــاء الشعـــراء للبرامـــكة

كان لنكبة البرامكة تأثير عميق في نفوس الرعية بما فيهم الشعراء والأدباء والخطباء. وكما مدحهم الشعراء في فترة وزارتهم فإنهم قد رثوهم بعد نكبتهم رغم « أن هارون الرشيد لما نُكب البرامكة واستأصل شأفتهم حرّم على الشعراء أن يرثوهم وأمر بالمؤاخذة في ذلك».[1]

وفيهم يقول أحد الشعراء :.

الآن استرحنا واستراحت ركابنا ** وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي

فقل للمطايا قد أمنت من السرى ** وطيِّ الفيافي فدفداً بعد فدفد

وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ** ولن تظفري من بعده بمسود

وقل للعطايا بعد فضل تعطلي ** وقل للرزايا كل يوم تجددي

ودونك سيفاً برمكياً مهنداً ** أصيب بسيف هاشمي مهند [2]

وقال فيهم شاعر آخر ويُدعى أشجع السلمي :.

ولي عن الدنيا بنو برمك ** فلو تولى الناس ما زادا

كأنما أيامهم كلها كانت ** لأهل الأرض أعيادا [3]

وقال آخر :

أندب بني برمك لدنيا ** تبكي عليهم بكل واد

كانت لهم برهة عروساً ** فأضحت اليوم في حداد [4]

وهناك العديد من الشعراء الذين خصوا جعفر بالعديد من القصائد، منها قول أحدهم عندما نظر إلى جعفر مصلوب الجسر :.

---

(١) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٩٩.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٠٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص١٩١، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٧٨.

(٣) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص٣٩١.

(٤) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٠، ص١٩١.

أمـا والله لـولا خـوف واشٍ ** وعـين للخليفـة لا تنـام

لطفنا حول جزعـك واستلمنـا ** كما للنـاس بالحجـر استـلام

فما أبصرت قبلك يا ابن يحـيـى ** حسـاماً فلـه السيـف الحسـام

على اللـذات والدنيـا جميعـاً ** ودول آل برمـك السـلام [1]

ويُقالُ أن هارون الرشيد لما قتل جعفر البرمكي وقفت امرأة على حمار فارة وقالت بلسان فصيح: «والله يا جعفر لئن صرت اليوم آية لقد كنت في المكارم غاية» ثم أنشدت تقول :-

ولما رأيـت السيـف خالـط جعفـر ** ونـاد منـادي للخليفـة في يحـيى

بكيـت على الدنيـا وأيقنت أنمـا ** قصاري الفـتى يومـاً مفارقـة الدنيا

وما هـي إلا دولـة بعد دولـة ** تخـول ذا نعمى وتغضـب ذا بلـوى

إذا أنـزلـت هـذا منـازل رفيعـة ** من الملك حطت ذا إلى الغاية القصوى [2]

كما قال فيهم شاعر في شعر طويل :-

أن يغدر الزمن الخئـون بنـا فقـد ** غـدر الزمـان بجعفـر ومحمـد

حتـى إذا وضـع النهـار تكشفت ** عـن قـتل أكـرم هالك لم يلحـد

والبيـض لولا أنهـا مأمـورة ** مـا فـُلّ حـد مهنـد بمهنـد

يـا آبرمـك كـم لكـم من نائل ** وندى كعد الرمل غير مصـدد [3]

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٩١.

(٢) نفس المصدر ج١٠، ص١٩٢.

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٠١.

وزير الخليفة بعد بني برمك

(الفضل بن الربيع)

الفضل بن الربيع بن يونس بن محمد بن كيسان بن أبي فروة. والده هو الربيع بن يونس وزير المنصور.[١] أما الفضل فقد كان حاجباً للمنصور والمهدي والهادي والرشيد.[٢]

ولما تولى الخلافة هارون الرشيد واستوزر البرامكة كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بهم ومعارضتهم، ولم يكن له من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم فكان في نفسه منهم شحناء وبغضاء، كما كان دائم السعاية بهم كما سبق ذكره.[٣]

ولعل مما شجع الفضل بن الربيع على بغض البرامكة أن هارون الرشيد كان يميل إليه كثيراً ويوليه الأعمال خاصة بعد وفاة والدته الخيزران فقد قيل إنه بعد وفاة الخيزران خرج الرشيد من مقبرة أمه ودعا الفضل بن الربيع، فلما حضر قال له : « وحق المهدي - وكان لا يحلف بها إلا إذا اجتهد - إني لأهم لك من الليل بشـــيء من التولية وغيـــرها فتمنعني أمي فأطيـــع أمرها، فخذ الخاتم من جعفر.» كما ولاه نفقات الخاصة والعامة.[٤] لذلك نجد أن هارون الرشيد ما أن نكب البرامكة حتى استوزر الفضل بن الربيع.[٥]

ولهارون الرشيد الحـــق في أن يولي الفضل وزارته فلقد كان الفضل بن الربيع شهماً خبيراً بأحوال الملوك وآدابهم.[٦]

ظـــل الفضل بن الربيع في وزارته لهارون الرشيد إلى أن توفى الرشيد بطوس ثم تولى الأمر بعده محمد الأمين.[٧] وفي خلافة الأمين لعب أدواراً كبيرة في ساحة الأحداث.[٨]

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٥، ص٣٠٥.

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢١١.

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق، ج٢، ص١٥١.

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٢، ص١١٤، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٨٣.

(٥) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص٢١١.

(٦) نفس المصدر ، ص٢١١.

(٧) ابن خلكان : المصدر السابق، ج٢، ص١٥١.

(٨) سيرد الحديث عن الدور الذي لعبه في ساحة الأحداث في الفصل القادم من هذا البحث.

الفصل الثالث

الوزارة من خلافة الأمين إلى خلافة الواثق

المبحث الأول

دور الوزراء في الصراع بين الأمين والمأمون

١ - بيعة هارون الرشيد بولاية العهد للأمين ثم المأمون ثم المؤتمن.

٢- دور وزير الأمين «الفضل بن الربيع» في غرس بذور الفتنة بعد وفاة هارون الرشيد

٣- دور الفضل بن سهل في تحريض المأمون على الأمين.

٤- أثر تحريضات وزيري الأمين والمأمون في الصراع بينهما.

المبحث الثاني

الوزارة في خلافة المأمون

١ - وزارة الفضل بن سهل.

٢- نقل الخلافة من بيت العباس إلى بيت علي وأثر ذلك في مقتل الفضل بن سهل.

٣- وزارة الحسن بن سهل.

٤- وزراء المأمون بعد بني سهل :

١ - وزارة أحمد بن خالد الأحول.

٢- وزارة أحمد بن يوسف.

المبحث الثالث

الوزارة في خلافة المعتصم والواثق

١ - وزارة الفضل بن مروان.

٢- وزارة أحمد بن عمار بن شاذي

٣- وزارة محمد بن عبدالملك الزيات «وزير المعتصم والواثق»

المبحث الأول

(دور الوزراء في الصراع بين الأمين والمأمون)

١ - بيعة هارون الرشيد بولاية العهد للأمين ثم المأمون ثم المؤتمن

كان هارون الرشيد قد أهم بموضوع الخلافة من بعده. لذلك الأمر استدعى يحيى بن خالد البرمكي وقال له : « يا أبا الفضل إن رسول الله «ﷺ» مات في غير وصية، والإسلام جذع والإيمان جديد، وكلمة العرب مجتمعة أمنها الله تعالى بعد الخوف، وأعزها بعد الذل ، فمالبث أن أرتد عامة العرب على أبي بكر، وكان من خبره ما قد علمت ، وأن أبابكر صيّر الأمر إلى عمر، فسلم الأمة له ورضيت بخلافته ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد.. ».[١]

ويرجع الطبري [٢] السبب في تفكيره في هذا الأمر هو : « أن جماعة من بني العباس قد مدوا أعناقهم للخلافة بعد هارون الرشيد ، إذ لم يكن قد أختار بعد ولياً لعهده ».

وعلى ذلك عقد هارون الرشيد بالبيعة لابنه محمد بولاية العهد من بعده في شعبان سنة ١٧٥هـ-٧٩١م وأخذ له البيعة من القواد والجند وسماه الأمين وعمره حينئذ خمس سنوات.[٣]

ويُقال إن الذي سعى في بيعة محمد الأمين هو الفضل بن يحيى البرمكي الذي جاء إليه عيسى بن جعفر خال محمد الأمين وطلب منه أن يسعى في بيعة محمد بن زبيدة قائلاً له : « إنه ولدك وخلافته لك، فوعده الفضل بذلك وسعى فيها حتى بايع الناس له بولاية العهد.[٤]

وقد قال الشعراء في بيعة الأمين وهو ابن خمس سنوات :.

قد وفق الله الخليفة إذ بنى ** بيت الخلافة للهجان الأزهر

فهو الخليفة عن أبيه وجده ** شهدوا عليه بمنظر وبمخبر

قد بايع الثقلان في مهد الهدى ** لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر [٥]

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٦٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٤٠. عبدالعزيز الدوري، العصر العباسي الأول، بغداد، ١٩٤٥م، ص١٧٧.

(٣) الأربلي : خلاصة الذهب المسبوك ، ص٨٧.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٢٢.

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٦٥.

بايع الرشيد لابنه محمد بن زبيدة بولاية العهد من بعد استجابة لرغبة زبيدة ورغبة بني هاشم في هذا الأمر.[1]

إلا أن هارون الرشيد لم يكن مطمئناً لتوليته العهد لابنه محمد بن زبيدة ،وهذا يظهر واضحاً من مخاطبته ليحيى البرمكي قائلاً له : «قد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصبيره إلى من أرضى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته وآمن ضعفه ووهنه وهو عبدالله وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم وفيه ما فيه من الإنقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حوته يده ومشاركة النساء والإماء في رأيه. وعبدالله المرضي الطريقة الأصيل الرأي الموثوق به في الأمر العظيم. فإن مَلت إلى عبدالله أسخطت بني هاشم، وإن أفردت محمد الأمين بالأمر لم آمن تخليطه بالرعية، فأشر عليّ في هذا الأمر في رأيك مشورة يعم فضلها ونفعها فإنك بحمد الله مبارك الرأي». فرد عليه يحيى قائلاً : «إن كل ذلة مستقالة ، وكل رأي يتلافى خلا هذا العهد ، فإن الخطأ والذلة فيه لا تستدرك، وللنظر فيه مجلس غير هذا ». وبعد مناظرات طويلة بين الرشيد ويحيى البرمكي أخذت جزءاً كبيراً من الليل افترقا على عقد الأمر لعبد الله بن محمد ».[2]

ارتاح هارون الرشيد لهذا القرار لأنه كان يتوسم النجابة والرجاحة في عبدالله المأمون، وكان كثيراً ما يقول : «والله إن فيه حزم المنصور ونسك المهدي وعزة نفس الهادي ، ولو شئت أن أقول الرابعة مني لقلت، وإني لأقدم محمد بن زبيدة ، وإني أعلم أنه متبع هواه ولكن لا استطيع غير ذلك.[3]

هذه التصريحات من جانب الخليفة هارون الرشيد في تولية محمد الأمين قبل المأمون تدل على أن الخليفة كان مكرهاً عليها وليس باختياره تم الأمر، بل هناك جهات تحضه وترغمه على ذلك وهم زبيدة وبنو هاشم كما سبق ذكره.

وعلى ذلك الاتفاق الذي تم بينه وبين يحيى البرمكي قام هارون الرشيد في سنة ١٨٢هـ-٧٩٨م بأخذ البيعة لولده عبدالله بولاية العهد من بعد أخيه محمد الأمين. وذلك بالرقة وضمّ ابنه عبدالله إلى جعفر بن يحيى البرمكي وبعثه إلى بغداد ومعه جماعة من أهل هارون الرشيد خدمة له وولاه خراسان وما يتصل بها وسماه المأمون .[4]

(١) الأربلي : خلاصة الذهب المسبوك، ص٨٧.

(٢) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٦٣.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٦٥.

(٤) نفس المصدر : ج١٠، ص١٧٩

بعد البيعة لعبد الله المأمون بايع الخليفة هارون الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد بعد المامون وولاه الجزيرة والثغور والعواصم.[1] وهكذا قسم الخليفة هارون الرشيد الأرض بين أولاده الثلاثة، ولما فعل ذلك قالت بعض العامة : « قد أحكــم أمر الملك» وقالت البعض « بل ألقى بأسهم بينهم وعاقبة ذلك مخوفة علي الرعية».[2]

أراد هارون الرشيد أن يؤكد البيعة لأبنائه ويوثقها، لذلك نجده عندما رجع في سنة ١٨٦هـ-٨٠٢هـ ومعه أولاده محمد وعبدالله والوزراء والقضاء وقضى مناسكه كتب لعبد الله كتاب أجهد فيه الفقهاء والقضاة آرئهم فيها.[3]

أحد هذه الكتب على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما وُلي عبدالله من الأعمال وسير إليه من الضياع والغلات والجواهر والأموال.[4]

وقد جاء في نسخة ذلك الكتاب « وشرطت لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين برضا مني وطيب نفس أن لأخي عبدالله بن هارون عليّ الوفاء بما عقده له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جيعاً بعدي وتسليم ذلك له وما جعل له من الولاية على خراسان وأعمالها كلها وما أقطعه أمير المؤمنين من قطعة أو جعل له ضيعة من ضياعه وما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حلى أو جواهر أو متاع أو كسوة أو منزل أو دواب أو قليل أو كثير فهو لعبدالله بن هارون أمير المؤمنين موقراً مسلماً إليه، وقد عرفت ذلك شيئاً شيئاً».[5]

والكتاب الثاني يحوي البيعة التي أخــذها هارون الرشيد على الخاصة والعامة والشروط لعبدالله على محمد.[6]

وقد جاء في نسخة الكتاب الثاني : « هذا كتاب هارون أمير المؤمنين كتبه له عبدالله بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله وجواز من أمره وصدق نيته فيما كتب في كتابه هذا ومعرفه بما فيه من

(١) الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين) : الأغاني، ج١٧، ٦٤.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٧٦، حسن إبراهيم، النظم الإسلامية، القاهرة، ١٩٦١م، ص٥١.

(٣) نفس المصدر ، ج٨، ص٢٧٧.

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٢، ص١٧٣.

(٥) الطبري : المصدر السابق، ج٨، ص٢٧٨.

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٧٣.

الفضل و الصلاح لأهل بيته وجماعة المسلمين أن أمير المؤمنين هارون الرشيد ولاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون وولاني في حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها. وشرط علي محمد بن هارون بما عقد لي من الخلافة وولاية أمور المسلمين والبلاد بعده وولاية خراسان وجميع أعمالها، ولا يعرف لي شيء مما أقطعني أمير المؤمنين أو ابتاع لي من الضياع والرتاع أو ابتعت منه من ذلك وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والكساء والجواهر والمتاع والدواب والرقيق وغير ذلك، ولا يعرض لي ولا أحد من عمالي وكتابي بسبب محاسبة ولا يتبع لي في ذلك، ولا لأحد منهم أبداً، ولا يدخل عليّ ولا عليهم ولا من كان معي ومن استعنت به من جميع الناس مكروهاً في نفس الآدم ولا شعر ولا بشر ولا مال ولا صغير من الأمور ولا كبير». [١]

كانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام، وقد أحضر الرشيد وجوه بني هاشم والقواد والفقهاء إلى البيت الحرام، وأخذ بقراءة الكتاب على عبدالله ومحمد وأشهد عليه جماعة من حضر. ثم تقدم هارون الرشيد بعد ذلك إلى الحجبة في حفظها ومنع من أراد إخراجها والذهاب بهما. [٢]

ولما رفعت هذه الكتب لتعلق على الكعبة وقعت، فتشاءم الناس وقالوا : إن هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه. [٣]

كما قيل في أمر هذه البيعة أن رجلاً كان يقود بعيره وهو يقول : وبيعة قد نكث أيمانها وفتنة قد سُعرت نيرانها» فقيل له : ويحك ما تقول؟ قال : أقول إن السيوف ستسل والفتنة ستقع والتنازع في الملك سيظهر، فقيل له : كيف ترى ذلك؟ قال : أما ترى البعير واقفاً والرجلان يتنازعان والغربان قد وقعا على الدم والتطخا به، والله لا يكون آخر هذا الأمر إلا محاربة وشراً. [٤]

وقد قال الشعراء في عقد البيعة بالكعبة :.

خيـــر الأمـــور مغبـــة ** وأحـــق أمـــر بالتمـــام

أمـــر قضـــى أحكامـــه الر ** حمن في البلـــد الحـــرام [٥]

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٨١- ٢٨٢.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٧٣.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٨٧، الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص١١٠.

(٤) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٦٤.

(٥) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص١٨٧.

٣- دور وزير الأمين «الفضل بن الربيع» في غرس بذور الفتنة بعد وفاة هارون الرشيد

في سنة ١٩٣هـ- ٨٠٨م سار هارون الرشيد إلى طوس لإخماد ثورة رافع بن الليث بن نصر ابن سيار [١] فمرض هناك واشتدت عليه العلة. [٢] ولما اتصل خبر علته بمحمد الأمين ما كان منه إلا أن وجه أحد رجاله ويُدعى بكر بن المعتمر وجعل له في كل يوم ألف دينار، وأرسل معه كتب منها كتاب إلى المامون يأمره بأخذ البيعة لهما وللمؤتمن أخيهما، وكتاب آخر إلى أخيه صالح بن هارون الرشيد يأمره بالقدوم بالعسكر والأموال برأي الفضل بن الربيع، وكتاب آخر إلى الفضل بن الربيع يأمره فيه بالاحتفاظ على ما معه من الحرم والأموال إن حدث بالرشيد حادث الموت. [٣]

وقد جعل هذه الكتب في قائمة صناديق منقورة وألبسها جلود البقر وقال له : لا يظهرن أمير المؤمنين ولا أحد من العسكر على شيء من أمرك مهما توجهت فيه ولا ما معك ولو قتلت حتى يموت أمير المؤمنين، فإذا مات فادفع إلى كل رجل كتابه. [٤]

ويعود السبب في هذا الاحتياط من جانب الأمين وحرصه الشديد على إرسال هذه الكتب إلى أن الرشيد حين شخص إلى خراسان قبل ذلك كان قد جدد البيعة للمامون على القواد الذين معه وأشهد من معه من القواد وسائر الناس وغيرهم أن جميع ما معه من الجند منضمون للمامون، وأن جميع ما معه من مال وسلاح وغيره للمأمون، فعظم ذلك الأمر على الأمين. [٥]

ذهب بكر بن المعتمر إلى معسكر هارون الرشيد بطوس، وعند وصوله علم هارون الرشيد بذلك كما عرف أن معه كتب ظاهرة وكتب باطنة إلى القوم تأمرهم بالاحتياط على ما في المعسكر، فدعاه هارون الرشيد ليستخرجها منه، إلا أنه أنكر ذلك قائلاً له : ما معي إلا الكتب التي أوصلتها. فأمر بما معه وفُتش

---

(١) رافع بن الليث : كان رافع بن نصر بن سيار قد خرج في سنة ١٩٠هـ - ٨٠٥م مغاضباً بأرض خراسان، وسبب خروجه أن علي بن عيسى بن ماهان والي خراسان من قبل هارون الرشيد. لما ولي خراسان أساء السيرة وتحامل على من كان بها من العرب، وأظهر الجور، فخرج عليه رافع هذا وواقعه في عدة وقعات ثم انحاز في من أتبعه من أهل خراسان وكانوا ٣٠ ألف رجل إلى سمرقند ، وأقام بمدينتها (الدينوري، الأخبار الطوال، ص٣٩١).

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٩٠.

(٣) نفس المصدر، ج٣، ص٤٩٠-٤٩١.

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٦٦، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٢٣.

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٢٣، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص٣٦٦.

فلم يصيبوا شيئاً. فأمر هارون الرشيد بضربه، إلا أن الضرب لم يقره ثم حبس وقُيد وأمر الفضل بن الربيع بتقريره إن أقر وإلا ضرب عنقه. فقرره الفضل ولم يقر بشيء.[١]

وعندما توفى هارون الرشيد وصحّ ذلك الخبر عند بكر بن المعتمر دعاه الفضل بن الربيع من ساعته وسأله عما عنده فأخبره بأن لديه كتب من أمير المؤمنين محمد الأمين بن هارون. وأتاهم بها ، وكانت هذه الكتب في قوائم المطابخ المجلدة بجلود البقر ودفع إلى كل واحد كتابه.[٢]

أحد هذه الكتب لأخيه عبدالله المامون. وكان فيما كتب به محمد إلى أخيه المامون كتاب طويل في فصل من « وأضمم إلى المسلمين بن الميمون الفضل بن الربيع ولد أمير المؤمنين رحمه الله وخدمه وأهله وآمره بالمسير إليّ فيمن معه من رابطته وجنده» كما قال له في فصل آخر من نفس الكتاب «وإياك أن تنفذ رأياً أو تبرم أمراً إلا برأي شخيك وثقة ابائك الفضل بن الربيع ، وأقر الخدم على ما في أيديهم من الأموال والخزائن والسلاح، ولا تخرجن أحداً منهم عن ضمن ما يلي إلى أن تقدم عليّ به، وإن أمرت لأهل عسكرك بعطاء أو رزق فليكن الفضل بن الربيع المتولي لاعطائهم على دفاتر يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدواوين ، فإن الفضل بن الربيع لم يزل متقلد مثل ذلك عند مهمات الأمور ، وأنفذ إليّ عند وصول كتابي هذا إسماعيل بن صبيح وبكر بن المعتمر على مركبهما من دواب البريد.[٣]

فلما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد الأمين من القواد والجند وغيرهم تشاوروا في اللحاق بمحمد الأمين وترك العهود التي أخذها الرشيد لابنه عبدالله المامون. فقال الفضل بن الربيع : « أنا لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدري ما يكون من أمره». وأمر الناس بالرحيل إلى بغداد ففعلوا ذلك محبة منهم للحوق بأهلهم ببغداد تاركين العهود التي أخذت عليهم، وجمع الفضل كل العسكر الذي كان الرشيد قد أوصى به للمامون وتوجه به إلى بغداد ، ولم يتلفت إلى المامون.[٤]

ولعل في هذه العبارة «لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدري ما يكون من أمره» فيه الكفاية لفهم الأساس الذي بنيت عليه تصرفات الفضل بن لربيع بين الأخويين، فهو ينظر إلى مصلحة من بيده الملك اليوم ولا يحفل ببيعة ولا عهد ولا يكترث بوحدة قومية ولا يحفل باحلال الوفاق بين العباد ، ولا يعمل على مصافاة ولا وداد ، إنما همه الأول والأخير هو الملك الحاضر والإمعان في إرضاء من يؤل إليه الملك.

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٢٢.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٩١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٢٣.

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٧٦، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٦٧.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٣، ص٤٩١، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص٣٧٠، ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢١٢، ابن كثير، المصدو السابق، ج١٠، ص٢٢٣.

٣- دور الفضل بن سهل في تحريض المأمون على الأمين

للتصرفات السابقة والتي قام بها الفضل بن الربيع من نكث العهود التي أبرمها مع هارون الرشيد، جمع المامون من كان عنده من القواد وقواد أبيه وهم عبدالملك بن مالك، ويحيى بن معاذ، وشبيب بن حميد بن قحطبة، والعلاء مولى الرشيد والذي كان على حجابته، والعباس بن سهل وهو على شرطته، وأيوب بن أبي سمير الذي كان على كتابته، وذو الرياستين الفضل بن سهل وهو أخصهم وأحظاهم عنده، فأشار عليه بعض هؤلاء بأن يلحق بهم في ألفي فارس ويحول بينهم وبين ما أرادوا.[١]

إلا أن الفضل بن سهل رفض هذا الاقتراح قائلاً : إن فعلت هذا لم آمن أن يقبضوا عليك ويجعلوك هدية إلى محمد، ولكن تقيم وتكتب إليهم كتاباً وتوجه إليه رسولاً يذكرهم البيعة ويسألهم الوفاء ويحذرهم الغدر والحنث.[٢]

انقاد المامون لإشارة الفضل بن سهل - الذي كان يثق بكفاءته ويؤمن بكياسته وحسن سياسته، ويقتنع بثقوب بصره وصدق نظره- فبعث شخص يدعى سهل بن صاعد وكان عاقلاً حازماً وبعث معه نوفل الخادم مولى الهادي، وبعث معهما كتبه. فلما وصل الرسول إلى الفضل بالكتب قرأها الفضل ورد عليهم قائلاً : «أنا واحد من الجند».[٣]

رجع الرسول إلى المامون بخيبة أمل وأخبره بالأمر، إلا أن الفضل بن سهل أخذ يهون على المامون الأمر، ويحثه على الثبات وعدم الزلزلة قائلاً له : هؤلاء أعداء وقد استرحت منهم وبعدوا عنك، ولكن أفهم عني شيئاً أقوله «أن هذه الدولة لم تكن قط قد أعز منها في أيام المنصور، فخرج عليه المقنع يدعى الربوبية وقال بعضهم خرج يطالب بدم أبي مسلم فتضعضع العسكر لخروجه ثم خرج بعده يوسف البزم وهو كافر فقامت عليه القيامة. وأنت رأيت حيث خرج رافع بن الليث كيف كان الحال حين ورد عليهم جند رافع؟ قال له المامون: اضطربوا اضطراباً شديداً. قال له الفضل بن سهل كيف بك وأنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم كيف يكون اضطراب أهل بغداد؟ أصبر قليلاً وأنا أضمن لك الخلافة. فقال له المامون : قد فعلت والله لأشكرنك.[٤]

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٢٤.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٩١.

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٧١، ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣، ص٤١٩.

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٧٧-٢٧٨.

كان الفضل بن سهل مواصلاً في تحريض المامون على الثبات في موقفه ومواصلاً في نصائحه التي تصلح شأنه وتفلح أمره. وعندما جعل له المامون حرية العمل في كل ما أراد رد عليه قائلاً له : « إن هؤلاء الرؤساء كعبدالله بن مالك ويحيى بن معاذ وغيرهم من القواد أنفع لك مني، لما قد شهر وتقدم من رياستهم وما عندهم من القوة على الحرب، فدعني أكن خادماً لك حتى تصير لي محبتك وتجعل إليهم ظاهر الأمر». فرحب المامون بفكرته قائلاً له : «أفعل مارأيت». فذهب الفضل إلى هؤلاء في منازلهم وذكرهم البيعة وما يجب من الوفاء بها. قال الفضل : فكنت كأني آتيهم بجيفة على طبق لا يحل أكلها فيدفعني بعضهم ويقول لي بعضهم : ومن يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه؟. فلما أعلم المامون بذلك الأمر جعل له حرية التصرف مرة أخرى على حسب ما يرى.[1]

فلجأ الفضل إلى حيلة أخرى لإظهار قوة المأمون فأشار عليه بإظهار الورع والدين وحسن السيرة في الوقت الذي كان فيه محمد الأمين مشغولاً باللهو ومعاشرة المجان.[2]

وقد جاءه الفضل يوماً وقال له : قد قرأت القرآن وفهمت أمر الدين والرأي أن تجمع الفقهاء وتدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة وأن تواصل النظر في المظالم وتكرم القواد وأبناء الملوك. ففعل ذلك. وزاد عليها بأن وضع عن خراسان ربع الخراج. فحسن موقع ذلك من أهل خراسان واغتبطوا لذلك الأمر وأقبلوا يؤيدونه في مسعاه فقلوا : « ابن أختنا وابن عم النبي ﴿ﷺ﴾ ».[3]

إذن فقد تمكن الفضل بن سهل ببعد نظره وثاقب فكره أن يضمن للماون محبة أهل خراسان وتأييدهم له مما كان له بالغ الأثر في انتصارات المأمون فيما بعد.

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٧٢، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٢٤.

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢١٢.

(٣) ابن خلدون : العبر، ج٣، ص٤٩٢، ابن الأثير، المصدر السابق، ج٦، ص٢٢٥.

أثر تحريضات وزيري الأمين والمامون في الصراع بينهما

بعد وفاة هارون الرشيد أرسل صالح بن هارون الرشيد إلى أخيه محمد الأمين شخص - رجاء الخادم- ليعلمه بوفاة والده، وأرسل له معه البردة والخاتم والقضيب. وما كان من الأمين إلا أن أنتقل من قصره قصر الخلد إلى قصر أبي جعفر المنصور قصر الخلافة، وأمر الناس بالحضور ليوم الجمعة. فحضروا وصلى بهم، فلما فرغ من صلاته صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ونعى الرشيد إلى الناس وعزى نفسه والناس ووعدهم خيراً وبسط الأمل وأمن الأسود والأبيض وبايعه كل الناس من القواد وسائر الجند، وأمر للجند بمدينة السلام برزق أربعة وعشرين شهراً وبخواص ما كانت له خاصة بهذه الشهور.[1]

أما المأمون فعندما بلغه نبأ وفاة والده وهو في خراسان رجع إلى مرو ودخل دار الإمارة ونعى الرشيد على المنبر وشق ثوبه ونزل وأمر للناس بمال ثم بايع لمحمد أولاً ولنفسه ثانية.[2]

وهذا يبين أن عبدالله المامون قد نوى الوفاء بالعهد وألزم نفسه لما أمره به والده هارون الرشيد من أمر ولاية العهد لأخيه محمد أولاً وله ثانية، ولم يخالف في الأمر شيء.

وكذلك الأمر مع محمد الأمين فقد ظهرت نيته في تنفيذ عهد أبيه واضحة من الكتاب الذي أرسله مع بكر بن المعتمر لأخيه صالح موصياً له بما يتخذه من الإجراءات بعد وفاة هارون الرشيد، فقد جاء في هذا الكتاب « خذ البيعة على من قبلك من ولد أمير المؤمنين وأهل بيته ومواليه وخاصته وعامته لمحمد بن أمير المؤمنين ثم لعبد الله بن أمير المؤمنين ثم للقاسم بن أمير المؤمنين على الشريطة التي جعلها أمير المؤمنين صلوات الله عليه من فسخها على القاسم أو إثباتها، فإن السعادة واليمن في الأخذ بعهده والمضي على مناهجه.[3]

ومن هنا يتضح أن كلاً من محمد الأمين وعبدالله المامون قد كان في نيتهما الوفاء بعهد والدهما. ولم ينويا الغدر والنكث بذلك العهد. إلا أن هناك ظروف محيطة بكل منهما هي التي تدخلت في الأمر، وقد تمثلت تلك الظروف في بطانتهم ووزرائهم. وأول هؤلاء المتدخلون هو الفضل بن الربيع الذي قدم من طوس

---

(١) الدينوري : الأخبار الطوال، ص٣٩٣، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٩٠.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٧٠.

(٣) نفس المصدر ، ج٨، ص٣٦٨.

إلى العراق ناكثاً عهد الخليفة الذي أخذه لعبدالله المامون. وكان الفضل قد فكر في أمر المامون وعلم أنه إن أفضت إليه الخلافة وهو حي لم يبقِ عليه جزاء له على ما فعله من نكث العهود. لذلك سعى في خطة للتخلص من المامون فعمل على إغراء الأمين وحثه على خلع المامون والبيعة لابنه موسى بولاية العهد بدلاً منه.[1]

ولم يزل الفضل بن الربيع يزين للأمين خلع عبدالله المأمون ويصغر له من أمره قائلا له : « ما تنتظر لعبدالله والقاسم فإن البيعة كانت لك متقدمة قبلهما وإنما أدخلا فيها بعدك واحداً واحداً». وقد ساعد الفضل بن الربيع في قوله هذا علي بن عيسى بن ماهان والسندي وغيرهم من الذين كانوا يخشون المامون ونصره.[2]

وقد خالفهم في هذا الرأي عبدالله بن خازم الذي نصح الأمين قائلاً له : «أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تكون أول الخلفاء نكث عهده ونقض ميثاقه ورد قول الخليفة ، فقال له الخليفة غاضباً عليه : أسكت فإن عبدالملك بن مروان كان أفضل منك رأياً وأكمل نظراً، يقول : « لا يجتمع فحلان في هجمة إلا قتل أحدهما صاحبه».[3]

كما استشار الأمين في هذا الأمر شخص يدعى يحي بن سليم - وهو أحد المقربين إليه والمختصين به- فأشار عليه يحيى قائلاً له : « يا أمير المؤمنين كيف تفعل ذلك مع ما قد أكد الرشيد من بيعة وأخذ الشرائط والإيمان في الكتاب الذي كتبه. فرد عليه الأمين قائلاً : «إن رأي أمير المؤمنين الرشيد كان فلتة شبهها عليه جعفر بن يحيى البرمكي فلا ينفعنا ما نحن فيه بخلعه».[4]

وكما هو واضح من رد الأمين على رأي عبدالله بن خازم ويحيى بن سليم إنه لم يقتنع بما أشاروا عليه في هذا الأمر وأنه كما يقول ابن طباطبا [5] : « قد مال إلى رأي الفضل بن الربيع في ذلك».

أخذ محمد الأمين يفكر في خلع أخيه عبدالله المامون، واستفحل ذلك الأمر في ذهنه حتى أنه أصبح

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٢٧.

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص١٦٦، ابن الأثير، المصدر السابق، ج٦، ص٢٢٨.

(٣) الدينوري : الأخبار الطوال، ص٣٩٤.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق، ج٦، ص٢٣٣.

(٥) الفخري في الآداب السلطانية، ص٢١٣.

غير قادراً على الصبر عليه. فقد قال للفضل بن الربيع يوماً، يا فضل أحياة مع عبدالله؟ لابد من خلعه. فأخذ الفضل يعده بذلك والمامون يقول له : متى ذلك إذا غلب على خراسان وما فيها.[1]

وكان أول ما بدأ به محمد الأمين - عن رأي الفضل بن الربيع- أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمامون والقاسم بن الرشيد.[2]

ولما بلغ المأمون ذلك الأمر من الدعاء لابنه موسى وعزل القاسم عما كان الرشيد قد ضم إليه من الأعمال علم أنه يدبر في خلعه ، فما كان إلا أن قطع عنه الريد وأسقط اسمه من الطرز والضرب.[3]

هذه التصرفات التي قام بها المأمون أزعجت الأمين وأغضبته أشد الغضب فتحامل على المامون. ومما زاد من تحامله عليه انضمام كبار القادة إلى عبدالله المامون. ومن هؤلاء القادة الذين انضموا إليه رافع بن الليث بن نصر بن سيار الذي كان ثائراً في خراسان، فقد حضر إلى المامون وطلب منه الأمان، بعدها علم بحسن سيرة المامون. فأكرمه المامون وقبل منه وأعطاه الأمان كما جاء هرثمة - أحد القواد الكبار- أيضاً وأكرمه المامون كما ولاه الحرس.[4]

أنكر محمد الأمين انضمام هؤلاء القادة والشجعان إلى عبدالله المامون ، فكان رد فعله على ذلك أن وجه أربعة أشخاص وهم العباس بن موسى بن محمد علي ، وعيسى بن أبي جعفر المنصور، وصالح صاحب المصلى ، ومحمد بن عيسى بن نهيك يطلب إليه أن يقدم موسى ابنه على نفسه ويحضر عنده، فقد استوحشه بعده.[5]

فلما قــرأ المامون هذه الرسالة دعا الفضل بن سهل وسأله عن رأيه في ذلك فرد عليه الفضل قائلاً : « إن لك من شيعتــك وأهل ولايتك بطانــــة ، وفي مشاورتهم تأنيس لهم، وفي قطع الأمر عنهم قلة ثقة فيهـــم فشاورهـــم».[6]

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٢٨.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٤٩٤، ابن الأثير، المصدر السابق، ج٦، ص٢٢٨.

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٧٥، ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣، ص٤٩٤.

(٤) الطبري : المصدر السابق، ج٨، ص٣٧٥.

() ابن خلدون : المصدر السابق، ج٣، ص٤٩٤. ابن الأثير، المصدر السابق، ص٢٢٩.

(٦) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٨٩.

كما خصص له الفضل بن سهل بأن يستشير هشام والد أحمد وعلي، فلما استشار المامون هشام رد عليه قائلاً : «إنما أخذت البيعة علينا على أن لا نخرج من خراسان، فمتى فعل محمد ذلك فلا بيعة له في أعناقنا والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله تعالى وبركاته، ومتى هممت بالمسير إليه تعلقت بك بيميني فإذا قطعت تعلقت بيساري، فإذا قطعت تعلقت بلساني، فإذا ضربت كنت قد أديت ما علي».[1]

أثر ذلك القول تأثيراً قوياً في نفس المامون وقوى من عزمه على الوقوف في وجه أخيه محمد الأمين والتمسك بحقه. فكان رده على رسول الله الأمين بالرفض التام ، وأخبره بأنه لن يقدم موسى على نفسه، ولن يحضر إليه. فخاطبه العباس في ذلك قائلاً له : « ما عليك أيها الأمير في ذلك، فهذا جدي عيسى بن موسى قد خلع فما ضره». هنا تدخل الفضل بن سهل قائلاً : أسكت إن جدك كان أسيراً عندهم وهذا بين أخواله وشيعته.[2]

وبعد ذلك وجد الفضل بن سهل فرصة في العباس بن موسى ليكسبه لجانب المامون فخلا به الفضل ووعده بإمرة بعض المواضع في مصر، فأجاب سراً إلى بيعة المامون ، كما وعده العباس أن يكتب للمامون بأخبار بغداد عند عودته. وبذلك رجع الرسول إلى محمد الأمين ومعه رسالة من المامون يقول فيها : «أما بعد فإن الإمام هارون الرشيد ولاني هذه الأرض على حين كلب من عدوها ووهي من سرها وضعف من جنودها ومتى أخللت بها أوزلت عنها لم آمن انتفاض الأمور فيها وغلبة أعدائها عليها بما يصل ضرره إلى أمير المؤمنين، فرأى أمير المؤمنين أن لا ينتقض ما أبرمه الإمام الرشيد.[3]

بهذا الرد القاطع من عبدالله المامون وجد الفضل بن الربيع فرصته للتحريض ، فألح على محمد الأمين بأن يخلع المامون وأن يبايع لابنه موسى. فما كان من محمد الأمين إلا أن أمره بذلك، كما أعطاه الأموال ليبايع لابنه موسى وسماه «الناطق بالحق».[4]

لم يكتفِ الفضل بن الربيع بذلك بل نهى عن ذكر عبدالله المامون والقاسم والدعاء لهما على شيء من المنابر ودسّ لذكر عبدالله والوقيعة فيه، كما وجه إلى مكة رسول من كتابه يأمره بأخذ الكتابين اللذين كان

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٣٠.

(٢) نفس المصدر ، ج٦، ص٢٣٠.

(٣) الدينوري : الأخبار الطوال، ص٢٩١.

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٩٢.

هارون الشيد قد كتبهما وجعلهما في الكعبة. فقدم الرسول بهذين الكتابين. ولما جاء بهما الفضل بن الربيع إلى محمد الأمين قبضهما منه وأجازه بجائزة عظيمة ومزق الكتب وأبطلها.[1]

وبعد ذلك فكر محمد الأمين في نزع بعض ما لدى أخيه المامون من أعمال خراسان فاستشار في ذلك الأمر إسماعيل بن صبيح، فعارضه إسماعيل في ذلك قائلاً له : يا أمير المؤمنين إن مسألتك له الصفح عما في يده من الأعمال توكيد للظن وتقوية للتهمة ومدعاة للحذر، ولكن تكتب إليه وتعرفه حاجتك إليه وشوقك إلى قربه وإيثارك الاستعانة برأيه ومشورته ونسأله القدوم عليك فإن ذلك أحرى ألا يوحشه.[2]

وكعادة محمد الأمين فإنه لم يكترث لوصية إسماعيل بن صبيح فأرسل إلى المامون يطلب منه أن يتنازل له عن بعض كور خراسان، وأن يكون له عنده صاحب بريد يكاتبه بالأخبار. وكان رد فعل المامون على ذلك أن جمع القوم واستشارهم في الأمر، فأشاروا عليه بإجابة محمد الأمين، ففي إجابته المصلحة الخاصة والعامة. إلا أن الحسن بن سهل عارض ذلك الرأي قائلاً لهم : « هل تعلمون أن محمداً تجاوز إلى طلب ما ليس له بحق؟ قالوا : نعم ونحتمل ذلك لما نخاف من ضرر منعه. قال لهم الحسن : هل تثقون بكفه بعد ذلك وألا يتجاوز بالطلب إلى غيره؟ قالوا له : لا ولكن نرجو السلامة. قال لهم : فإن تجاوز إلى مرحلة أخرى أليس قد تعجلنا الوهن بما أعطيناه . كما عرض المامون الأمر على الفضل قائلا له : « لا يمكنني مخالفته وأكثر القواد والأموال معه والناس مائلون إلى الدراهم والدنانير لا يرغبون في عهد ولا أمانة ، ولست في قوة حتى امتنع ». فرد عليه الفضل قائلاً له : « إن عاقبة الغدر شديدة وتبعته غير مأمونة ورب مقهور عاد قاهر وليس النصر بالقلة أو الكثرة، والموت أيسر من الذل والضيم وما أرى أن تسير إلى أخوك متجرداً من قوادك وجندك كالرأس الذي فارق بدنه فتكون عنده كبعض رعيته يجري عليك حكمه من غير أن تبلى عذراً». كما قال له بعد أن أوضح له كيفية التغلب على كل المشاكل والضغوط المحيطة به «ثم أجمع أطرافك وضم جندك وأضرب الخيل بالخيل والرجال بالرجال.[3]

مال المأمون لنصيحة الفضل بن سهل ، فضمّ جنده وجمعهم وكتب إلى الأمين قائلاً له : « أما بعد فقد وصل إليّ كتاب أمير المؤمنين ، وإنما أنا عامل من عماله وعون من أعوانه أمرني الرشيد بلزوم أمري إن

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٩٢، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٧٧.

(٢) الدنيوري : الأخبار الطوال، ص٣٨٣.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٣٣، الجهشياري، المصدر السابق، ص٢٨٩-٢٩٠.

مقامي هنا أردّ على أمير المؤمنين وأعلم غناء عن المسلمين فإن كنت مغتبطاً بقربه مسروراً بمشاهدة نعمة الله فأعفني من الشخوص إليك». [1]

فلما قرأ محمد الأمين كتاب عبدالله المأمون وأطلع عليه وعرف ما فيه من التحدي له علم أن المامون لا يجيبه إلى ما يريد ، لذلك قام في صفر سنة ١٩٥هـ-٨١٠م بخلعه وبايع لابنه موسى وأمر بالدعاء له وهو حينئذ طفل صغير. [2]

عند ذلك تأكـد عبدالله المأمون من حقيقة نوايا محمد الأمين العدائية نحوه وما كان يضمره له من سوء. لذلك اضطر إلى إغلاق الحدود بينه وبين العراق حتى يمنع الأمين من التأثير على أهل خراسان، كما وضع علـى مراصد الطـرق ثقات من الحرس لا يأذنون لأحـد باجتـياز هـذه الحدود إلا بـإذن خاص وبعد تفتيش دقيق. [3]

تعددت المراسلات بين الأخوين ونما الشر بينهما، وكان بقدر ما عند المامون من التيقظ والضبط عند الأمين من الإهمال والتفريط. [4]

عندما وصل النزاع بينهما ذروة الخطر وتأزم الموقف أصبح كل واحد منهما يعد عدته للحرب. فانتدب محمد الأمين علي بن عيسى بن ماهان لقيادة جيشه قائلاً له : « إني رأيت أن تسير بالجيوش إلى خراسان فتلي أمرها من تحت يدي عبدالله بن أمير المؤمنين ، فانتخب من الجنود والجيوش على عينك». ثم أمر له بديوان الجند فانتخب ستين ألف رجل من أبطال الجنود وفرسانهم. وقد أوصاه أمير المؤمنين محمد الأمين قائلاً له : « أكرم من هناك من القواد وضع عن أهل خراسن نصف الخراج ولا تدع أحد يسل عليك سيف أو يرمي عسكرك بسهم. ولا تدع عبدالله ثلاثاً من يوم تصل إليه حتى تشخصه إليّ. [5]

والواقع أن أمه زبيدة كان أسد رأياً منه. فإن علي بن عيسى بن ماهان لما أرسله محمد الأمين حضر إلى باب زبيدة ليودعها فقالت موصية له : « يا علي إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي وإليه انتهت شفقتي فإني على عبدالله المامون منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى، وإنما ولدي ملك نافس أخاه في

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص ٤٩٥، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٢٣.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٨٩، ان خلدون، المصدر السابق، ج٣، ص٤٩٥.

(٣) الطبري : المصدر السابق، ج٨، ص٣٨٩.

(٤) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢١٥.

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٤٩٥، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٢٣.

سلطانه فأعرف لعبد الله حق ولادته وأخوته ولا تجبهه بالكلام فإنك لست نظيراً له ولا تقتسره اقتسار العبيد و لا توهـــنه بقيد أو غلّ ولا تمنع عنه جارية أو خادماً، ولا تعنف عليه في المسير، ولا تركب قبله وخذ بركابه إذا ركـــب وإن شتـــمك فاحتمل منه» ثم دفعت إليه قيداً من فضة وقالت : إذا صار إليك فقيده بهذا القيد.[١]

وعندما خرج جيش علي بن عيسى بن ماهان ذكر مشايخ بغداد إنه لم يُر جيشاً كان أظفر سلاحاً ولا أكمل عدة ولا أفرة خيلاً ولا أنبل رجالاً منه.[٢]

ويقول ابن طباطبا [٣] : إن النـــاس كانوا يجزمون بنصـــرة علي بـــن عيسى بن ماهان استعظاماً له ولعسكره .

ولما ورد إلى الفضل بن سهل خبر خروج علي بن عيسى بن ماهان بجيش عظيم فإنه انتدب طاهر بن الحسين لقيادة جيش المامون بعد أن ولاه بعض المناطق وأمر له بمئة ألف درهم.[٤]

وافق طاهر بن الحسين على قيادة جيش المامون وجمع إليه رؤوس أصحابه واستشارهم في أمر حربه. فأشاروا عليه بأن يتحصن بمدينة الري ويحارب القوم من فوق السور إلى أن يأتيه المدد من المامون.إلا أنه لم يوافقهم في الرأي فرد عليهم قائلاً : «ويلكم أنا أبصر بالحرب منكم إني متى تحصنت استضعفت نفسي ومال أهل المدينة إليه لقوته وصاروا أشد عليّ من عدوي لخوفهم من ابن ماهان، ولعله يستقل بعض ما معي مع الأطماع والرأي أن ألف الخيل بالخيل والرجال بالرجال ، والنصر من عند الله».[٥]

خرج طاهر بن الحسين لملاقاة علي بن عيسى بن ماهان ، فالتقى الجيشان في ظاهر الري واقتتلوا قتالاً فكانت الغلبة فيه لطاهر بن الحسين وقتل علي بن عيسى بن ماهان وجيّ برأسه إلى طاهر، فكتب طاهر إلى عبدالله المامون يقول : « أما بعد فهذا كتابي إلى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ورأس علي بن عيسى بن ماهان بين يدي وخاتمه في يدي وجنده تحت أمري والسلام».[٦]

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٤٩١، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٩٦.

(٢) ابن الأثير :الكامل في التاريخ ، ج٦، ص٣٩٧، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص٣٩١.

(٣) الفخري في الآداب السلطانية، ص٢١٤.

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٩١.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق، ج٦، ص٣٩٧.

(٦) ابن خلدون: العبر، ج٣، ص٣٩٧، الجهشياري، المصدر السابق، ص٢٩٢، ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢١٤.

غضب الفضل بن الربيع لذلك النصر لما بلغه لذلك نجده أحضر وكيل المامون من بغداد واسمه نوفل الخادم فقبض على ما بيده من ضياع وغلات وخمسين ألف درهم.[1]

أما محمد الأمين فعندما ورد عليه خبر علي بن عيسى بن ماهان وهو يصطاد السمك ، قال للذي أخبره بذلك دعني فإن كوثر قد اصطاد سمكتين وأنا إلى الآن ما اصطدت شيئاً.[2]

وهذا الرد من محمد الأمين يكفي العاقل إنهاماً بأنه كان مشغولاً باللهو والصيد عن مهمات الأمور

أرسل محمد الأمين بعد ذلك جيشاً في ثلاثين ألف رجل بقيادة عبدالرحمن بن جبلة بعد أن أجازه بجوائز عظيمة وولاه حلوان إلي حد ما غلب عليها من خراسان. وعندما استعد عبدالرحمن بن علي بن جبلة للخروج أوصاه محمد الأمين بأن لا يغتري كاغتراء ابن ماهان. وسار عبدالرحمن حتى وصل همذان وبلغ مسيره طاهر بن الحسين فتقدم نحوه والتقوا جميعاً فاقتتلوا ولم يكن لأصحاب عبدالرحمن بن جبلة ثبات فانهزم واتبعه أصحابه فدخلوا همذان وتحصنوا فيها شهراً حتى نفذ الزاد الذي كان معهم ، فطلب عبدالرحمن الأمان له ولجميع أصحابه فأعطاهم طاهر الأمان.[3]

إلا أن عبد الرحمن بن جبلة خاف من الأمين، لذلك حاول الغدر بهم فزحف إليهم في الفجر لقتالهم ووضع فيهم السيوف ، إلا أن أصحاب طاهر هجموا عليه وقاتلوهم حتى هزموا وقتل عبدالرحمن بن جبلة وأصحابه.[4]

لما بلغ محمد الأمين قتل عبدالرحمن وهزيمته، عقد الأمر هذه المرة لشخص يدعى عبدالله الحرسي في خمسة ألف جندي، وعقد ليحيى بن علي بن عيسى بن ماهان في خمسة ألف مقاتل أخرى، إلا أن هؤلاء انهزموا دون قتال ورجعوا إلى حلوان، إلا أن طاهر لحق بهما فهزمهما ، وأقام طاهر بحلوان، وهناك أتاه هرثمة من قبل المامون في ثلاثين ألف من جنود خراسان، وسار طاهر من حلوان نحو البصرة والأهواز.[2] وتقدم هرثمة حتى أحدق ببغداد وأحاط بمحمد الأمين ونصب المنجنيق على داره حتى ضاق ذرعاً بذلك.[6]

---

(١) ابن خلدون : العبر، ج٣، ص٣٩٧.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٤١٣-٤١٤، ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣، ص٣٩٦.

(٣) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢١٤.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية، ج٦، ص٢٢٧، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٩٩.

(٥) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص٢٢٧، ابن خلدون،المصدر السابق، ج٣، ص٥٠٢.

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٣٩٩.

وكان هرثمة يحب إصلاح حال محمد الأمين والإبقاء عليه. فعندما أرسل إليه محمد الأمين يسأله في أمره وإصلاح ما بينه وبين المامون على أن يخلع نفسه ويسلم الأمر إليه ، فكتب إليه هرثمة يقول له : « ينبغي أن تدعو إلى ذلك قبل تفاقم الخلاف، فأما الآن فقد بلغ السيل الزبى ، ومع ذلك فإني مجتهد في إصلاح أمره ، فصر إليّ ليلاً لأكتب بصورة أمرك إلى عبدالله المامون وآخذ لك عهداً وثيقاً ، ولست آلو جهداً ولا إجتهاد في كل ما عاد بصلاح حالك وقربك إلى أمير المؤمنين». إلا أن طاهر أحسّ بالمراسلة التي تمت بينهما وما اتفقا عليه ، فلما أقبل محمد الأمين وركب بمن معه الماء شدّ عليه طاهر فأخذه ومن معه ثم دعا به في منزله فقتله وأحضر رأسه إلى المامون.[1]

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٤٤٠.

المبحث الثاني

الوزارة في خلافة المأمون

١ - وزارة الفضل بن سهل

هو الفضل بن سهل بن عبدالله السرخسي، أبوه سهل، من أولاد المجوس، أسلم أيام هارون الرشيد.[١]

اتصل سهل بيحيى البرمكي [٢] وأحضر بنيه الفضل والحسن، فاتصل الفضل بن سهل بجعفر البرمكي وتقلد قهرمته واتصل الحسن بن سهل بالعباس بن الفضل بن يحيى وخدماهما وعرفهما يحيى بن خالد ورعى لهما ولايتهما ، وكان يحافظ على يسير الخدمة، فنقل الفضل بن سهل ليحيى كتاباً من الفارسية إلى العربية، فأعجب بعمق فهمه وجودة أسلوبه، وطلب منه أن ينبذ المجوسية ويعتنق الإسلام حتى يستطيع أن يصطنعه في خدمته فيخي برعايته وإحسانه و فاستجاب الفضل بن سهل بين يدي المامون الذي أحسن إليه وأجرى عليه رزقاً يحيى قدمه إلى جعفر، فأدخله بدوره إلى المامون وتم إسلام الفضل بن سهل بين يدي المامون الذي أحسن إليه وأجرى عليه رزقاً مع حشمه ، ولم يزل الفضل بن سهل ملازماً للفضل بن جعفر حتى نكب البرامكة .[٣]

وعندما عزم جعفر بن يحيى على استخدام الفضل بن سهل للرشيد وصفه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد فقال : الرشيد أوصله إليّ. فلما أوصله إليه أدركته حيرة فسكت، فنظر هارون الرشيد إلى يحيى نظرة منكر لإختياره، فقال له الفضل بن سهل : إن أعدل الشواهد على فراهة الملوك أن تملك قلبه هيبة سيده، فقال له هارون الرشيد : « لئن كنت سكت لتصوغ هذا الكلام . لقد أحسنت ولئن كانت بديهة لهو أحسن». ولم يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بما يصدق وصف يحيى.[٤]

كان يحيى البرمكي من شدة إعجابه بالفضل بن سهل يقول له دائماً : «في كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة وأنت عندي منهم».[٥]

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٢، ص١٧٢، ابن طباطبا ، الفخري، ص٢٢١.

(٢) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص٢٢١، ابن تعري بردي، المصدر السابق، ج٢، ص١٧٢.

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٣٠- ٢٣١.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥٣، الجشهياري، المصدر السابق، ص٢٣١.

(٥) الجهشياري، المصدر السابق، ص٢٣٢.

إذن بنى سهل من رجال جعفر البرمكي فلا عجب إذا نزعوا في سياسة الملك منزع البرامكة ، ولا عجب إذا انتموا بهديهم وتلو تلوهم في تدبير أمور السلطان، ولا عجب إن قال عنهم ابن طباطبا [١] «مختصر الدولة البرمكية».

لازم الفضل بن سهل المأمون وهو ولي عهد بالخلافة فغلب عليه بصفاته الجميلة حتى صار أمر المأمون كله بيده، وكما سبق فقد كان هو القائم بتدبير خلع الأمين وقتاله حتى تم للمأمون ذلك.[٢]

وعندما أتى المأمون خبر مقتل علي بن عيسى بن ماهان وصحّ عنده ذلك الخبر دعا الفضل بن سهل وعقد له على المشرق من جبل همذان إلى التبت طولاً ومن بحر فارس إلى بحر الديلم وجرجان عرضاً ، كما جعل له عماله ثلاثة آلاف درهم.[٣]

ولما استقامت الأمور للمامون استوزره ورد التدبير إليه في كل أمر مما جعل الفضل بن سهل يمضي الأمور على رأيه، بل كتب إلى هرثمة وطاهر أعظم قواد المأمون بتسليم ما في أيديهما ابن خاله الفضل بن سهل، وكان يعرف بذي القلمين.[٤]

كما لقبه المأمون «بذي الرياستين» ، ومعنى ذلك رياسة الحرب ورياسة التدبير، وعقد له على سنان ذي شعبتين وأعطاه العقد علماً قد كتب عليه لقبه.[٥]

كما كان الفضل بن سهل يؤمر مع الوزارة وهو أول وزير يجتمع له اللقب والتأمير، وقد تنبأ له بهذه الوزارة وعلو الحال أحد الشعراء وكان نديماً له قبل أن يتولى الفضل الوزارة قائلاً :-

وقال : ليست له همة ** كلا ولكن ليس لي مال
لأجده ينهض عزمي ** والناس سؤال وبخال
فأصبر على الدهر إلى ** دولة يرفع فيها حالك الحال

فلما علت حال الفضل بعد تولي الوزارة قصده ذلك الشاعر فسرّ به الفضل وقال له هذه الدولة التي يرفع فيها حالك الحال.[٦]

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٢٢٢.
(٢) ابن تعري بردي : النجوم الزاهرة، ج٢، ص١٧٣.
(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٦-٢٥٧.
(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٣٠٥
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٢٧.
(٦) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢١.

كان الفضل بن سهل أخبر الناس بعلم النجوم وأكثرهم إصابة فيه ومن إصابته في ذلك أن طاهر بن الحسين يظفر بالأمين ويلقب بذي القلمين فكان ذلك. وأيضاً من اصابته في علم النجوم أنه اختار لطاهر بن الحسين حين سمى للخروج لقتال الأمين وقتاً ، فعقد فيه لوائه وسلمه إليه، ثم قال : قد عقدت لك لواءاً لا يحل ٦٥ سنة فكان بين خروج طاهر بن الحسين إلى وجه ابن هامان مقدم جيش الأمين ، وقبض يعقوب بن الليث على محمد بن طاهر بن الحسين بنيسابور حوالي ٦٥سنة.[1]

حظى الفضل بن سهل عند المأمون وغلب عليه بصفاته الجميلة [2]، فقد كان الفضل في وزارته له نزيهاً وعفيف النفس، وهذه الصفة تظهر بوضوح من توقيع المأمون بحظه إلى الفضل بن سهل قائلاً له : «أغنيت يا فضل بن سهل بمعونتك إياي على طاعة الله وإقامة سلطانه، فرأيت أن أغنيك وسبقت الناس من الحاضر كان لي ، والغائب كان عني، فأحببت أن أسبق إلى الكتاب لك بخطي لما رأيته على نفسي، وأنا أسأل الله تمامه، فإن حولي وقوتي ومقدرتي وقبضي وبسطي به لا شريك له، وقد أقطعتك السيب بأرض العراق على حيازة تميم مولى أمير المؤمنين عطاء لك ولعقبك، ولما أنت عليه من النزاهة عن أموال رعيتي، ولما قمت به من حق الله وحقي فلم تأخذك فيَّ لومة لائم، ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره، وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول في كل شيء فيسمع منه، ولا تقدمك مرتبة أحد ما لزمت ما أمرتك به من العمل لله ولنبيّه والقيام بصلاح دولة أنت ولي بقيامها، وجعلت ذلك كله شهادة الله وجعلته لك كفيلاً على عهدي، وكتبت بخطي سنة ستٍ وتسعين ومائة».[3]

ولعل هذا العطاء الذي جعله المأمون للفضل بن سهل لدليل واضح على عفته ونزاهته التي بلغ منها درجة جعلت المأمون يمنحه كل هذه الهيبة في الأمر وجعلته يمنحه مع ذلك الإقطاع بأرض العراق.

والواضح أن الفضل بن سهل منذ أن صحب المأمون كان لا يطمع في مال ولا جاه. فقد حُكي أن مؤدب المأمون أيام هارون الرشيد قال له يوماً : « إن المأمون لجميل الرأي فيك وأني لا استبعد أن يحصل لك من جهته ألف درهم. فأغتاظ الفضل لذلك القول وقال له : ألك عليَّ حقد؟ ألي إليك إساءة؟ فقال له المؤدب: لا والله ما قلت هذا إلا محبة لك. فقال له الفضل : أتقول إلي إنك تحصل معه ألف ألف درهم؟ والله

(١) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٢، ص٤.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٢، ص١٧.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٣٠٦.

ماصحبته لاكتسب مالاً قلّ أو جلّ ولكن صحبته ليمضي حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب.[١]

كان الفضل بن سهل سخياً سرياً كثير الأفضال يذهب مذهب البرامكة في ذلك.[٢]

ويُحكى أن من كرمه الشديد إلتف حوله أصحاب الحاجات لدرجة احتار معها في الأمر، فشكا ذلك لصاحبه قائلاً له : «ما أدري ماذا أصنع بطلاب الحاجات ، وقد كثروا عليّ وأضجروني». فنصحه صاحبه قائلاً له : زل عن موضعك وعليّ إلا يلقاك أحد منهم. ففعل الفضل ذلك.[٣]

وفي كرمه يقول الشاعر :

للفضـــل بن سهـــل يــــد ** يقطـــر عنـــــها المثــــل

فباطنـــــــها للنــــــدى ** وظاهرهـــــا للقبــــــل

وبسطتهـــــا للغنــــــي ** وسطوتهـــــا للأجــــل [٤]

كان الفضل بن سهل من أهل الكتابة والبلاغة [٥] وقد كان يوصي الكتّاب قائلاً لهم : « قاربوا بين الحرُوف لئلا يسافر البصر سفراً بعيداً في حروف قليلة». ولعل من أبلغ توقيعاته التي تدل على بلاغته وحسن بيانه توقيعه لرجل قائلاً له : « الأمور بتمامها والأعمال بخواتيمها و الصنائع باستدامتها وإلى الغاية جرى الجواد ، وهناك كشفت الخبرة قناع الشك فحُمد السابق وذُم الساقط.[٦]

ومن أجمل صفات الفضل هي بغضه للسعاة. وكان إذا أتاه ساعٍ قال له : « إن صدقتنا أبغضناك وإن كذبتنا عاقبناك وإن أقلتنا أقلناك»، كما يقول: إن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة ، ومن نهى الله عنه كان بعيد منه وحقيقاً ألا يقبل قوله.[٧]

---

(١) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢١- ٢٢٢.

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٣٠٧.

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥٤.

(٤) نفس المصدر، ج٢، ص١٥٤.

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٢، ص١٧٢.

(٦) الجهشياري : المصدر السابق، ص٣٠٧.

(٧) نفس المصدر، ص٣٠٨.

٣- نقل الخلافة من بيت العباس إلى بيت علي وأثر ذلك في مقتل الفضل بن سهل

لعل من الأحداث الهامة في فترة تولي الفضل بن سهل الوزارة نقل الخلافة من بيت العباس إلى بيت علي. فقد فكر المأمون في حال الخلافة من بعده وأراد أن يجعلها في رحل صالح لتبرأ ذمته من ذلك - كما يقول هو - ونظر في أحوال أعيان البيت العباسي والعلوي فلم ير فيهما أصلح ولا أفضل ولا أورع من علي بن موسى الرضا عليهما السلام. فعهد إليه وكتب بذلك كتاباً بخطه وألزم على بن موسى بذلك، فامتنع ثم أجاب ووضع خطه في ظاهر كتاب المأمون قائلاً له : « إني قد أجبت وإن كان الجفر والجامعة يدلان على غير ذلك» وشهد عليهما بذلك الشهود ولقبه بالرضى وأمر بترك السواد ولبس الخضرة.[١]

وقد كان الفضل بن سهل هو الذي حسن للمامون أن يجعل علي بن موسى الرضا ولي عهد المسلمين والخليفة بعده، وقد تقدم بأخذ البيعة على الناس وأرسل الكتب إلى الأقاليم في إبطال لبس السواد شعار العباسيين ولبس الخضرة وهو شعار المجوس، وكتب إلى الحسن بن سهل يعلمه بذلك ويخبره بالبيعة ويأمره بلبس الخضرة وأن يجعل الأعلام والقلانس خضراً ويطالب الناس ويكاتبهم بذلك.[٢]

ومما يؤكد أن الفضل بن سهل كان اليد المدبرة في هذا الأمر مخاطبة نعيم بن خازم - أحد المقربين للمامون- له عندما أمر باستشارته باعتباره من وجوه القوم ، فقد رد عليه نعيم بن حازم قائلاً : «إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد عليّ ثم تحتال عليهم بعد ذلك فتصير الملك كسروياً، ولولا أنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده وهي البياض إلى الخضرة، وهي كلباس كسرى والمجوس» ثم التفت نعيم بن حازم بعد ذلك إلى المأمون قائلاً له : الله الله يا أمير المؤمنين لا يخدعنك ذلك عن دينك وملكك فإن أهل خراسان لا يجيبون إلى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه.[٣]

ولما سمع العباسيون في بغداد ما فعل المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي وأنه قد غيّر لباس آبائه وأجداده وهو السواد بلباس الخضرة وهي لباس المجوس أنكروا ذلك وغضبوا عليه[٤]

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب، ج٢، ص٢، ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢١٧.

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٣١٢، كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية : نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، ج٢، بيروت، ١٩٤٩م، ص٣٤.

(٣) نفس المصدر، ص٣١٣.

(٤) ابن العماد :المصدر السابق، ج٢، ص٢.

وكان رد الفعل على ذلك أن اتفقوا على خلعه وأن يبايعوا شخصاً منهم، وفي سنة٢٠٢هـ -٨١٧م أجمع أهل بغداد على خلعه وتعيين المنصور بن المهدي بدلاً عن المأمون، إلا أن المنصور بن المهدي ضعف عن ذلك الأمر وقال : «إنما أنا خليفة المأمون» فتركوه وعدلوا إلى أخيه إبراهيم بن المهدي فبايعوا له ولقبوه المبارك المنير.[١]

ويذكر الجهشياري [٢] : أن أول المبايعين لإبراهيم بن المهدي هو الفضل بن الربيع الذي اختفى منذ قتل محمد الأمين، وكان متولياً لحجابة إبراهيم بن المهدي طول فترة مبايعته.

كانت تلك الأيام أيام فتن ووقائع والمأمون لا يدري ما يحصل وراء بابه، وذلك لأن الفضل بن سهل قد قطع عنه الأخبار وعزله عما يحدث بالخارج، وكان متى علم أن شخصاً دخل عليه وأعلمه بخبر سعي في مكروهه وعاقبه. وبذلك امتنع الناس عن كلام المأمون فانطوت الأخبار عنه.[٣]

إلا أن هذه الأحداث لم تنكتم كثيراً عن المأمون فقد دخل عليه علي بن موسى الرضا يوماً وقال له: يا أمير المؤمنين إن الناس ببغداد قد أنكروا عليك مبايعتي بولاية العهد وتغيير لبس السواد، وقدخلعوك وبايعوا عمك إبراهيم بن المهدي. وأحضر إليه علي بن موسى جماعة من القواد ليخبروه بذلك، فلما سألهم المأمون عن حقيقة الأمر قالوا له : نخاف من الفضل بن سهل فإن كنت تؤمنا من شره أخبرناك فأمنهم المأمون وكتب له خطه في ذلك فأخبروه بصورة الحال وعرفوه خيانة الفضل بن سهل وتعميه الأمور عليه وستره الأخبار عنه ، وأشاروا عليه بأن يسير بنفسه إلى بغداد ويستدرك أمره وإلا خرجت الخلافة من يده.[٤]

كما أخبره علي بن موسى بأن السبب في كره أهل بيته له هو استنامته للفضل بن سهل مما جعلهم يبايعون إبراهيم بن المهدي بالخلافة، وأخبره أن الفضل بن سهل قد خدعه وأن الحرب قائمة بين إبراهيم بن المهدي وبين الحسن بن سهل، وأن الناس ينقمون عليه مكانه ومكان أخيه. كما أوضح له أن ولايته للعهد كانت شؤماً على الدولة إذ سارت الأمور من سيء إلى أسوأ.[٥]

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٢، ص١٧٢، البلخي (أبوزيد أحمد بن سهل) البد والتاريخ، ج٦، باريس، ١٩١٦م، ص١١١، ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٢، ص٢.

(٢) الجشهياري، الوزراء والكتاب،ص٣٠٢.

(٣) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢١٨.

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٨١، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٦٧، ابن طباطبا، المصدر السابق، ص٢١٨-٢١٩.

(٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٨٢.

وبعد أن عرف المأمون إنكار الناس ببغداد لما فعله من نقل الخلافة وأنهم نسبوا ذلك الأمر للفضل بن سهل نوى بالغدر له والتخلص منه فدسّ له جماعة من الناس على رأسهم خاله غالب الأسود في الحمام فقتلوه بسرخس.(١)

بعد أن قتل هؤلاء الفضل أخذهم المأمون وقدمهم ليضرب أعناقهم فقالوا له : أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا، فقال لهم المأمون : أنا قتلتكم بإقراركم، وأما ما أدعيتوه عليّ من أني أمرتكم بذلك فدعوى ليست لها بينة، ثم ضرب أعناقهم وحمل رؤوسهم إلى الحسن بن سهل.(٢)

وقد كان مقتل الفضل في شعبان سنة ٢٠٢هـ-٨١٧م ، وقيل في سنة ٢٠٣ - ٨١٨م وكان عمره ثمانية وأربعين عاماً.(٣)

ويُقال أن هذا العمر (٤٨سنة) قد تنبأ به لنفسه. فقد حكى لنا ابن خلكان (٤) أن والدة الفضل بن سهل حملت إلى المأمون سلة مختومة مقفلة، ففتح قفلها، فإذا صندوق صغير مختوم فيه درج، وفي الدرج رقعة مكتوب فيها بخطه « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قضى به الفضل بن سهل على نفسه من أنه سيعيش ثمانية وأربعين سنة ثم يُقتل ما بين ماء ونار» فعاش هذه المدة وقتل في الحمام.

وبعد مقتله سار المأمون إلى أم ذي الرياستين يعزيها عنه قائلاً لها : «لا تأسي عليه ولا تحزني لفقده فإن الله قد أخلف عليك مني ولداً يقوم مقامه، فمهما كنت تنبسطين إليه فلا تنقبضين عني منه، فبكت ثم قالت له : «يا أمير المؤمنين كيف لا أحزن على ولدٍ أكسبني ولداً مثلك».(٥)

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب، ج٢، ص٣، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥٥.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٢، ص١٧٣، ابن طباطبا، الفخري، ص٢١٨.

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، ص١٥٥، ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٢، ص١٧٣.

(٤) المصدر السابق، ج٢، ص١٥٥.

(٥) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٤، ص١٨.

٣- وزارة الحسـن بن سهـل

استوزره المأمون بعد أخيه الفضل ومال إليه جبراً لمصابه في قتل أخيه الفضل. [(١)]

والواقع أن المأمون استعمل الحسن بن سهل قبل مقتل الفضل، وذلك عندما أتى للمامون خبر قتل علي بن عيسى بن ماهان وعبدالرحمن بن جبلة، فولى الفضل العديد من الأعمال وولى معه الحسن بن سهل ديوان الخراج. [(٢)]

وفي سنة ١٩٧هـ- ٨١٢م استعمل المأمون الحسن بن سهل على كل ما افتتحه طاهر بن الحسين من كور الجبال والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن. [(٣)]

وبعد مقتل الأمين كتب المأمون إلى طاهر بن الحسين بتسليم كل ما في يديه، ففعل طاهر ذلك وقدم الحسن بن سهل في سنة ١٩٩هـ - ٨١٤م، وفرق العمال في الوقت الذي أمر فيه طاهر بن الحسين بأن يسير إلى الرقة لمحاربة أحد الثائرين وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب. [(٤)]

هذا التفضيل للحسن بن سهل من قبل الخليفة المأمون كان بمثابة الشرارة التي أشعلت نيران الفتن على الحسن بن سهل ، وتمثل ذلك في قيام أحد الثائرين بثورة كبرى على جبروت الفرس وطغيانهم، وهو محمد ابن إبراهيم ابن طباطبا . [(٥)]

فعندما قام المأمون بصرف طاهر بن الحسين عن الأعمال التي كان يتقلدها في البلدان التي فتحها ، ووجه ذلك إلى الحسن بن سهل. تحدث الناس في العراق بينهم بـأن الفضل بن سهل غلب على المأمون واستبد به وأنه قـد أنزله قصـراً حجبه فيـه عن أهل بيـته ووجـوه قواده من الخاصة والعامة ، وأنه يبرم الأمور على هواه. [(٦)]

غضب لذلك الأمر من كان بالعراق من بني هاشم ووجوه الناس وأنفوا من غلبة الفضل بن سهل على المأمون واجترءوا على الحسن بن سهل بذلك،وهاجت الفتنة وكان نتيجة ذلك الغضب خروج ابن طباطبا [(٧)]

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٧٧.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٦-٢٥٧.

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٥٢٧، ابن خلكان، المصدر السابق، ج٤، ص٢٧٨.

(٤) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢٣، ابن الأثير، المصدر السابق، ج٦، ص٢٩٨.

(٥) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص٢٢٣.

(٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٥١٤، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص٥٢٨.

(٧) الطبري : المصدر السابق، ج٨، ص٥٢٩.

تصدى الحسن بن سهل لهذه الفتنة فأرسل زهير بن المسيب في أصحابه إلى الكوفة، وكان عامل الكوفة حين دخلها ابن طباطبا هو سلمان بن أبي جعفر من قبل الحسن بن سهل، وقد كان سليمان هذا ضعيفاً، فلما علم الحسن فيه ذلك الضعف أرسل إليه زهير هذا في عشرة ألف فارس وراجل. ولما بلغ ابن طباطبا خبر شخوص زهير بن المسيب إليهم تهيأ للخروج إليه وملاقاته، فنزل زهير في يوم الثلاثاء وقام بمواقعتهم في يوم الأربعاء، فهزموه واستباحوا عسكره ، وأخذوا ما كان معه من سلاح ومال ودواب وغير ذلك. ولما جاء غد اليوم الذي كانت فيه الواقعة بين زهير بن المسيب وأهل الكوفة مات ابن طباطبا فجأة.[١]

ويُقال أن الذي قتل ابن طباطبا شخص يُدعى ابن السرايا الثائر معه في الكوفة. وسبب قتله له هو اختلافهم في الغنائم من مال وسلاح ودواب بعد هزيمة ابن المسيب.[٢]

واصل أبو السرايا المسيرة بعد ابن طباطبا وانتدب لذلك الأمر غلام أمرد حدث يقال له محمد بن زيد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.[٣]

استمر الحسن بن سهل في مجهوداته للقضاء على تلك الفتنة ، فأرسل إليه مرة ثانية شخص يُدعى محمد بن أبي خالد المروزي الذي تقدم إلى أبي السرايا في أربعة ألف فارس ، وواقعه في يوم الأحد من رجب سنة ١٩٩هـ - ٨١٤م فقتله أبو السرايا وأسر أخاه هارون بن محمد بن أبي خالد واستباح عسكره ولم يفلت منهم أحد، فقد كانوا بين قتيل وأسير، وانتشر الطالبيون في البلاد . وبعد ذلك النصر الكبير لأبي السرايا قام بضرب الدراهم في الكوفة ونقش عليها قول الله عز وجل : **(إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيانا مرصوص)**.[٤] وبعد ذلك قوى أمره.[٥]

ولما رأى الحسن بن سهل أن أبا السرايا ومن معه لا يلقون له عسكراً إلا هزموه، ولا يتوجهون إلى بلدة إلا هزموها ودخلوها احتار في أمره ولم يكن فيمن معه من القواد من يكفيه حربه، واضطر إلى هرثمة بن أعين- كان هرثمة حين قدم عليه الحسن بن سهل في بغداد والياً عليها من قبل المأمون سلم الحسن ما بيده

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٤٤.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٥٢٩.

(٣) نفس المصدر، ج٨، ص٥٢٩.

(٤) سورة الصف، الآية ٤.

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٥١٦، ابن كثير، المصدر السابق، ج١٠، ص٢٤٤، الطبري، المصدر السابق، ص٥٣٠

من الأعمال وتوجه نحو خراسان مغاضباً للحسن بن سهل - فبعث إليه الحسن بن سهل شخص يُدعى السندي ومعه صالح صاحب المصلى يسأله الإنصراف إلى بغداد لحرب أبي السرايا. إلا أن هرثمة امتنع ورفض ذلك. فأعاد عليه السندي مرة أخرى ومعه كتب لطيفة اضطر هرثمة بعدها إلى الإجابة.[١]

وانصرف هرثمة إلى بغداد فدخلها في شعبان سنة ١٩٩هـ- ٨١٤م وأعد عدته للزحف نحو الكوفة موطن الفتنة ، فمر على المدائن وانتزعها من عمال أبي السرايا.[٢]

واصل هرثمة سيره حتى التقى بهم فدارت بينه وبينهم عدة وقعات خسر فيها أبو السرايا كثير من أصحابه، ولاحقه هرثمة في عدة مناطق فاضطر أبو السرايا إلى الهرب من الكوفة هو ومن معه من الطالبيين إلى القادسية في محرم سنة ٢٠٠هـ - ٨١٥م ، ومنها إلى السوس من بلاد فارس، وهناك لقيه شخص يُدعى حماد الكندغوش فقبضه وحمله أسيراً إلى الحسن بن سهل.[٣]

أمر الحسن بن سهل بضرب عنقه، فضربت وكان ذلك في عام ٢٠٠هـ- ٨١٥م ثم بعث برأسه وطيف به في عسكر الحسن بن سهل، وبُعث بجسده إلى بغداد ، فصُلب نصفين على الجسر في كل جانب نصف وكان بين خروجه وقتله عشرة أشهر.[٤]

وقد قال الشاعر في قتل الحسن بن سهل لأبي السرايا :-

ألم تر ضربة الحســن بن سهــل ** بسيفك يا أميـــــر المؤمنيــنا

أدارت مرو رأس أبــي السرايا ** وأبقت عبـــرة للعابريــــــا [٥]

ظل الحسن بن سهل في وزارته للمأمون عظيم المنزلة عنده، وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته، فكان إذا حضر عنده طاوله في الحديث ، وكلما أراد الإنصراف منعه.[٦]

ولعل من الأحداث الهامة والمرتبطة بحياة هذا الوزير هو زواج المأمون من ابنة الحسن بن سهل.[٧]

---

(١) ابن خلدون : العبر، ج٣، ص٥١٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٤٥.

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص١٧٥.

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٥٣٣ - ٥٣٤، اليعقوبي، المصدر السابق، ج٣، ص١٧٥.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٣، ص٥١٨، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص٥٣٥.

(٥) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص٢٤٥، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص٥٣٥.

(٦) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢٣.

(٧) نفس المصدر، ص ٢٢٢.

وابنته هي بوران، ويُقال أن اسمها خديجة ، وبوران لقب، لكن الاسم أشهر. فقد تزوجها المأمون لمكانة والدها الحسن بن سهل منه، فاحتفل أبوها بهذا الزواج وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد بمثله في عصر من الأعصار.[١]

ففي سنة ٢١٠هـ - ٨٢٥م خرج المأمون ومضى إلى (فم الصلح) حيث معسكر الحسن بن سهل، وحمل معه إبراهيم بن المهدي وشخص المأمون من بغداد راكباً زورقاً حتى أرفأ على باب الحسن بن سهل خارج معسكره في موضع قد إتخذه خصيصاً لاستقباله على شاطئ دجلة.[٢]

وقد بذل الحسن بن سهل في هذا الزواج من الأموال ما يفوق حد الكثرة، ووصل إلى الحد الذي جعله ينثر على الهاشميين بنادق مسك، وفي هذه البنادق رقاع بأسماء ضياع وأسماء جواري وصفات دواب وغير ذلك. فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم ما فيها ذهب إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها له ويتسلم ما فيها سواء كانت ضيعة أو جارية أو فرس.[٣]

كما نثر على سائر الناس الدنانير والدراهم والمسك والعنبر. وأنفق الحسن على المأمون وقواده وأصحابه وكل أتباعه - وكانوا خلقاً لا يعد ولا يُحصى - أموالاً كثيرة.[٤]

ويُقال أن المأمون قد دخل على بوران في الليلة الثالثة من وصوله إلى (فم الصلح)، ولما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية من ذهب، فأمر المأمون أن تجمع هذه الدرر، وسأل جدتها عن عددها فأخبرته بأنها ألف درة. فأخذها ووضعها في حجر بوران وقال لها : هذه لحليتك وسلي حوائجك، فقالت لها جدتها : كلمي سيدك فقد أمرك ، فسألته بوران الرضا عن إبراهيم بن المهدي، فقال لها : قد فعلت.[٥]

وأوقدوا في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون مناً في تور من ذهب فأنكر المأمون ذلك قائلاً : هذا سرف.[٦]

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١، ص٢٧٧.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٦٠٦.

(٣) المسعودي : مروج الذهب، ج٤، ص٣٠، ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢٢.

(٤) ابن خلكان : المصدر السابق، ج١، ص١٧٨، المسعودي، المصدر السابق، ج٤، ص٣٠.

(٥) الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص٦٠٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ، ج١، ص٢٨٩

(٦) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص٢٢٢.

ويذكر الطبري [1] أن المأمون أقام عند الحسن بن سهل تسعة عشر يوماً يعدله كل يوم ولجميع من معه ألف درهم لما يحتاج إليه. وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف درهم. فأمر المأمون للحسن عند منصرفه ألف درهم وأقطعه فم الصلح فجلس الحسن وفرق المال على قواده.

وبعد أن خرج المأمون فرش له حصير منسوج من الذهب، فلما وقف المأمون نثرت عليه وعلى قدميه لآلي كثيرة. فلما رأى المأمون تساقط اللآلي على الحصير المنسوج بالذهب قال : قاتل الله أبا نواس كأنه شاهد هذا الحال حين قال في وصف الخمر والحباب يعلوها عند المزاج:

كـــأن صغرى وكبـــرى فواقعـــها ** حصباء در على أرض من الذهب [2].

لكل هذا البذخ والإسراف من جانب الحسن بن سهل أراد المأمون أن يكافئه عليه، فعندما أراد الانصراف من فم الصلح سأله المأمون أن يسأله حاجته ويطلب منه مابريد، فرد عليه الحسن : « أسألك أن تحفظ على مكاني من قلبك فإنه لا يتهيأ لي حفظه إلا بك». [3]

في هذا الزواج الذي بلغ حد القمة والترف والبذخ تلكم الخطباء وأنشد الشعراء، ومما استظرف في هذا من القول قول أحدهم :.

بـــــارك اللـــــه للحســـن ** ولبـــوران فـــــي الخـــتن

يا ابن هارون ظفرت ولكن ببنت من

فلما نما ذلك الشعر إلى المأمون قال : والله ما ندري أراد خيراً أم شراً. [4]

ولعل الشاعر يقصد في قوله هذا نوع معين من السعاية حيث يشكك الخليفة في هذا النسب الذي اختلط به.

أمتاز الحسن بن سهل بصفات جميلة ونبغ في أشياء كثيرة. فلقد كان للحسن بصر بالأدب عظيم ومكانة من الكتابة سامية، وحظاً بأفانين القول ومناحيـه، فقد كتـب إلى محمـد بن سماعـة القاضي

---

(١) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٠٨.

(٢) ابن خلكان : تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص٢٨٨.

(٣) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٤، ص٣١.

(٤) ابن خلكان : المصدر السابق، ج١، ص٢٨٩، المسعودي، المصدر السابق، ج٤، ص٣١.

قائلاً :«أما بعد، فإني احتجت لبعض أموري رجلاً جمع لخصال الخير ذي عفة ونزاهة ،طعمة قد هذبته الأخلاق وأحكمته التجارب ليس بظنين في رأيه ولا بمطعون في نسبه إن أوتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهمات الأمور أجزأ فيها ...».[1]

وقد ذكر ابن خلكان [2] أنه كان يقول لبنيه « تعلموا النطق» فإن الله فضّل الإنسان عن سائر البهائم به ، وكلما كنتم بالنطق أحذق كنتم بالإنسانية أحق».ولا شك أنه لا توجد بلاغة أكثر من ذلك تدل على طلاقة لسانه وحسن بيانه.

كما كان الحسن بن سهل كثير العفو دائم الصفح. وقد قيل إن أحدهم حضر مجلس الحسن بن سهل. وقد كتب له الحسن شفاعة في أمرٍ ما فجعل الرجل يشكره، فقال له الحسن بن سهل : علام تشكرنا؟ إنا نرى الشفاعة زكاة مروتنا.[3]

وأيضاً من صفاته الجميلة الكرم كعادة بني سهل الذين كانوا صنائع البرامكة، وقد مدحه بهذه الصفة العديد من الشعراء.[4]

لم يزل الحسن بن سهل متولياً وزارة المأمون إلى أن ثارت عليه المرة السوداء، وكان سببها جزعة على أخيه الفضل لما قتل فحبسته في بيته ومنعته من التصرف.[5]

---

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف، ص٢٩٦.

(٢) وفيات الأعيان : ج٤، ص٣٨١.

(٣) نفس المصدر، ج٤، ص٣٨١.

(٤) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص.٢٢٠.

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٨٢، ابن طباطبا، المصدر السابق، ص٢٢٣.

٤- وزراء المأمون بعد بني سهل

ا - احمد بن أبي خالد الأحول

كـان أحمد بن أبي خالد من الموالـي [1]، كان والده خالد الأحول كاتباً لأبي عبيد الله وزير المهدي جـد المأمون.[2]

رأى المأمون رجاحة عقله، فأراد أن يستوزره بن سهل قد لزم منزلة، وأني أريد أن استوزرك ، إلا أن أحمد بن أبي خالد تنصل من الوزارة قائلاً له : يا أمير المؤمنين أعفني من التسمي بالوزارة، وطالبني الواجب فيها، وأجعل بيني وبين العامة منزلة يرجوني منها الصديق ويخافني منها عدوي، فما بعد الغايات إلا الآفات. فاستحسن المأمون جوابـه. لكنه كـان مصراً على أن يتولى وزارتـه. فقال له المأمـون لابد من ذلك.[2]

تدل هذه المخاطبة بين المأمون وأحمد بن أبي خالد على أن أحمد هذا كان قد استفاد من تاريخ البرامكة وبني سهل وأمثالهم، فرأى أن يكون مقتصداً في مكانته بعيداً عن أبهة السلطان ووجاهته.

ومهما يكن من رفضه فإنه قد تولى وزارته، ولعب أدواراً هامة في توجيه سياسة الدولة، وكان موضع استشارة المأمون في كل أمر. فقد استشاره المأمون في قتل عمه إبراهيم بن المهدي فأشار عليه أحمد قائلاً : « يا أمير المؤمنين إن قتلته فلك نظراء في ذلك، وإن عفوت عنه فمالك من نظير».[3]

كما استشاره المأمون في أمر طاهر بن الحسين حينما أراد أن يوليه خراسان ، فصوّب إليه أحمد الأحول الرأي في توليته، فقال له المأمون : إني أخاف أن يغدر ويخلع ويفارق الطاعة. فقال له أحمد : الدرك في ذلك عليّ.[4]

ولى المأمون طاهر بن الحسين بناء على رأي أحمد الأحول. فلما كان بعد مدة أنكر عليه المأمون أموراً كثيرة، وكتب إليه المأمون كتاباً يتهدده فيه، فكتب طاهر جواباً أغلظ فيه للمأمون. ثم قطع اسمه من الخطبة ثلاث جمع. وعندما بلغ المأمون ذلك الأمر مهدداً لأحمد الوزير : « أنت الذي أشار بتولية طاهر بن الحسين

---

(١) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢٤، أحمد فريد رفاعي، عصر المأمون، القاهرة، ١٣٤٦هـ - ٣٠٤م.

(٢) ابن طيفور : تاريخ بغداد ، ص٢١٦، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٢، ص٢٠٣.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٢١٥.

(٤) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص٢٢٤.

وضمنت ما يصدر منه ، وقد ترى ما صدر منه من قطع الخطبة ومفارقة الجماعة، فوالله لئن لم تتطلف لهذا الأمر وتصلحه كما أفسدته لأقتلنك». فرد عليه أحمد مطمئناً له : يا أمير المؤمنين طب نفساً فبعد أيام يأتيك البريد بإهلاكه.[1]

هذا الوعد من جانب أحمد بن أبي خالد للمأمون في السعي على إهلاك طاهر بن الحسين جاء متزامناً مع الوقت الذي ورد فيه كتاب لأحمد بن أبي خالد من طاهر بن الحسين يسأله فيه أن يوجه إليه شخص يُدعى محمد بن فرخ العمركي – وكان أحب الناس إلى طاهر وأقربهم إلى نفسه ويثق فيه ثقة شديدة– فما كان من أحمد بن أبي خالد إلا أن أرسل إليه محمد بن فرخ وأقطعه عدة اقطاعات، ووصله بمال كثير وأنفذه إلى خراسان ، وقد أقام هذا الرجل شهراً في خراسان بعدها توفى طاهر بن الحسين فقيل أن ابن أخ العمركي سماه فمات.[2])

إلا أن ابن طباطبا [3] : يقول إن أحمد بن أبي خالد لما ولى طاهر بن الحسين حسب هذا الحسبان فوهبه خادماً ونادى الخادم سماً وقال له : متى قطع خطبة المأمون فأجعل له هذا السم في بعض ما يحب من الأكل، فلما قطع خطبة المأمون جعل له الخادم السم في الأكل فمات.

ولابن طباطبا [4] رواية أخرى تقول : أن أحمد بن أبي خالد أهدى طاهر بن الحسين هدايا فيها كواميخ مسمومة ، وكان طاهر يحب الكامخ فأكل منه فمات.

وكيفما كانــت طريقة موته فالواضح أن أحمــد بن خالد تمكــن من القضاء على هذا الخارج على ملك المأمون.

كان أحمد بن خالد جليل القدر من عقلاء الرجال، وكان فاضلاً جواداً ومدبراً وذا رأي وفطنة.[5] ويروي لنا ابن طيفور [6] قصة تدل على مدى ما وصل إليه أحمد بن أبي خالد من الفضل وجلال القدر وهي «أن الخليفة قد ذكر يوماً عمرو بن مسعدة – أحد عماله– فاستبطاه. فقال الخليفة : يظن أنني لا أعرف

(١) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢٤.

(٢) ابن طيفور : تاريخ بغداد، ص١٣٠.

(٣) المصدر السابق، ص٢٢٤.

(٤) نفس المصدر، ص٢٢٥.

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٢، ص٢٠٣.

(٦) تاريخ بغداد، ص٢١٧- ٢٢٠.

أخباره وما يُجبى إليه وما يعامل به الناس». وكان أحمد بن أبي خالد حاضراً هذا المجلس الذي ذكر فيه الخليفة هذا القول، فذهب إلى عمرو بن مسعدة وأخبره الخبر، فراح عمرو إلى المأمون، فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين أنا عائذ بالله من سخطك، ثم عائذ بك من سخطك يا أمير المؤمنين أنا أقل من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد أو يسر عليّ ضغناً يبعثه بعض الكلام على إظهار ما يظهر منه. فقال له وما ذاك؟ فأخبره عمرو بما بلغه ولم يسم له المخبر. فقال له المأمون : لم يكن الأمر كما بلغك وإنما كان جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به، وإنما أخرج من هذا الكلام منى تجاريناه وليس عندي إلا ما تحب، فليفرح روعك وليحسن ظنك. وظهر في وجهه الحياء والخجل. فلما غدا أحمد على المأمون قال له : أليس لمجلسي حرمة؟. فقال : يا أمير المؤمنين وهل الحرمة إلا لما فصل عن مجلسك. فأخبره المأمون الخبر وإن بعض من حضر من وجوه بني هاشم هو الذي أفشى ما قاله المأمون فقال أحمد : أنا يا أمير المؤمنين أخبرت عمراً لا أحد من بني هاشم. والذي حملني على ذلك الشكر لك والنصح والمحبة لأن تتم نعمتك على أوليائك وخدمك أنا أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء والبعداء فكيف الأولياء والقرباء لا سيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأي أمير المؤمنين أطال الله بقائه فيه وسمعت أمير المؤمنين أنكر شيئاً فخبرته ليصلحه ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه ويتلافى ما فرط منه ولا يفسده مثله، ولا يبطل العناء فيه، وإنما كان يكون ما فعلت عيباً لو أشعت سراً فيه قدح في السلطان أو نقض تدبير. فأما مثل هذا فما حسبته أن يكون ذنباً عليّ فنظر المأمون إليه ملياً وقال : « كيف قلت؟ فأعاد عليه ما قال. ثم قال : أعد فأعاد الثالثة، فقال له المأمون : أحسنت لما أخبرتني به أحب إليّ من ألف ألف وألف ألف وعقد خنصره وبنصره والوسطى وقال : أما ألف ألف فلنفيك عني سوء الظن. وأطلقه وسطاه وما ألف ألف فلصدقك إياي عن نفسك. وأطلق البنصر . وأما ألف ألف فلحسن جوابك وأطلق الخنصر».

ورغم اتصاف أحمد بن أبي خالد الأحول بالصدق والأمانة إلا أنه كان غليظ القلب. قال له رجل في يوم : والله لقد أعطيت ما لم يُعطى رسول الله ﴿ﷺ﴾. فقال له أحمد بن أبي خالد : والله لئن لم تخرج مما قلت لا عاقبتك ، قال له الرجل : قال الله تعالى : ﴿ **لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾[1] وأنت فظ غليظ القلب وما تنقص من حولك.[2]

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٩.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٢، ص٢٠٣.

كان لهذا الوزير عيباً واضحاً ومعروف لدى الجميع حتى الخليفة نفسه كان يعرفه فيه هذا العيب هو ولهه بالطعام وحبه الشديد له. ويلغ من حبه للطعام درجة جعلت الناس يتقربون إليه بطعامهم وهداياهم ليحقق لهم مصالحهم.[1]

ومن طرائف حوادثه مع المأمون والتي تؤيد صحة ما يرمي به من الوله إلى الطعام «أن المأمون قال يوماً لوزيره أحمد بن أبي خالد : أعد عليّ باكراً لآخذ القصص التي عندك فإنها كثرت ولنقطع أمور أصحابها فقد طال صبرهم على انتظارها. فجاء أحمد بن أبي خالد في الصباح البكر وقعد له المأمون وجعل يعرضها عليه والمأمون يوقع عليها إلى أن مـرّ بقصة رجـل من اليزيديين يقال له فلان اليزيدي، وكان أحمد بن أبي خالد الأحول جائعاً فقـال له : الثريدي فضحك المأمـون وقـال : يا غلام ثريـدة - نوع الطعام كثير اللحم- ضخمة لأبي العباس، فخجـل أحمد وقال : ما أنا بجائع يا أميـر المؤمنين ولكن صاحب هذه القصة أحمق وضـع في نسبته ثلاث نقط. فقـال له المأمون : دع عنـك هذا فالجـوع أضر بك حتى ذكرت الثريـد. ولما أتى له بالأكل أكله جميعاً والمأمون ينظر إليه، فلما فرغ رجع إلى القصص فمرت به قصة عن فلان الحمصي فقال له وهو يقرأ : فلان الخبيصي. فضحك المأمون وقال : يا غلام جاماً ضخماً فيه خبيص- وهو نوع من الحلوى - فإن غداء أبي العباس كان مبتوراً. فخجل أحمد وقال : يا أمير المؤمنين صاحب هذه القصة أحمق فتح الميم فصارت كأنها سنتان. فقال له المأمون : دع عنك هذا فلولا حمقه لمت جوعاً، فجاءه بالحلوى فأكلها جميعاً ، ثم عاد إلى القصص فما أسقط حرفاً أتى على آخرها.[2]

(١) ابن طيفور : تاريخ بغداد، ص٢٢٤.

(٢) نفس المصدر ، ص٢٢٢- ٢٢٤.

٣- وزارة أحمد بن يوسف

هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح أبو جعفر مولى بني العجل. كان كاتب المأمون على ديوان الرسائل، وكان من أفضل الكتاب في عصره وأذكاهم.[١] ويرجع السبب في توليته ديوان الرسائل إلى أن المأمون عندما أرسل طاهر بن الحسين لحرب الأمين أمره بأن يخلعه ويأتي به أسيراً. وما حصل أن طاهر قتل محمد الأمين وجاء برأسه إلى المأمون، فرأى المأمون ووزيره الفضل بن سهل أن طاهر قد سلّ عليهم سيوف الناس وألسنتهم وأنهم في حاجة إلى تبريــر ذلك الموقف بخطبــة قوية تسحــر قلوب الناس وتزيــل ما فــي أنفسهم.[٢]

فجمع الفضل بن سهل الكتاب وأمرهم أن يكتب كل واحد منهم كتاب في هذا المعنى ليقرأ على الناس، فكتب الكتاب عدة كتب. إلا أن الفضل لم يقبلها، أما أحمد بن يوسف فإنه قد كتب رسالة محكمة موجزة في شبر قرطاس بلسان طاهر بن الحسين لتبرير قتله أمام الناس في أنحاء الدولة.[٣]

وقد جاء في نسخة كتابه « أما بعد فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة فقد فرق حكم الكتاب والسنة بينه وبينه في الولاية والحرمة لمفارقته عصمة الدين وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين. يقول الله عز وجل فيما أقتص علينا من نبا نوح « يا نوح إنه ليس من أهلك أنه عمل غير صالح)[٤] ولا صلة لأحد في معصية ولا قطيعة في ذات الله ، وكتبت لأمير المؤمنين. وقد قتل الله المخلوع ورداه رداء نكثه وأحصد لأمير المؤمنين أمره وأنجز له ما كان ينتظره من وعده ، فالحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقه الكائد له من ختر عهده ونقض عقده حتى رد الله به الألفة بعد فرقتها وأحيا به الأعلام بعد دروسها وجمع به الأمة بعد فرقتها والسلام».[٥]

ولما عرض النسخة على ذي الرياستين رجع نظره فيها قال قال لأحمد بن يوسف: ما أنصفناك. وأمر له بصلات وكسى وكراع وغير ذلك. وقال : إذا كان غداً فأقعد في الديوان وليقعد جميع الكتّاب بين يديك وأكتب إلى الآفاق.[٦]

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٢، ص٢٠٦.
(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص٣٠٤.
(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٥٠٧.
(٤) سورة هود : الآية، ٤٦.
(٥) الجهشياري، المصدر السابق، ص٣٠٤.
(٦) نفس المصدر، ص٣٠٦.

فلما مات أحمد بن أبي خالد استشار المأمون الحسن بن سهل فيمن يتولى الوزارة فأشار عليه بأحمد بن يوسف وأبي عباد ثابت بن يحيى وقال له : هما أعرف الناس بطبع أمير المؤمنين فقال له المأمون : اختر لي أحدهما. فاختار له أحمد بن يوسف.[١]

كان أحمد بن يوسف جامعاً لجميل الخلال [٢] وهذا بدأ واضحاً عندما سأله المأمون من رجل كان بينه وبين أحمد بن يوسف عداء. فوصفه له أحمد وذكر له محاسنه. فقال له المأون : لقد مدحته على سوء رأيك فيه ومعاداته لك.[٣]

ومن حسن خلقه وجميل صفاته يُقال أن رجلاً قال له يوماً : ما أدري مما أعجب مما وليه الله من حسن خلقك أو مما وليته من تحسين خلقك.[٤] كما كان أحمد بن يوسف فاضلاً فصيح اللسان مليح الخط يقول الشعر الجيد.[٥] وقد ظلّ في وزارته للمأمون حتى وفاته. وكان سبب موته هو أنه دخل يوماً على المأمون وهو يتبخر، فأخرج المأمون المجمرة من تحته وقال : أجعلوها تحت أحمد تكرمه له. فنقل أعداء أحمد إلى المأمون إنه قال : ما هذا البخل بالبخور هلا أمر لي ببخور مستأنف؟ فاغتاظ المأمون لذلك وقال : ينسبني إلى البخل وقد علم أن نفقتي في كل يوم ستة آلاف دينار، وإنما أردت إكرامه بما تحت ثيابي. ثم دخل عليه أحمد وهو يتبخر مرة أخرى فقال المأمون : أجعلوا تحته في مجمرة قطع عنبر وضموا عليه شيئاً يمنع البخار أن يخرج. ففعلوا به ذلك فصبر عليه حتى غلبه الأمر فصاح : الموت. الموت. فكشفوا عنه، وقد غشي عليه فانصرف إلى منزله فمكث فيه شهوراً عليلاً من ضيق النفس حتى مات بهذه العلة.[٦]

---

(١) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢٥.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٢، ص٢٠٦.

(٣) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص٢٢٥.

(٤) ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٦.

(٥) نفس المصدر ، ج٢، ص٢٠٦.

(٦) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص٢٢٦.

المبحث الثالث

الوزارة في خلافة المعتصم والواثق

أ - وزارة الفضل بن مروان

الفضل بن مروان بن ماسرخس وهو نصرانياً من أهل البردان [1] وسبب صلته بالمعتصم ترجع إلى أنه قد كان للمعتصم في فترة خلافة أخيه المأمون كاتب يعرف بيحيى الجرمقابي. اتصل به الفضل بن مروان وكان حسن الخط، فلما هلك الجرمقابي استكتبه المأمون. [2]

وعندما خرج المعتصم في غزوته الأخيرة لبلاد الروم كان الفضل بن مروان ببغداد ينفذ أموره، ويكتب على لسانه بما أراد. فلما بلغه موت المأمون تحمل عبُ البيعة للمعتصم في بغداد وضبط الأمور حتى عودته إلى بغداد فقدر المعتصم ما بذله من جهود للظفر بالخلافة. ولذلك قام بتقليده وزارته مكافأة له. [3]

كان الفضل بن مروان قد غلب على المعتصم بطول خدمته واستغل بالأمور كلها وصار ينفذ كل شيء على هواه فاستتبع الدواوين واحتجز الأموال وذهب إلى أكثر من ذلك حيث أصبح يرد أوامر الخليفة في العطايا ولا ينفذها، وبذلك أصبح اسم الخلافة للمعتصم وفعلها للفضل بن مروان. [4]

بلغ من غلبة هذا الوزير واستبداده بخليفته درجة أن المعتصم كان يطلب منه بعض المال فيعتذر له الوزير بأنه لا يملك هذا المال وأن الخزانة خالية من أقل قدر من المال. وعندما يلح الخليفة عليه في الطلب لكي يدبر له المبلغ يرد عليه قائلاً: « ومن يعطيني هذا القدر من المال وعند من أجده؟ ». [5]

ومما يُحكى عن استبداد هذا الوزير بشئون المال «أنه كان للمعتصم مضحك اسمه إبراهيم يُعرف «بالهفتي» أمر له المعتصم بمال، فتقدم الهفتي إلى الفضل بن مروان ليأخذ هذا المال. إلا أن الفضل لم يعطه شيئاً من هذا المبلغ. فبينما الهفتي يوماً عند المعتصم يمشي معه في بستان له- وكان الهفتي يصحبه

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدء والخبر، ج٣، ص٥٤٧، ابن طباطبا: الفخري، ص٢٣٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٦، ص٤٥٣، ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣، ص٥٤٧.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥٦.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق، ج٦، ص٤٥٣، ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣، ص٥٤٧.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج١٠، ص٣١٣.

قبل الخلافة ويقول له له عندما يداعبه : والله لا تفلح أبداً - وكان الهفتي بديناً مربوع القامة، وكان المعتصم خفيف اللحم فكان يسبقه ويلتفت إليه ويقول : مالك لا تسرع المشي؟ . فلما كثر عليه المعتصم ذلك قال له الهفتي مداعباً : كنت أراني أماشي خليفة ولم أكن أراني أماشي فيجاً والله لا أفلحت أبداً. فضحك المعتصم وقال له : وهل بقي من الفلاح شيئاً لم أفعله بعد الخلافة؟ قال له الهفتي : أتظن أنك أفلحت؟ لا والله مالك من الخلافة إلا اسمها ما يتجاوز أمرك أذنيك إنما الخليفة الفضل بن مروان. قال المعتصم : وأي أمر لي لم ينفذ؟ فقال الهفتي : أمرت لي بكذا وكذا منذ شهرين فما أعطيت حبة.[1]

لهذا الاستبداد الشديد من قبل الفضل بن مروان اختلفت فيه السعايات عند المعتصم ودسوا عليه عنده من مجلسه من يعيِّر المعتصم باستبداد الفضل بن مروان عليه، ورد أوامره، فحقد المعتصم على الفضل في ذلك. وكانت نتيجة تلك السعايات والدسائس أن جعل له ذمام في نفقات الخاصة والخراج ، وفي جميع الأعمال. ثم عزله بعد ذلك وأمر بالقبض عليه في سنة ٢٢٠هـ- ٨٣٥م. وحبسه وصادر جميع أملاكه وأخذ من بنيه ألف ألف دينار وصادر جميع أهل بيته.[2]

كان الفضل بن مروان قليل المعرفة بالعلم وحسن المعرفة بخدمة الملوك والخلفاء، إلا أن له ديوان رسائل وكتاب ومشاهدات والأخبار التي شاهدها. ومن كلامه «مثل الكاتب كالدولاب إذا تعطل انكسر» وأيضاً من كلامه « لا تتعــرض لعدو وهو مقبل، فإن إقباله يعينه عليك ولا تتعرض له وهوَ مدبر، فإن إدباره يكفيك أمره ».[3]

كما كان الفضل ردئ السيرة جهولاً بالأمور [4] شرس الأخلاق ضيق الطعن كريه العطاء بخيلاً ، لذلك شمت به عندما نُكب حتى أن بعضهم قال :

• ليبك الفضــل بن مــروان نفســـه ** فليس له بــاك من الناس يعــرف
لقــد صحــب الدنيا منوعــاً لخيرها ** وفارقهـــــا والمظلــوم المعنــف
إلى النار فليذهب ومن كــان مثله ** على أي شيء فأتنا منــه نأســف [5]

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٤٥٣.
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥٧.
(٣) نفس المصدر ، ج٢، ص١٥٧.
(٤) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٣٢.
(٥) ابن الأثير : المصدر السابق، ج٦، ص٤٥٤.

ويُقال أنه جلس يوماً لقضاء حوائج الناس ورفعت إليه قصة من جملة قصص الناس مكتوب في رقاعها :

تفرعنت يا فضل بن مروان ** فقبلك كان الفضل والفضل والفضل

ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم ** أبادهم التقييد والأسر والقتل

وإنك أصبحت في الناس ظالماً ** ستؤدي كما أودى الثلاثة من قبل [1]

والثلاثة هم الفضل بن يحيى البرمكي والفضل بن سهل والفضل بن الربيع.[2]

٢- وزارة أحمد بن عمار بن شاذي

استوزره المعتصم بعد أن نكب الفضل بن مروان ، وكان الفضل هو الذي وصفه عند المعتصم بالأمانة . فلما نكب الفضل لم يقع نظر المعتصم على غير أحمد بن عمار يصلح لهذا الأمر.[3]

كان أحمد بن عمار رجلاً مؤسراً من أهل المزار فانتقل من بغداد إلى البصرة واشترى له أملاكاً، وكان قبل ذلك طحاناً. وقالوا : إنه كان يخرج الصدقة في كل يوم مائة دينار.[4]

ورغم الصفات الجميلة التي يتصف بها أحمد بن عمار إلا أنه كان جاهلاً بآداب الوزارة. وفيه يقول أحد شعراء عصره :-

سبحان الخالق الباري ** صرت وزيراً يا ابن عمار

وكنت طحاناً على بغلة ** بغير دكان ولا دار

كفرت بالمقدار إن لم تكن ** قد جزت في ذا كل مقدار [5]

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥٧.

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية. ، ص٢٣٢.

(٣) نفس المصدر ، ص٢٣٢.

(٤) ابن خلكان : المصدر السابق، ج٢، ص١٥٧.

(٥) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص٢٣٢.

٣- وزارة محمد بن عبدالملك الزيات

هو أبو جعفر بن محمد بن عبدالملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات. [١] كان أبوه تاجراً موسراً، وفي هذا اليسر نشأ وتأدب. [٢] كما كان جده رجلاً من أهل قرية يقال لها الدسكرة يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد، فسمي محمد بن الزيات. [٣]

كان الزيات في بداية أمره جملة الكتاب ثم استوزره بعد ذلك المعتصم ، ويعود السبب في وزارته ما حُكي من أن المعتصم ورد إليه كتاب من بعض العمال يذكر فيه خصب الماء وكثرة الكلأ. فسأل المعتصم وزيره أحمد بن عمار عن الكلأ، فلم يدر أحمد بن عمار ما يقول. فدعا بمحمد بن عبدالملك الزيات - وكان في ذلك الوقت أحد خواصه - فسأله عن الكلأ. فقال له أحمد : أول النبات يقال له بقلاً، فإذا طال قليلاً فهو الكلأ، فإذا يبس وجف فهو الحشيش. فقال المعتصم لأحمد بن عمار أنظر في الدواوين ، وهذ يعرض عليّ الكتب ثم استوزره وصرف ابن عمار صرفاً جميلاً. [٤]

هذا يبين أن الخليفة قد أعجب بهذا الرجل لفصاحته وبلاغته على عكس ابن عمار الذي كان يجهل بالأمور جميعها. كما يدل على أن المعتصم عمد إلى أن يختار وزرائه من الخيار.

بعد منحة الوزارة نهض بأعباء الدولة نهوضاً لم يكن لمن تقدمه من الوزراء إلا أنه كان غالباً على أمر المعتصم. [٥]

ظل في وزارته له إلى أن توفى المعتصم وخلفه ابن الواثق الذي كان قد حلف يميناً مغلظة أن يؤذيه إذا صار الأمر إليه. [٦]

والسبب في حقد الواثق على الزيات يرجع إلى تسلط الزيات على الواثق في خلافة المعتصم، ويُقال أن المعتصم أمر لابنه الواثق بمال وأحاله به على ابن الزيات، فمنعه الزيات وأشار على المعتصم ألا يعطيه شيئاً، فقبل المعتصم قوله ورجع فيما أمر به من قبل. لذلك السبب غضب الواثق على الزيات فكتب بخط

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٥٨.

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٣٣.

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق، ج٢، ٤٥٨.

(٤) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص٢٣٣.

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٧، ص٣٣، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٥٧٩، ابن طباطبا، المصدر السابق، ص٢٣٤.

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢، ص٤٦٢.

يده كتاباً وحلف فيه بالحج والعتق والصدقة إنه أن ولي الخلافة ليقتلن الزيات.[1]

وبعد أن تولى الواثق الوزارة تذكر أمر ابن عبدالملك الزيات وأراد أن يعاجله بقراره الذي أعد له. إلا أن الواثق خاف ألا يجد مثله. فقال للحاجب : أدخل إليّ عشرة من الكتّاب، فلما دخلوا عليه اختبرهم فما كان فيهم من أرضاه. فقال للحاجب : أدخل من الملك محتاج إليه محمد بن عبدالملك الزيات فأدخله الحاجب فوقف محمد بين يديه خائف وأمر الواثق خادمه بإحضار المكتوب الفلاني. فأحضر له المكتوب الذي كان الواثق قد كتبه وحلف فيه ليقتلن ابن الزيات شر قتلة ، فدفعه إلى ابن الزيات ليقرأه، فلما قرأه قال : «يا أمير المؤمنين أنا عبد إن عاقبته فأنت حاكم فيه، وإن كفرت عن يمينك فيه واستبقيته كان أشبه بك» فقال له الواثق : « والله ما أبقيتك إلا خوفاً من خلو الدولة من مثلك، وسأكفر عن يميني فإني أجد عن المال عوضاً ولا أجد عن مثلك عوض».[2]

كفر الواثق عن يمينه واستوزره بعد ذلك وفوّض إليه الأمور وغلب عليه، فكان الواثق لا يصدر إلا عن أمره ولا يعين عليه فيما يراه.[3]

مكث محمد بن عبدالملك في خلافة الواثق طول فترة خلافته، ولم يستوزر الواثق غيره إلى أن توفى وتولى الأمر بعده المتوكل.[4]

كان محمد بن عبدالملك في خلافة الواثق لا يحفل بالمتوكل ولا يوجب حقه، ويُقال أن الواثق غضب مرة على أخيه المتوكل ووكل عليه من يحفظه ويأتيه بأخباره. لذلك قصد المتوكل محمد بن عبدالملك يسأله أن يكلم الواثق في أمره ويسأله الرضى عنه. فوقف المتوكل بين يدي الزيات لا يكلمه ولا يهتم بوجوده، ثم أشار عليه بعد ذلك بالجلوس، فلما فرغ من الكتب التي بين يديه سأله : ما حاجتك؟ قال: جئت أسأل أمير المؤمنين الرضا عني. فقال الزيات لمن حوله : انظروا يغضب أخاه ثم يسألني أن استرضيه له. إذهب فإذا صلحت رضي عنك.[5]

---

(١) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٣٤.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٦٢.

(٣) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٤، ص٦٦.

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٥٧٩.

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٧، ٣٦.

قام المتوكل من عنده حزيناً وجاء إلى القاضي أحمد بن داؤود فقام إليه أحمد واستقبله على باب البيت وقبله ولم يدع له شيء من البر والإكرام إلا فعله وقال له : ماحاجتك؟ جعلت فداك. قال : أحب أن ترضى عني أمير المؤمنين قال أحمد : افعل ونعمة عين وكرامة . فكلم أحمد الخليفة في أمره فوعده ولم يرض عنه ثم كلمه فيه ثانية ورضي عنه.[١]

أما الزيّات فإنه لم يكتفِ بإخراجه للمتوكل فحسب بل نجده ما أن خرج عنه المتوكل حتى أخذ داوة، وكتب للواثق « أن جعفراً أتاني فسأل الرضا عنه ولـه وفرة شبه زي المخنثين فأمره الواثق أن يحضره من شعر قفاه فاستحضره فجـاء المتوكل يظن الرضـا عنه وأمر الواثق بأن يؤخذ من شعره ويضرب به وجهه وفعل به ذلك .[٢]

كل هذه المواقف من الزيات جعلت المتوكل يحقد عليه ويضمر له السوء، فلما تولى الخلافة بقى شهراً ثم أمر بعد ذلك بالقبض عليه في صفر سنة ٢٣٣هـ - ٨٤٧م. واستصفى أمواله وأملاكه.[٣]

وبعد القبض عليه سلط عليه أنواع من العذاب ، فقد كان ينخس بمسلة حتى لا ينام، وبعد ذلك ترك يوماً لينام وبعدها جعل في تنور - عمله هو وعذب به شخص يُدعى ابن أسماط المصري - وكان التنور من خشب فيه مسامير من حديد أطرافها إلى داخل التنور وتمنع من الحركة ، وكان التنور ضيقاً بحيث أن الإنسان يمد يده إلى فوق رأسه ليقدر على دخوله لضيقه.[٤]

كان الزيات شديد الجزع كثير البكاء من هذا العذاب [٥] ، ولما اشتد عليه العذاب وكثر. طلب من الموكل به أن يأذن له في دواة وبطاقة ليكتب فيها ما يريد، فاستأذن الموكل به في ذلك فأذن له وكتب:-

فمـــن يـوم إلـــى يـوم ** وكأن ما تريك العين في النـوم

لا تجزعـن رويــداً إنهـا دول ** دنيا تنقـــل من قوم إلى قـوم

وسيرها إلى المتوكل فأنشغل عنها ولم يقف عليها إلا في الغد. فلما قرأها أمر باطلاق صراحه فجاءوا إليه فوجدوه ميتاً.[٦]

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣، ص٥٧٩.
(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٧، ص٣٧.
(٣) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٣، ص٥٧٩.
(٤) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٤، ص٨٨.
(٥) ابن الأثير : المصدر السابق، ج٧، ص٣٧.
(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٦٣.

كانت الفترة بين حبسه في التنور وبين موته أربعين يوماً .[1] ولما مات حضره أبناؤه سليمان وعبيدالله وكانا محبوسين ، وطُرح على الباب في قميصه الذي حُبس به ، فقالا : «الحمد لله الذي أراح من هذا الفاسق» وغسلاه على الباب ودفناه ، وقيل أن الكلاب نبشته وأكلت لحمه.[2]

وقد سمع قبل وفاته يقول لنفسه : «يا محمد لم تنفعك النعمة والدواب والدار النظيفة والكسوة الفاخرة وأنــت في عافية حتى طلبت الوزارة ذق ما عملت بنفسك» ثم سكت عن ذلك وكان لا يزيد عن التشهد وذكر الله .[3]

كان الزيات زكياً فبرع في كل شيء حتى صار نادرة وقته عقلاً وفهماً وذكاءاً وأدباً وخبرة بآداب الرياسة وقواعد الملك.[4]

كما كان الزيات بليغاً عالماً بالنحو واللغة وكان القوم إذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك في علم النحو قيــل لهــم أبعثوا إلى محمد بن الزيــات الكاتب فأسألــوه واعرفوا جوابـه، فيفعلون فيصدر الزيات جوابه بالصواب.[5]

وكان الزيات شاعراً مجيداً ، وهو القائل في تحريض المأمون على إبراهيم بن المهدي حين خرج عليه:-

ألم تر أن الشيء للشــيء علــة ** تكون له كالنار تقــدح بالزنــد

لذلــك جربــنا الأمــر وإنمــا ** بذلك ما قد كان قبل على البعـد

وظنــي بإبراهيــم أن فكاكــه ** سيبعث يوماً في الهزل منه والجد

كما كان للزيات أبيات شعر جيدة النظم في رثاء المعتصم.[6]

والزيات مع جمعه تلك الصفات إلا أنه كان جباراً متكبراً فظاً غليظ القلب خشن الجانب مبغضاً إلى الخلق.[7] وقد قيل أن خادمه قال له يوماً : يا سيدي قد صرت إلى ما صرت إليه ، وليس لك حامد. فرد عليه الزيات قائلاً : وما نفع البرامكة صنعهم. قال الخادم : ذكرك لهم هذه الساعة.[8]

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٤، ص٨٨.
(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٧، ص٣٨.
(٣) نفس المصدر، ج٧، ص٣٨.
(٤) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٣٤.
(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٥٩.
(٦) المسعودي : المصدر السابق، ج٤، ص٨٨.
(٧) ابن طباطبا : المصدر السابق، ص٢٣٤.
(٨) ابن خلكان : ج٢، ص٤٦٣.

الخاتمة

الخاتمـــــة

وبعد ... أحمده تعالى حمداً طيباً كثيراً أن وفقني من اتمام هذا البحث، وأتمنى أن أكون قد وفقت في عرض حال الوزارة في العصر العباسي الأول، وهذه هي أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

إن منصب الوزير قد ظهر مبكراً في الدولة الإسلامية منذ عهد النبي ﴿ﷺ﴾ والخلفاء الراشدين. كما ظهر في الدولة الأموية بصورة باهتة فحكام المسلمين إلى آخر عهد بني أمية كان يعاونهم كبار الكتّاب إلا أنه لم يسموهم وزراء أنفة منهم لأن الخليفة عظيم ، فهو أعلى وأجل من أن يحتاج إلى مؤازرة.

كما أوضحت الدراسة أن ها المنصب نما بشكله الرسمي في الدولة العباسية، فقد اتخذوه العباسيون من الفرس ضمن ما اتخذوه من نظم إدارية أخرى.

أبرزت الدراسة المهام العظيمة التي يقوم بها الوزراء في الدولة العباسية من تقديم النصح والإرشاد للخليفة والاشراف التام على دواوين الدولة.

وأبرزت الصفات الجميلة والخلال الحميدة التي اتصف بها الوزراء من الكفاية والأمانة والبلاغة والذكاء، فضلاً عن صفة الكرم التي اتصف بها جميع الوزراء.

كما أوضحت أن العجم كان لهم النصيب الأكبر في هذا المنصب، وقد كانوا في هذا المجال أبرع ن العرب رغم أنهم بخلاء على الدولة وإن كان مؤسسوها منهم. ومما ساعد العجم على بسط أيديهم في قصور الخلفاء هو أنهم قوم كانت لهم حضارة قديمة وسياسية موروثة يعرفونها ويحذقونها ويجيدون خدمة الملوك ومعاشرتهم مما جعل الخلفاء يطمئنون إليهم، ويفتحون لهم آذانهم ويفضلونهم على من سواهم.

ومن مهمات الأمور التي أبرزتها الدراسة الدور الكبير الذي لعبه بنو برمك في ساحة الأحداث السياسية ابتداءاً من خالد بن برمك الذي تولى وزارة السفاح، ومن بعده ابنه يحيى وأولاد جعفر والفضل الذين تولوا وزارة هارون الرشيد وعملوا على إرضاء الناس جميعاً لا فرق بين عربي وعجمي، فساسوهم سياسة واحدة ترغم الجميع على حبهم والتعلق بهم وتجعلهم يعمون عن أي سيئة تقع منهم، ولو وقعت على رأس الخليفة نفسه. فجلسوا للناس جلوساً عاماً ينظرون في حوائجهم لا يحجبون أحد ولا يستترون عن أحد، وأغدقوا على الحرمين القمح والتمر، وأجروا على المهاجرين والأنصار وعلى وجوه أهل الأمصار ورجال الدين وعشاق الأدب، فمدحهم الشعراء بأشعار وقصائد طويلة حتى فاق مدحهم لهم مدح الخلفاء أنفسهم.

كما أوضحت الدراسة الدور الكبير الذي لعبه الوزراء في الصراع بين الأمين والمأمون، وذلك بالتحريضات المستمرة من وزير كل واحد منهما على الآخر ، والتي انتهت بقتل الأمين في السنة الأولى من توليه الخلافة.

أبانت الدراسة عن وجود أسرة أخرى كان لها أيضاً الدور الكبير في ساحة الأحداث السياسية، وهي أسرة بني سهل التي تمثلت في الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل الذين استبدوا بالأمور كالحال مع البرامكة، فقد استولى الفضل بن سهل على المأمون واستبد به وحجزه عن الناس عامة والعرب خاصة. فثار عليه العرب ثورة كبرى انتهت بقتله على يد المأمون.

ومما وضح من هذا البحث المكايدات التي كان يقوم بها هؤلاء الذين يطمعون في الوزارة، فقد كانوا يحاولون الوصول إليها بأي ثمن وعن أي طريق، سوى عن طريق التقرب للخليفة أو القيام بأعمال جليلة ترفع من قدرهم عنده. وعندما يصلوا إليها فإنهم يتمسكون بالمحافظة عليها بكل الوسائل. لذلك نجدهم يكيدون لبعضهم البعض، ويعمل كل منهم على الوقيعة بأخيه.

ومما أوضحته الدراسة تعرض هؤلاء الوزراء للنكبة. فقد كان خلفاء الدولة العباسية يميلون للأعاجم وغير الأعاجم – وهم القلة – ويستعينون بهم ويسندون إليهم المهم من الأمور ، وفي نفس الوقت متيقظين لهم جامعين السلطان في أيديهم ، ومتى ما شعر الخليفة أو شك في ولاء وزيره له فإنه يبادره بنكبة عظيمة سواء بالاقصاء عن الوزارة أو السجن أو القتل.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً المصادر العربية

١- القرآن الكريم.

- الأبشيهي (شهاب الدين أحمد»

٢- المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة، ١٩٥٣م.

- ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم).

٣- الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٥م.

- الأربلي (عبدالرحمن بن سنبط).

٤- خلاصة الذهب المسبوك، مختصر من سير الملوك، القاهرة، ١٨٨٥م.

- الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين).

٥- الأغاني، القاهرة، ١٩٣٦م.

- البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل).

٦- البدء والتاريخ، باريس، ١٩١٦م.

- البغدادي (أحمد بن علي).

٧- تاريخ بغداد، القاهرة، ١٩٣١م.

- البيهقي (أبو الفضل محمد بن حسين).

٨- تاريخ البيهقي، القاهرة، ١٩٥٦م.

- ابن تغري بردي (جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبدالله الطاهري).

٩- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٣٠م.

- الجهشياري (أبو عبدالله محمد بن عبدوس».

١٠- الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، القاهرة، ١٩٣٨م.

- ابن الحسن (عبدالله).

١١- آثار الأول في ترتيب الدول، بيروت، ١٩٦٦م.

- ابن حنبل (أبو عبدالله أحمد بن محمد).

١٢- المسند، تحقيق أحمد محمد شاكر، المعارف، ١٩٥٤م.

- ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد).

١٣- العبر وديـوان المبتدأ والخـبر في أيـام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأعظم، بيروت ١٩٦١م.

١٤- المقدمة ، تحقيق علي عبدالوهاب، ١٩٦٦م.

ابن خلكان (أحمد بن محمد بن إبراهيم).

١٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء ازمان، القاهرة، ١٣٤٦هـ.

- الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داؤود).

١٦- الأخبار الطوال، تحقيق عبدالسلام عامر، بغداد ، ١٩٦٠م.

- الزبيدي (أبو الفيض محب الدين).

١٧- تاج العروس من جواهر القاموس، القاهرة، ١٣٠٦هـ.

. ابن الساعي (الخازن البغدادي).

١٨- جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، حققه مصطفى جواد، دار المعارف، مصر، ١٩٥٧م.

- السمعاني (عبدالكريم بن محمد)

١٩- الأنساب، ليدن، ١٩١٢م.

- الشاطبي (أبو محمد).

٢٠- الاعتصام ، مصر، ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م.

طاش كبري زادة (أحمد بن مصطفى).

٢١- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق كامل بكري، عبدالوهاب أبوالنورج، القاهرة، ١٩٦٨م

- ابن طباطبا (محمد بن علي الطقطقي)

٢٢- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، ١٩٦٠م.

- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير).

٢٣- تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، ١٩٦٦م.

- ابن طيفور (أحمد بن أبي طاهر).

٢٤- تاريخ بغداد، ليبزج، ١٩٠٨م.
- ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي).
٢٥- العقد الفريد، القاهرة، ١٩٤٨م.
- ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي).
٢٦- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، ١٣٥٠هـ.
- أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل).
٢٧- المختصر في أخبار البشر، القاهرة، ١٣٢٥هـ.
- ابن قتيبة (عبدالله بن مسلم الدينوري).
٢٨- الشعر والشعراء، تعليق مصطفى السقا، القاهرة، ١٩٣٢م.
٢٩- الأمامة والسياسة، القاهرة، ١٩٠٩م.
- القزويني (زكريا بن محمد).
٣٠- آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٥٨م.
- ابن كثير (عماد الدين الدمشقي).
٣١- البداية والنهاية، بيروت، ١٩٦٦م.
- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد).
٣٢- الأحكام السطانية، القاهرة، ١٩٠٨م.
٣٣- أدب الوزير، تحقيق فؤاد عبدالمنعم، القاهرة، ١٩٦٨م.
- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين).
٣٤- مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م
٣٥- التنبيه والاشراف، تصحيح ومراجعة إسماعيل الصاوي، القاهرة، ١٩٣٨م
- ابن منظور (أبو الفضل محمد جمال الدين).
٣٦- لسان العرب، القاهرة، ١٩٥٩م.
النويري (أحمد بن طاهر).
٣٧- نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م.
- ياقوت الحموي (أبو عبدالله).

٣٨- معجم البلدان، القاهرة، ١٩٣٦م.
- اليعقوبي (أحمد بن يعقوب بن وهب بن واضح).
٣٩- تاريخ اليعقوبي ، النجف، ١٣٥٨م.

ثانياً : المراجع العربية الحديثة

- إبراهيم أنيس
٤٠- المعجم الوسيط، دار المعارف ، مصر، ١٩٧٣م.
- برانق (محمد أحمد).
٤١- الوزراء العباسيون، القاهرة، ١٩٤٨م.
- بطرس المعلم.
٤٢- محيط المحيط، المجلد الثالث، بيروت، ١٨٧٠م.
- حسن (حسن إبراهيم).
٤٣- النظم الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٢م.
- الخضري (محمد).
٤٤- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٠م.
- الدوري (عبدالعزيز)
٤٥- العصر العباسي الأول، بغداد، ١٩٤٥م.
- رفاعي (أحمد فريد).
٤٦- عصر المأمون، القاهرة، ١٣٤٦هـ.
- شكري (عاطف).
٤٧- الزندقة والزنادقة ، عمان، ١٩٣٨م.
- شلبي (أحمد).
٤٨- السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي، القاهرة ١٩٦٧م.
٤٩- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٦م.
- كرد (علي محمد).

٥٠- الإدارة الإسلامية في عز العرب، القاهرة، ١٩٣٤م.

- كرم البستاني.

٥١- المنجد في اللغة العربية، دار المشرق ، بيروت، ١٩٧٣م.

ثالثاً : المراجع الأجنبية المعربة

- برو كلمان (كارل)

٥٢- تاريخ الشعوب الإسلامية،نقله إلى العربية نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، بيروت،١٩٤٩م.

- بيدبا.

٥٣- كليلة ودمنة، نقلها إلى العربية ابن المقفع، القاهرة، ١٩٦٨م.

- خودا بخش.

٥٤- الحضارة الإسلامية، ترجمة علي الخربوطلي، الجيزة، ١٩٦٦م.